

حياة بطرس



تعريف
القمص مرقس داود

دكتور
ف.ب. ماير

حياة بطرس

بطرس الصياد

بطرس التلميذ

بطرس الرسول

تأليف

ف. ب. ماير

ترجمة

القمص مرقس داود

مكتبة المحبة



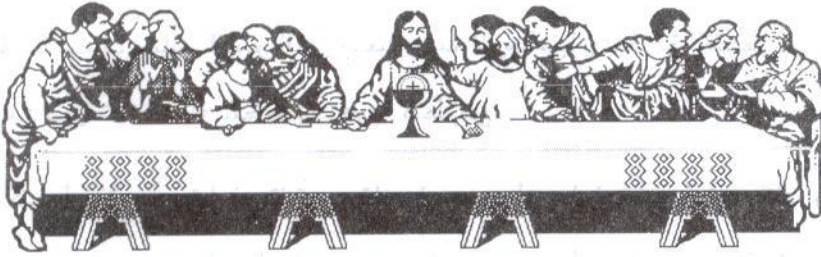
إن في حياة بطرس ما يجعله أقرب الشبه لنا من سائر رفقاءه الرسل، فنحن نوقر يعقوب أخا الرب بسبب سموه في القداسة، ونجد مشقة كبرى إذا ما حاولنا تتبع يوحنا في طبقات السماء الرفيعة التي كان يخلق فيها بقوة إيمانه. أما بطرس، فإن طبيعته البشرية ظاهرة بأجلى وضوح، إنه قريب إلينا جدا في سقطاته وفي تساميه، إنه محاط بالضعف مثلنا، الأمر الذي يبعث فينا الرجاء بأن الخالق القدير يستطيع أن يخلق من طبيعتنا المماثلة شخصيات قوية كبطرس.

كنت أرافق صديقا في تفقد حقله، فوجدت أن ما فيه من نبات يكاد أن تخنقه الأشواك. رافقته في زيارة تالية، فوجدت البون شاسعا. وعلمت منه أنه اشترى هذا الحقل بثمن بخس بسبب عوامل الإهمال التي عبثت به، وأنه بعد شرائه عنى به عناية شديدة نحو تنظيفه وتوفير كل ما يحتاجه من رى وصرف. ولشد ما كانت دهشة صديقي عندما حصد منه محصولا وافرا لم يكن يحلم به. لقد كانت البذور متوارية في بطن الأرض وقتا طويلا، تكاد أن تموت بسبب عدم تعهدها بالخدمة والرعاية. ولكنها، إذ عنى بها العناية الغنية، برزت إلى الظهور.

كان الأمر يحتاج إلى ثاقب نظر السيد ليرى فى سمعان بن يونا - الصياد -
رسولا... وإلى رعاية المخلص ليُظهر الصفات الكامنة فيه، والتي نجد آثارها فى كل
فقرة من رسالتيه، والتي أهلتها لأن يكون قائد الكنيسة الأولى.

ولكن، إن كان الرب قد استطاع أن يفعل هذا به، فما الذى يعيقه عن أن يفعله بى
وبك أيها القارئ العزيز؟

ف.ب. ماير





مثل الحبة الصغيرة التى إذا ما نبتت ونمت، صارت فيما بعد شجرة كبرى تتأوى فى ظلها طيور السماء، هكذا كانت حياة سمعان بطرس* كان قرويا بسيطا، قليل العلم، يحترف مهنة متواضعة هى صيد السمك* إنسانا عاديا، له فضائله، وله أخطأؤه وضعفاته مثل الكثيرين منا* ولكن هذه الشخصية البسيطة، فى بدايتها، عندما تسلمها يسوع المسيح، صارت شيئا عظيما مجيدا، امتد أثره الجليل إلى كل الأجيال التالية*

وصلته دعوة المعلم الجديد، الذى كان يطوف مدن فلسطين وقراها يعلم ويبشّر ويشفى، فترك كل شئ وتبعه* عاش مع يسوع فى حياة التلمذة... أكل معه، وشرب معه... رافقه فى البرية وفى الجبل، فى البر وفوق المياه... شاهد معجزاته والأعمال المجيدة الكائنة منه، واستمع إلى كلمات الحياة الأبدية التى خرجت من فمه... أصغى إلى صلواته... ولمس حياة القداسة والبر والكمال الإلهى فيه؛ المحبة والحنو، العطف وطول الأناة، الاحتمال والصبر، الصراحة والشجاعة الأدبية الفائقة... إلى أن اصطحب سيده إلى بستان چثسيمانى، ثم إلى الجلجثة، والصليب* وأخيرا، عاين سيده، وقد قام منتصرا على الموت وعلى الخطية التى كان الموت أجرة لها*

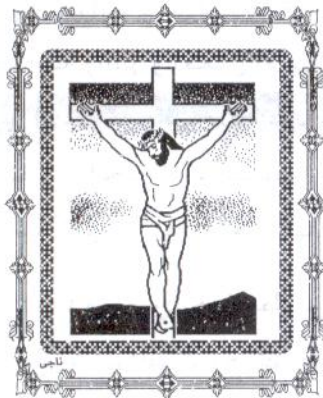
لقد كان الكتاب المقدس أمينا فى سرد حياة بطرس، بضعفاتها الأولى، ثم بقوتها الدافقة بعد صعود المسيح للمجد وانسكاب الروح القدس* عندئذ، تغير بطرس صياد السمك إلى صياد الناس، وراعى النفوس الحكيم* ولمعت حياته بنور معرفة ومحبة الله، وكرّس حياته تماما للخدمة وتأدية الرسالة التى قبلها من الرب يسوع، وأجرى الله على يديه قواته غير المعتادة*

هذا هو موضوع هذا الكتاب . وهذه هي الحلقة الجديدة فى السلسلة المباركة من حياة أبطال الكتاب المقدس، التى وضعها ماير، وترجمها حافظ داود، وقامت بنشرها مكتبة المحبة .

والله القدير، الذى بارك «حياة يوسف»، و «حياة إبراهيم» و «حياة إيليا»، و «حياة إرميا»، وغيرها مما سلف نشره، قادر أن يجعل من «حياة بطرس»، بما فيها من اختبارات روحية عميقة، ورسائل سامية، سبب بركة للكثيرين .

وإذا كان أحد القراء يشعر فى ذلته مثل ما شعر بطرس، عندما هتف: «يا رب اخرج من سفينتى لأنى إنسان خاطئ»، فىا ليته يسمع جواب يسوع: «لا تخف، من الآن تكون تصطاد الناس» . ويسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، وقوته المغيّرة والمجددة والعاملة بقوة فى حياة الكثيرين، لا تزال تتطلب أوانى خزفية لتملأها من بركات الروح لخلاص كثيرين لمجد الله .

أ.ب.





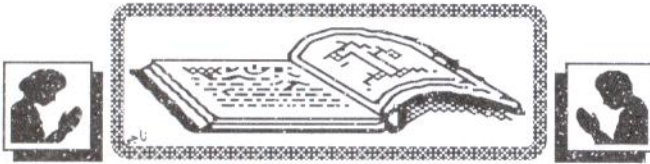
يسرنا أن نضم كتاب «حياة بطرس» إلى سلسلة الكتب التي أصدرتها المكتبة من مجموعة الكتب القيمة تأليف ف. ب. ماير الكاتب اللاهوتي الكبير، وتعريب القمص مرقس داود.

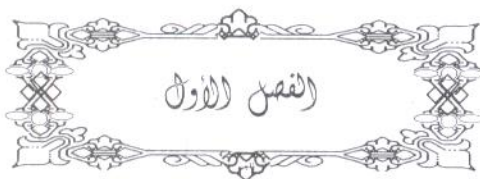
لقد نشرت المكتبة «حياة يوسف»، و «حياة إبراهيم» و «حياة إيليا»، و «حياة إرميا»، فكان إقبال حضرات القراء على اقتنائها وتقديرها كبيرا، مما شجعنا على متابعة إصدار بقية هذه المجموعة.

وها هو «حياة بطرس»، كسابقه، مليئا بالتأملات الروحية، والدراسات العميقة، والتعاليم الإلهية، والتعزيات السامية، التي تتكشف لنا عند دراسة هذا السفر النفيس، ونقف على دقائق هذه الحياة المباركة.

نرجو الله أن يجعله بركة وعزاء وواسطة خلاص لنفوس الكثيرين...

مكتبة المحبة





﴿ كلمة تمهيدية ﴾

﴿ مت ٣ : ١ - ١٢ : ١ مر ١ : ١ - ٨ : ١ يو ١ : ٣٥ - ٤٥ ﴾

- ❖ أين التعاليم التي نادى بها المعمدان؟
- ❖ أين النفس الثابتة واللسان الذي لم يتلعثم؟
- ❖ أين الحكمة الكاملة التي نالها بعد صلوات عميقة انفرادية سكبها في الجبل والبرية؟
- ❖ أين من قال: «ينبغي أن ذلك يزيد وأنى أنا أنقص»، لكي تهرع ليسوع البشرية؟

﴿ كبل ﴾



في الحقبة الأولى من التاريخ، يتبين الفرق بين طريقة الصنع الإلهية، وطريقة العمل البشرية. فالإنسان، وهو واثق كل الثقة بقدرته على الإنشاء والإتمام، يقول: «هلم نبين لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء... لئلا نتبدد على وجه كل الأرض» (تك ١١ : ٤)؛ أما الله فيبدأ عمله في الخفاء، ويعمل بشكل عجيب في أقسام الأرض السفلى. إنه يدعو أحد الأفراد من وسط الجماهير، يدربه طويلا بكل روية وتأنٍ، وأخيرا يجعله شريكا له؛ مركز دائرة جديدة، قناة يسكب منها نفسه على العالم. إن طريقة الإنسان قد انتهت بالفشل في بابل، أما طريقة الله فإنها، على العكس، تبلغ حد الكمال في مدينة الله الحي، في أورشليم النازلة من فوق.



إن أغلب الذين دُعوا من وقت لآخر لهذه الخدمة المباركة قد اختيروا من الجُهلاء، الضعفاء، المحتقرين، لكى يكون فضل القوة لله وليس للإنسان. لقد حصلت أُلوف من الاستثناءات، ولكن - كقاعدة عامة - لم يُدعَ للخدمة كثيرون من الحكماء، أو العظماء، أو الشرفاء، حسب تقدير هذا العالم. فالطينة التى اختيرت منها أوانيه كانت طينة عادية، والصخرة التى قُطعت منها أحجاره كانت صخرة عادية.

إذن، فلا نعجب إن علمنا أن قائد جماعة الرسل اختير من بين طبقة البشر العادية، وأن رواية حياته تبدأ فى تلك القرية المجهولة «بيت صيدا» الواقعة فى الشمال الغربى لبحيرة الجليل. كان هنالك بون شاسع بين بساطة بيوت الصيادين فى هذه المدينة، وبين فخامة قصور المدينة العظيمة المجاورة «كفر ناحوم» التى بناها الولاة الرومانيون الذين افْتَتَنُوا بطقسها البديع وجمالها الطبيعى الخلاب. كان الشاطيء يزدان بالقصور الفخمة، والأبنية الحكومية البديعة. وكانت الطُرُق مكتظة بالعربات المظلمة، وكانت الزوارق المؤثثة بأفخم الأثاث تمخر عباب البحيرة.

﴿١﴾ مجيء ابن زكريا

لعل سكان البلاد الأصليين كانوا ينفرون من أخلاق وعادات الغزاة، ولو أنهم كانوا لا يرون ضيرا من الاستمتاع بثروتهم. فى أيامهم، كانوا يتحدثون عن أيام يهوذا المكابى السعيدة، وكذا عن أيام يهوذا الجليلي، اللذين استطاعا أن يردا حتى القوات الرومانية على أعقابها أكثر من مرة. كان صدى صوت تلك الأيام الغابرة الخالدة لا يزال يرن فى آذانهم؛ وقد جَدَّ عامل آخر، هو ذلك الرجاء العجيب جدا الذى كان يخفق فى صدور الكثيرين، والمتضمن بأن المغتصب سوف يُطرد عبر البحر العظيم، وأن المُلْك سوف يُرد مرة أخرى إلى إسرائيل. كان البعض يقولون بأن أسابيع دانيال قد أوشكت أن تنتهى، والبعض قالوا بأن سمعان الشيخ قد شهد قبل موته بأنه حمل مسيح الرب على ذراعيه. والبعض الآخر تحدثوا عما رآه وسمعه الرعاة من التسبحات الملائكية، وقالوا أن شهودا، لا يتطرق الشك إلى صدق روايتهم، شاهدوا بعض العلامات وسمعوا أصواتا، وأن هذه وتلك تنبىء بأن أحداثا خطيرة لابد حادثة. وهكذا: «كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون فى قلوبهم» (لو ٣: ١٥).

وبغته، انزعجت البلاد، وارتجت على أثر الأنباء التى ملأت كل الأرجاء بأن الله افتقد شعبه. وإذا كان جماعة من الحجاج يعبرون الأردن بالقرب من أريحا، استلفت نظرهم منظر غريب... رجل قوى العضلات، تربى فى الصحراء، بادريهم بهذه الأقوال: «تأبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات». وإذا استفاقوا من ذهلهم، واستطاعوا أن يستأنفوا المسير إلى أورشليم، كان حديثهم الوحيد تلك الصورة الغريبة، صورة ذلك الرجل القريب جدا من البدو، والقريب جدا من الأنبياء فى نفس الوقت، عن ذلك الصوت الداوى الذى رن فى آذانهم، عن ذلك المجد السماوى الذى شع من وجهه والذى كان ينبىء، بكل جلاء ووضوح، عن غير المنظور، الأبدى. وعجبوا من أنه لم يكن له مسكن سوى مغارة متواضعة، ومن أن طعامه لم يتعد جرادا مغموسا بالماء ومشويا على انار، مع قليل من العسل ليحلى مذاقه مقبولا، ومن أنه ليس له زوجة أو بنون. كانت هذه الأمور موضوع تفكير كل الشعب الذى كان على أهبة الاستعداد فعلا: «الشعب الجالس فى ظلمة أبصر نورا عظيما» والجالسون فى ظلال الموت أشرق عليهم الفجر.

ذاعت الأنباء فى كل الأرجاء بسرعة البرق، فوصلت إلى قرى لبنان الجبلية فى الشمال، وامتدت إلى الجنوب حتى مراعى بيت لحم وحبرون، وصارت موضوع حديث الكهنة فى أوقات استراحتهم بين خدمات الهيكل، والحكام فى مكاتبهم، ورجال الأعمال فى الأسواق، والتجار فى حوانيتهم. وتحدث بها السيدات التقيات وهن يستقين من الآبار، بينما كان الرب يصغى إليهن ويكتب فى سفر التذكرة. والأطفال طُلب منهم أن يوقروا اسم يوحنا، ابن زكريا، الذى شهد والداه اختبارات عجيبة وقت ولادته.

وعندئذ، قامت كل البلاد قومة رجل واحد. كانت تلك السنة هى السنة السابعة التى يكف فيها الحرّاث والكرّامون عن العمل. فكان للرجال أوقات فراغ وافرة جدا لتركوا بيوتهم وحقولهم، وكرومهم، وبساتينهم. سارت جماعات كثيرة جدا من الشعب وسط أراضٍ لبست حلّة سندسية وانبعث منها روائح الزهور العطرية، مزدحمين نحو وادى الأردن... «حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن» (مت ٣: ٥)، واعتمد جماهير كثيرة فى الأردن معترفين بخطاياهم. ولا شك فى أنه كان بينهم أندراوس وبطرس أخوه، وكذلك رفيقاهما كل أيام الحياة: يعقوب ويوحنا.

﴿٢﴾ تأثير المعمدان على بطرس

كان بطرس متزوجا، على أن الزواج بين الشرقيين يتم في سن مبكرة. إذن، فقد كان في فجر حياته. ثم إنه كان متهورا، متسرعا، حاد الطبع، يزج بنفسه فيما لا يعنيه. ولهذا، فلم يكن يُحسب إذ ذاك في عداد القديسين بأي حال من الأحوال. وهو، وإن كان قد سقط في خطية الحلف، عندما فاجأته الخادمة في بيت قيافا، فإنه لم يتردى إليها بهذه السرعة إلا إذا كان قد تعود عليها في فجر حياته. ولا شك في أنه كان أمينا في تأدية واجباته الدينية، وكل الطقوس والفرائض الرسمية، مواظبا على حضور الأعياد في الهيكل، ودفع كل ما يُطلب منه، وكان أيضا محترما من الناحية الأدبية. كذلك كان مقتنعا بأنه جدير أن يسمى ابن لإبراهيم. وهذا يذكرنا بالكلمات التي وصف بها بولس حياته الأولى كأحد أبناء المجمع: «كنت عائشا بدون القاموس قبلا» (رو ٧: ٩).

ومنذ شبابه، كان وطنيا متحمسا. وكان، كأصدقائه ورفقائه، مستعدا لتضحية كل شيء يملكه ليرى نسل داود متربعا مرة أخرى على كرسي داود. لهذا، عندما سمع - هو وغيره - أخبار ظهور المعمدان، حيوها ورحبوا بها، لأنها كانت تبشر بعصر جديد، وبدأوا يتساءلون عما إذا كان هذا هو المظهر الأول للملكوت الذي كان يعدّه إله السماء، والذي سوف لا يزول، والذي سوف لا يترك سلطانه لشعب آخر، بل يحطم كل الممالك الأخرى، ويثبت إلى الأبد.

وشاركه أصدقاؤه في هذا الاقتناع وذلك الرجاء. ودّع بطرس وأخوه وأصدقاؤهما بيوتهم، وتركوا عملهم، «وخرجوا لينظروا»، آخذين معهم خيمة بسيطة للمبيت فيها، وكيسا من النقود لسد احتياجاتهم. عبروا الأردن بجوار بيت عبرا، وانضموا إلى الجموع الحاشدة التي كانت تشق وادي الأردن، قادمة لتشهد خدمة المعمدان.

ولا شك في أنه بدا إليهم أن المعمدان، وقد انتصب على إحدى صخور البرية، وبدأ يخاطب الجماهير المزدحمة المنذهلة، التي اجتمعت من كل مكان لتسمع، كأن هذا مقدمة ليوم الدينونة. كان واضحا جدا أنه لم يكن قصبة تحركها ريح الأهواء كما ذكر عنه السيد. لم يعرف كيف يتزلف أو يتملق أو يستعطف، بل كان يتحدث بما يعرف،

ويشهد بما رأى. لم يظهر بين ربوات البشرية أعظم من يوحنا، وأدرك بثاقب نظره الادعاءات الجوفاء التى كان يفاخر بها الكتبة والفريسيون، وشبَّههم بالأفاعى، وهددهم بالفأس التى وُضعت على أصل الشجرة، والرفش، والنار التى لا تُطفأ. ولقد كانت نظراته الحادة الثاقبة تحمل تهديدا لأولئك الخطاة الذين رفضوا التوبة. وكان يؤمن بأن الله قادر أن يجعل من حجارة الصحراء أولادا لإبراهيم. يقينا إنه، كما كان نورا يشتعل، فقد كان أيضا يضىء.

أمام كرازة كهذه، لابد أن يكون بطرس قد تأثر تأثرا عميقا.

أمام هذه الكلمات، ماتت الخطية، وعاش هو، وأحس - كما اعترف فيما بعد - بأنه «رجل خاطيء»، ولطالما خرج مرارا - كما فعل فى السنوات التالية - واعتزل وبكى بكاء مرا. لهذا، فإنه عندما رأى جماهير اليهود الغفيرة نُخست قلوبهم يوم الخمسين، وسألوا قائلين: «ماذا نفعل؟» عرف تماما مقدار شعور الألم فى داخلهم. ولعله اعتمد على يدى المعمدان، واعترف بخطاياهم. ولهذا، فقد وُلد من الماء، كما وُلد فيما بعد من الروح القدس.

﴿٣﴾ حديث بطرس الأول مع الرب

لعله كان حاضرا عندما اعتمد المسيح. ولكنه، إلى ذلك الوقت، لم تكن حواسه قد سمت لينظر السماء مفتوحة، أو يبصر الحمامة نازلة. أو لعله كان متغيبا فى قضاء مصلحة شخصية. يقينا إنه لم يكن حاضرا عندما شهد المعمدان للمخلص كحمل الله فى يومين متوالين. على أنه عاد فى الصباح التالى لليوم الذى تم فيه الحديث الخطير بين أخيه وذاك الذى اعترف المعمدان بأنه ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه.

قضى أندراوس ويوحنا بضع ساعات فى رفقة المسيح المباركة. لقد رحَّب بهما المسيح لاتباعه. وإذ كان يتحدث إليهما عن الأمور السماوية، كانا غارقين فى التفكير، ومنصتين بكل انتباه. ولعلهما كانا يستمعان إلى حديثه عن ذلك الوصف الغريب فى التجربة التى خرج منها توا، ثم إنه أخبرهما عن الطريقة التى تخيرها لاسترداد الملكوت

بالصبر والآلام، لا بالقوات المسلحة. وإذا كانا يصغيان، كان قلباهما يلتهبان داخلهما، وأدركا بكل اقتناع أنهما وجدا مسيا، وامتلا قلباهما بفرح لم يختبراه من قبل.

وإذا خرجا من حضرة المسيح، قال أحدهما للآخر: «يجب أن نخبر سمعان بكل هذا حالما نجده.» وكان طبيعيا أن يجده أندراوس أولا، وجاء به إلى المسيح، قائلاً: «وجدنا مسيا.» كأنه كان لابد له من أن يتغلب على شيء من التردد. ليس من السهل إمساك المهر أو الجحش الصغير، كأنه يعرف ماذا سيترتب عليه رباطه للمرة الأولى.

تأثر بطرس غاية التأثير بهذه المقابلة. فقد وجد في هذا المعلم نوعاً آخر غير ما عهده في معلمه الأول يوحنا. ولعل المسيح كان أقل جاذبية لذلك الصياد القوى البنية عن ابن الصحراء القوى العضلات. ولعله لم يوجد فيه الميل للتأثر لأول وهلة من النعمة والحق، من لطف وطهارة واتضاع حمل الله وإنكاره لذاته. ولكن، إن كان هذا هو شعوره الأول، فقد أعقبه مباشرة شعور الرهبة والانذهال والتعجب، عندما تفرست عينا المسيح الفاحصتان في أعماق طبيعته، وقال له: «أنت تدعى صفا.» [١]

هذه هي طريقة الرب في صوغ القديسين. إنه يتحدث عن: «الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو ٤: ١٧). وعندما يكون القلب منسحقاً كسيراً - كما كان الحال مع بطرس - يتحدث إليه بكلمات التشجيع والإنعاش. ويهب البر حينما لا يكون متوفراً سوى شعاعة ضئيلة من الإيمان. وهو يخاطبنا، ليس كأننا قد نلنا أو صرنا كاملين، بل باعتبارنا أننا نتبعه. وهو يُحيي فينا الرجاء بإظهار الإمكانات التي ما كنا نحلم بالوصول إليها؛ على قبر رجائنا يتحدث بكلمات القيامة والحياة.

وفي ختام هذه المقابلة، قال بطرس لنفسه: «آه، إنه لا يعرف أنني متقلب وشاذ في طباعى. ففي لحظة قد أكون حاراً جداً، وبعدها أكون بارداً جداً. ومع ذلك، إن كان قد رآني خليقاً بأن أكون صخرة، وواضح أن هذا هو ما يعتقده فيّ، فلماذا لا أعزم، بمفعونته، أن أبليغ إلى ذاك الذى أدركنى، المسيح يسوع ربى؟»

﴿١﴾ كلمة آرامية، يقابلها باليونانية: «بطرس».

بنفس هذه الطريقة لا يزال مخلصنا يعاملنا. إنه يخبرنا عما نستطيع الوصول إليه بإنماء مواهبنا واستخدامها استخداماً حسناً، وبفعل النعمة الإلهية. وإذ هو يتحدث، يمنح كل معونة لازمة. عندما تُمسكنا يد القدير، ويوشحنا بقوته العلوية، يصير الضعيف كداود، ويصير داود كملاك الرب، وتصبح التضحية عموداً في الهيكل، والحصاة صخرة، وأول الخطاة أعظم القديسين.

قيل عن «ميشيل أنجيلو» [١] إنه نظر إلى القطع الرخامية التي نبذها غيره نظرة مغايرة، وأيقن أنه بذكائه يستطيع أن يُخرج منها تحفة فنية آية في الجمال، ويتعهد بإظهارها إلى عالم الوجود، فيكون أول عمل يلجأ إليه هو أن يُظهر الصورة الجميلة المتوارية. إنه رأى بطرس في سمعان، وإسرائيل في يعقوب، وبولس في شاول، وأخبر كلا منهم بذلك.



﴿١﴾ Michael Angelo نحّات ومصوّر ومهندس إيطالي، عاش في أواخر القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السادس عشر. أظهر من الذكاء ما رفعه إلى مصاف العظماء، وإليه يعزى الفضل في تجميل كنائس روما وفلورنسا.



﴿ الأيام الأولى فى مدرسة السيد ﴾

﴿ يو ١ : ٤٣ ، ٣ : ٣٠ ، مت ٤ : ٢٣ - ٢٥ ﴾

❖ «مما أعطيتنى أقدم لك يا سيدى، من فضة
أو ذهب، ومن كل ما ملكت يدي، قدمي
اللتين يجب أن تتبعاك، وشفتي اللتين يجب
أن تسبحاك، وكل عضو فيّ يجب أن يجد
فى خدمتك قبل أن يشيخ ولا يعود صالحا
لأى شىء..»

﴿ ك. كنجسلى ﴾



لابد أن تكون تلك المقابلة الأولى قد شغلت عقل سمعان
ابن يونا، وأذهلته. لقد حركت خدمة المعمدان كوامن نفسه. أما هذه
الشخصية الجديدة المباركة، فإنها قد كشفت له عن الإمكانيات التى فى
متناول يده، والتى لم تخطر بباله من قبل. فقد كان يبدو إليه أنه غير
ممکن أن يصير كالصخرة. ولو أن أصوات الملائكة نادته من السماء، أو
لو كانت العليقة قد اشتعلت بالنار، لكان تعجبه أقل بكثير من هذه الحالة
الراهنة؛ لأنه عجب كل العجب من أن يصير هو صخرة.

ولكن «إبرآم» الذى لم يكن له نسل، صار «إبراهيم»، أى أبا
لجمهور من الأمم. و«يعقوب» الماكر المخادع، صار «إسرائيل» الأمير.
و«جدعون»، أصغر بيت أبيهو خلّص إسرائيل من المديانيين. على أنه لم



يكن هناك تناسب على الإطلاق بين طبيعته وبين تلك التسمية الجديدة «صفا». عندما أعطى وعد مشابه لجده الكبير، سقط على وجهه وضحك. ولكن، رغم ذلك، فقد سمع فى خيمته ضحك طفل، واستطاع أن ينعم بطفل يولد منه. ليس شئ غير ممكن لدى الله. لقد فتح بطرس قلبه للمسيح، ولم يغلقه فى وجهه من بعد، واتصلت نفسه به اتصالا وثيقا فى ولاء تام. دع أولئك الذين يذكرون اختباراتهم، عند الالتقاء بالمسيح لأول مرة، يحدثونك عما إذا كانت هنالك مبالغة فى حديثنا هذا عن بطرس، فإن الذين رأوا وجه المسيح حقا، ولو مرة واحدة، لن يهدأ لهم بال حتى يدركوا ذاك الذى أدركهم لأجله المسيح.

﴿١﴾ أحاديث الرفقة فى المسير

مهما بلغ ببطرس من انشغال باله، فإنه أدرك حالا أن يسوع كان قاصدا الذهاب إلى الجليل، ولذلك صمم على أن يرافقه. كانت المسافة من بيت عبرا إلى قانا نحو ثلاثين ميلا، وكان على الجماعة القليلة العدد أن تبدأ رحلتها فى جمال الصباح الباكر. وواضح أنهم لم يكادوا يتركون منظر خدمة المعمدان، حتى التقوا بفيلبس (يو ١: ٤٣)، وإن كان الوحي قد عنى بأن يذكر أن فيلبس كان من بيت صيدا التى هى مدينة أندراوس وبطرس (ع ٤٤)، فالأرجح أن ذلك يتضمن بأن الأخوين كان لهما دخل كبير فى عثور المسيح على فيلبس وسرعة تلييته للدعوة.

كانت هذه الرحلة الأولى، وسط جماعة كهذه، بداية لاختبارات كثيرة مشابهة إلى ذلك اليوم الذى أخذهم فيه يسوع إلى بيت عنيا واختفى عن أعينهم وارتفع إلى السماء. على أن هذه الرحلة الأولى تركت أثرا لا تُمحى ذكراه، فإنه حالما سار هؤلاء التلاميذ الجدد مع المسيح، وسمعوه يقرأ العهد القديم، التهبت قلوبهم داخلهم.

وعندما اقتربوا من تلك القرية الصغيرة «قانا»، ورأوا من بُعد منازلها البيضاء تومىء إليهم إذ كانوا يصعدون الجبل، بعد أن تركوا سهل اسدرايلون الغنى بخيراته، تقدم فيلبس مسرعا إلى الأمام، ليعلن اكتشافه لأحد أصدقائه الأتقياء - نشائيل. وجد فيلبس نشائيل إذ كان يتأمل فى قصة السلم الملائكى الذى رآه يعقوب فى حلمه. لم

يدرك ذلك الإسرائيلي البسيط أنه سوف يمثل دور السلم حرفيا فى حياته الشخصية، وأن خدمة الملائكة كانت جارية فعلا، وأنه فى مقدوره أن يصعد السلم الذى يوصله إلى حضرة الله.

ولعل الرب وتلاميذه لبثوا ضيوفا فى بيته، فتعرّف بطرس بصديق جديد سوف يرتبط به برابطة وثيقة كل أيام الحياة. على أنه فى وليمة عرس قانا الجليل، التى دُعوا إليها جميعا فى اليوم التالى، تعلم أعمق الدروس من السيد الذى أخلص له كل الإخلاص.

لا شك فى أنه ذهل جدا فى أول الأمر. قبل أن يشهد يوحنا ويتأثر بخدمته، كان أسمى تفكيره فى الديانة ينحصر فى رئيس المجمع، والفريسيين وتعاويذهم، والكهنة فى خدمتهم فى الهيكل. على أن عدم ثباتهم وتقلبهم زادا فى جلال ومجد وقدااسة يوحنا. فإنه حتى هيرودس نفسه اضطر للاعتراف بأنه «رجل بار وقديس» (مر ٦: ٢٠). تأثر بطرس والباقون، واستهوى قلوبهم ذلك النوع الجديد من القداسة الذى لم يألوه فى الحياة البشرية، والذى لا بد أن يكون مصدره الله نفسه. فإنهم، إذ رأوا زهد يوحنا البالغ، وما بدا عليه من أنه لم يكن فى حاجة لعطف أية امرأة عليه، أو الحذب على أى طفل صغير، وإذ أبصروا شدة استغراقه فى عشرة الله، والاتصال به وجها لوجه، وإذ أدركوا أنه لم يكن يخشى أى إنسان فى الوجود، أو يخضع لأى سلطان، استرعت كل هذه الصفات ولأهم التام له واحترامهم إياه. ولعلمهم، عقب أحد أحاديثه الخطيرة، خاطبوا بعضهم البعض بهذه الكلمات: «إنه يتكلم كإيليا أو كملاخى». وعلى أى حال، فإن كلماته لا يمكن أن تتم عن حقيقته أو عن كل صفاته. لذلك، فإنه عندما قدمهم يوحنا للمسيح، وقال لهم عنه إنه أرفع منه قدرا لأقصى حد، كانوا يتوقعون أن يروا فى المسيح نفس النوع من القداسة فى مجدها الرهيب الفريد.

﴿٢﴾ عرس قانا الجليل

على أن يسوع أخذهم إلى وليمة قروية، حيث كان جماعة من الفلاحين البسطاء، القادمين أصلا من الكروم المبعثرة على الجبال المحيطة قد أقاموا حفلة عرس. جلس

هنالك بين الشباب والشيخ كضيف الشرف أو كمقدم الجماعة. كان وجهه يشع منه نور الفرح، وكانت كلماته تزيد في سعادة الجماعة، وكان مجلسه موضوع فرح الأطفال وترحيب الشبان والشابات. وكان هذا في الواقع نوعا جديدا من القداسة لم يكن منتظرا. راقب بطرس ورفقاؤه الأمر عن كثب إذ اتكأوا مع المسيح في الوليمة. لو أن المعمدان كان حاضرا، فماذا عساه أن يفعل؟ أوافق على هذا؟ يقينا إن هذه لم تكن هي ديانة المجمع أو الهيكل. ولكنهم، إذ تعمقوا رويدا رويدا في تعاليم صديقهم العجيب ومعلمهم، ازدادوا اقتناعا بأن هذه هي الديانة التي كان يتطلبها العالم. فإنهم لم يكن في استطاعتهم أجمعين أن يقتدوا بزهد المعمدان في وحدته وعزلته العجيبة في الصحراء. فبطرس على الأقل كان متزوجا، ولكنهم، جميعا، يستطيعون أن يقتفوا خطوات معلمهم الجديد في سعادة وبهجة الحياة العائلية.

وفضلا عن هذا، فقد تعلم بطرس دروسا كثيرة هي:

﴿١﴾ أن الرب، رغم أنه تحدث مع أمه بمنتهى الاحترام، إلا أنه كان تحت إرشاد أسمى هو إرشاد السماء.

﴿٢﴾ أنه عندما تُقدَّم إليه مجرد إشارة بسيطة جدا لطلب المساعدة، يعرف تماما كيف يقدمها.

﴿٣﴾ إن الذين يُدعون للتعاون معه، يجب عليهم أن يقدموا له طاعة كاملة.

﴿٤﴾ إن الماء الذي يرفعه خدامه يتحول إلى خمر الشركة المقدسة.

﴿٥﴾ أنه يريد على الدوام أن يغيّر أتباعه من حسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى أسمى وأفضل.

هذه دروس ثمينة اكتشفها بطرس ورفقاؤه. ويا لغبطة تلك الجماعة التي تركت قانا عند انتهاء العرس... «وبعد هذا، انحدر (يسوع) إلى كفر ناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه» (يو ٢: ١٢). وواضح أنهم اعتزموا على اتخاذ كفر ناحوم إقامة مستديمة. ولكن، لأن فصح اليهود كان قريبا، لم يستطيعوا البقاء بها أياما كثيرة. ويا للأخبار التي

كان سوف يحملها الأخوان لأبيهما، وتناقش أهلها فى أمر ذلك التحول الغريب الذى حصل فى حياة هؤلاء الصيادين، وتعجبوا جدا .

﴿٣﴾ اضطراد نفوذ السيد فى الازدياد

رغم أن السيد وتلاميذه صعدوا إلى العيد، مع عائلاتهم على الأرجح، إلا أنهم التقوا ثانية فى تخوم المدينة المقدسة . رأى بطرس وسائر رفقائه ما أذهلهم، إذ نظروا معلّمهم الوديع والمتواضع القلب يطهر أروقة الهيكل كأنه قد اتشح بقوة إيليا . وشاهدوا تلك العلامات التى أقتعت بعض الحاضرين كنيقوديموس على أن الله معه . وراقبوا ازدياد غضب وجهاء اليهود إذ تحدوا سلطة الناصرى على الهيكل المقدس . وتأملوا طويلا فى تلك الكلمات التى أكد بها أنه يستطيع بناء الهيكل فى ثلاثة أيام، مع أنهم لم يفهموا المعنى البعيد لهذه الكلمات إلا بعد قيامته من الأموات .

ولأن بطرس أخبرنا صريحا فيما بعد فى خطابه الذى ألقاه فى بيت كرنيليوس بأن الله بشرّ بالسلام بيسوع المسيح فى كل اليهودية، فإننا من ذلك نستنتج أنه على الأقل رافق السيد فى تلك الرحلة العظيمة الأولى، فى نفس تلك الأقاليم التى حياه فيها ثانية كل من أنياس وطايبثا وسمعان الدباغ بعد ذلك ببضع سنوات .

ولعل بطرس ورفاقه أيضا، فى تلك الرحلة، قابلوا للمرة الأخيرة معلّمهم السابق، الذى ذكرهم بأنه لم يتوقع أكثر من أن يكون صديق العريس . وإذ تشرفوا بزيارته، ولاحظوا تناقص العدد الذى كان يحضر إلى معموديته، قال لهم: لا تحزنوا من أجلى، إننى فى غاية السرور، فرحى قد كمل، إننى من الأرض أراضى، ومن الأرض أتكلم، أما هو فقد جاء من السماء، وهو فوق الجميع (يو ٣: ٢٦ - ٣١) .

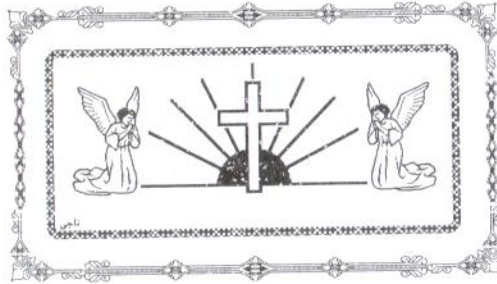
انقضت على هذه الحال تسعة أشهر . ولعل بطرس قد قام ببضع زيارات لبيته، على أنه عاد لمساعدة السيد فى معمودية أولئك الذين اعترفوا بخطاياهم وتركوها، «لأن يسوع نفسه لم يكن يعمّد، بل تلاميذه» (يو ٤: ٢) . ولتجنب شكوك الفريسيين التى كانت فى تزايد مستمر، عاد السيد وتلاميذه إلى الجليل، مخترقين سوخار والسامرة

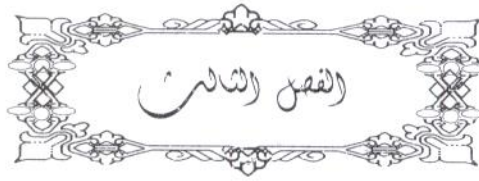
(يو ٤ : ١ - ٥)، وقاصدين مدينة قانا، حيث تفرقت الجماعة، عاد هو إلى الناصرة، أم هم فإنهم ذهبوا إلى بيوتهم المتعددة. ولعل الباعث إلى هذا، تلك العاصفة التي عصفت أولا، والتي اكتسحت المعمدان، حيث زج به هيرودس في أعماق السجن.

ويظهر أنه قد انقضت فترة أخرى - نحو تسعة أشهر - ظل فيها السيد وحيدا. صحيح إنه كان دائم الاتصال بتلاميذه وأصدقائه، ولكنهم لم يجاهروا بالاتصال به. إنه كان، في صمت وهدوء، يُعدهم للمستقبل العظيم الذي كان ينتظرهم، والذي كان - إلى ذلك الوقت - محتجبا عن أعينهم.

وأخيرا، عندما تمت مأساة قتل يوحنا، ولم تعد هنالك فائدة من زيادة الإبطاء، خرج المعلم وحده، وصار: «يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفى كل مرض وكل ضعف في الشعب. فذاع خبره في سورية... فتبعه جموع كثيرة من الجليل، والعشر المدن، وأورشليم، واليهودية، ومن عبر الأردن» (مت ٤ : ٢٣ - ٢٥).

أحس بطرس بهذه النهضة العظيمة، فوجده أمرا عقيما أن يلزم قواربه وشباكه. كان يحلم بيسوع في الليل، ويرقب مجيئه بالنهار وحالما أشرق نور الصباح، أبصر السيد على الشاطئ. وهذا اليوم غير كل مجرى حياته. وتلك البذرة التي غُرسَت بالصبر في تلك الشهور المنصرمة بهدوء، قد بدأت تعطي ثمرها يانعا، أولا بشكل نبات. لهذا، نتوسل إليك بكل تواضع، يا إلهنا المبارك، أن تأخذنا إلى مدرستك، وتعلمنا.





﴿ الاستعداد للتأثير العظيم ﴾

﴿ مر ١ : ١٤ - ٢٠ : ٥ : ١١ ﴾

❖ «قد تعبنا الليل كله عبثاً. ولكن، على كلمتك المباركة ألقى - للمرة الثانية - الشبكة، فنتم إرادتك يا ربى.»

﴿ كبل ﴾



انقضت تسعة شهور فى كد وكفاح، كان الرب خلالها يتمم رسالته وحيدا فى كل أرجاء الجليل، وكانت شهرته تزداد انتشارا يوما بعد يوم. وإذ سمع أن يوحنا «أُسْلِمَ»، ازداد نشاطا فى الخدمة (مر ١ : ١٤). وعندما عاد إلى بيته فى كفر ناحوم، حيث استقر أصدقائه وتلاميذه على ما يظهر، بذل جهده مرة بعد أخرى لتعليمهم المبادئ السامية التى تركزت عليها حياته، ولإعدادهم لتلك الساعة الفاصلة التى سوف يأمرهم فيها أن يتركوا كل شئ، ويقوموا، ويتبعوه. حلت هذه الساعة على هذا الوجه:

﴿ ١ ﴾ المنظر

كان الوقت فى الصباح الباكر فى أحد أيام الخريف، وكانت مياه البحيرة تستعد لاستقبال أشعة الشمس التى تشرق ببطء من وراء الجبال الشرقية. ولقد كانت زرقة السماء الصافية، ومنظر الزهور



الرائعة الجمال، وألوان الأشجار والأعشاب التى تدللت على حافة المياه، وتتوّع الأنوار الساطعة على الجبال، وشكل الثلوج المتلائة فوق قمة جبل حرمون العظيم الذى، ولو كان بعيدا جدا، إلا أنه كان جاثما ناحية الشمال، سيدا على كل ما عداه من الجبال، وصوت الأمواج التى تنكسر على شاطئ البحيرة الزاخرة بمياهها - كانت كل هذه العوامل التى تجمعت معا خير استعداد للحادثة العظمى فى حياة الصيادين الأربعة الذين قصد الرب بهم أن يحدثوا تغييرا فى مستقبل العالم كله.

لقد كانوا أصدقاء منذ حداثتهم، وكانوا مشتركين مع آبائهم فى صناعتهم، وكانوا تلاميذا غيورين، وأصدقاء حميمين لذاك الذى كان يحرك كل البلاد.

كانوا دائمي التحدث عن حياته، وأعماله، وكلماته، كل أوقات الصيد ليلا. ولعلمهم - عقب ليلة فاشلة - كانوا يتحدثون عنه إذ كانوا يقتربون من الشاطئ، وكان لسان حالهم يقول: «أيسعدنا الحظ بأن نراه سريعا؟»

بعد هذا، نزلوا إلى البر وغسلوا شباكهم، ونشروها لتجف. وإذا بهم يبصرون جمعا غفيرا يقترب إليهم، ويزحم صديقهم الحميم ومعلمهم العزيز. وفى لحظة، نسوا تعبهم ومرارة فشلهم، وجوعهم، ومطالب بيوتهم، وعائلاتهم، واستعدوا للترحيب به. أما هو، فإنه قصد سفينة بطرس، وطلب منه أن يبعد قليلا عن البر، ويركز السفينة فى أحد الخلجان الصغيرة. هنالك جلس، وتحدث إلى الجموع. وكان البعض جالسين على الصخور، والآخرين واقفين، على أن الكل كانوا يتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه.

لعله كان من نصيب بطرس أن يركز السفينة فى مكانها بواسطة المجداف أو «الهلب»، وإن كانت مثبتة، فلعله كان جالسا فى منتصفها، مثبتا عينيه نحو وجه السيد، ومتلهفا لسماع كل كلمة. لم يتكلم إنسان قط مثل هذا؛ فقد كان يعلم كمن له سلطان، وليس كالكتبة. رأى بطرس وسائر رفقائه فى هذه التعاليم، كلام الحياة الأبدية، كما اعترفوا فيما بعد. ولا شك فى أن قلوبهم قد تأثرت كل التأثر عندما سمعوا السيد فيما بعد يردد فى صلاته الخالدة الرائعة هذه العبارة: «الكلام الذى أعطيتنى قد أعطيتهم، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنى خرجت من عندك..»

﴿٢﴾ الأوامر التى لا تقبل التغيير

عندما يشرع الرب فى صياغة آنية للكرامة مستعدة لخدمته، سواء أكانت من ذهب وفضة، أو من خشب وطين، يكون له كل الحق فى استخدام سلطته وحقه ليصدر أوامره. وهذه الأوامر لا تقبل المناقشة أو الجدل، ولا تقبل التردد أو الرجوع للوراء. يجب أن تخضع له الروح والنفس والجسد مهما كان الثمن غاليا. فالتلميذ يجب أن يترك كل شئ ويتبعه. وكما كان مستعدا أن يتألم حتى الموت، هكذا هو يطلب ممن يتخذهم فى دائرة شركته الداخلية أن يستلحوا هم أيضا بهذه النية، لكى لا يعيشوا أيضا الزمان الباقي لشهوات الجسد، بل لإرادة الله (١ بط ٤ : ١ و ٢).

لعل بطرس والباقيين عرفوا هذا بوجه عام. فإنهم لا يمكن أن يكونوا قد قضوا معه هذه المدة الطويلة، دون أن يكونوا قد تحققوا قوة تلك الكلمة الرائعة التى نطقت بها مريم مخاطبة الخدام فى عرس قانا الجليل: «مهما قال لكم فافعلوه».

لقد كانوا مستعدين أن يقدموا له الطاعة والولاء فى الناحية الأدبية والأخلاقية، وفيما يفرضه عليهم من واجبات. ولكنهم ذهلوا جدا عندما فوجئوا ووجدوه قد تخطى حدوده، واقتحم دائرة عملهم العالمى الذى اختصوا به دونه، وقال لبطرس: «ابعد إلى العمق وألقوا شباككم للصيد». ولعل طاعة بطرس قد اعتراها الوهن برهة، فعبر عن تردده بهذا الرد: «قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيئا».

كان بطرس متعودا الصيد فى هذه المياه منذ حدثته، وكان قد أتقن مهنة الصيد كل الإتقان. كان يعرف طباع السمك، الأوقات والأماكن الأكثر مناسبة للصيد، تأثير كل تقلبات الجو. كان ملما بكل هذه النواحي، ولا شك فى أنه لم يكن ليقبل أى تدخل من أى صياد. ولكنه الآن يجد نفسه وقد صدر إليه أمر لا يتفق مع اختباره، يتعارض مع كل قواعد المهنة والاختبار فى كل الأجيال، ويتعارض مع فشلهم الذريع فى تلك الليلة السابقة التى سببت له الإجهاد والتعب الشديد وانكسار القلب.

لقد كان مستعدا لإطاعة أقل وصية تخرج من فم السيد. ولكن، كيف يتاح لذلك الذى قضى أيامه فى حانوت النجار، فى قرية صغيرة جبلية، أن يصدر أمرا باتجاه سير السفينة، وإلقاء الشبكة؟ أكان منتظرا أن يظهر كفاءته فى هذه الناحية أيضا؟ لم يكن الصباح هو الوقت المناسب للصيد. فنور النهار يجعل خيوط الشبكة واضحة أمام السمك؛ ثم إن السمك لا يوجد فى العمق، بل فى الأماكن القليلة العمق من البحيرة. ولا شك فى أن كل الصيادين، الذين قد يرون سفينة محملة بالشباك فى ساعة كهذه، ومتأهبين للصيد، يضحكون عليه، ويعتقدون أن به خيلا. ألم يكن هذا هو الحال مع جميع الذين استخدمهم المسيح فى أجلّ الخدمات؟ لا يمكن أن ينبجأ أحد من الامتحان. ففى ساعة معينة، وسط اختباراتنا، بعد أن نكون قد صرنا تلاميذ بسنوات طويلة، يأتى السيد على ظهر سفينة حياتنا، ويعلن السيادة الكاملة على الحياة. قد نبدأ بأن نتساءل أو نناقش أو نتردد لحظة أو ساعة. لقد تعودنا أن ندبر الخطط لأنفسنا، ونتبع الخطة المرسومة، ونسلك الطريق المطروق، وأن لا نستمع لأية نصيحة فى مهنتنا التى نجدها كل الإجابة. فهل نسمح أو نتجاسر بأن نسلم الأمر للمسيح على طول الخط؟ وإلى أية جهة سوف يقود السفينة؟ وإلى أى حد سوف يخاطر بالسفينة؟ وهل نضمن ألا يقود السفينة إلى مكان خطر ترتطم فيه؟ طوبى لنا إن كنا - بعد لحظة التردد هذه - نستطيع أن نجيب: «رغم كل ذلك، فإننى، إطاعة لأمرى، سأذهب إلى العمق وألقى الشباك للصيد». وعلى أى حال، فإنه مما لا يدع مجالا للشك، أنك إن أردت أن تعتمد على رفقة لك، وبركته إياك، فيجب أن تكون مستعدا لأن تبهر حسب أمره، وتتمم وصاياه كالملائكة، وتصغى لصوت كلمته.

هكذا كان الحال فى كل الأجيال، ولا يزال. عندما تكون آذان الأغلبية مكتظة بسماع غوغاء الطريق وضجيج المزدحمين، عندما يكون أبناء هذا العالم منشغلين فى اللعب فى الأسواق يصرخون لرفقائهم، بل عندما يكون طالبو الحق أنفسهم منزعجين بسبب الزلزلة أو الريح الشديد الذى يمزق الجبال، فإن أذن التلميذ الحساسة تسمع همس الصوت الهادئ الرقيق، كما فعل إيليا مرة فى مغارة حوريب.

فى بعض الأحيان، قد يستطيع الآخرون تفسير ذلك الصوت أفضل منا، كما فعل صموئيل «ففهم على أن الرب يدعو الصبى» (١ صم ٣: ٨).

وفى بعض الأحيان، يخترق إلى «مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ» (عب ٤: ١٢)، كما حصل عندما أمر الرب أب الآباء لتقديم ابنه على جبل موريا.

وفى بعض الأحيان، يتطلب منا أن نبيع كل شئ ونأتى ونتبعه إلى الصليب، كما حصل مع الشاب الغنى.

ولكن، حيثما تحدّث، يمكن تمييزه بترديده المستمر لنغمة واحدة، كصوت الناقوس الذى يدق بعيدا جدا عن الشاطئ. إنه لا يمكن أن يوجد فيه الـ «نعم» والـ «لا»، بل هو على الدوام فيه الـ «نعم». كثيرا ما تحدّث إلينا متحديا اختباراتنا العادية، ومتخطيا العرف المألوف، ويطلب منا أن نترك الشاطئ الذى لازمناه طويلا. وهو، بصفة عامة، يقدّم إلينا المحك لاختبار إيماننا، ويعرّضنا لهزء وسخرية أصدقائنا، ولكنه يؤيده فى أعماق نفوسنا عندما نلبى النداء. وكثيرا ما عززته الظروف وزادته تأكيدا، فإن عناية الله تشهد للصوت الداخلى. وكل الذين يعصون هذا الصوت، يحكمون على أنفسهم بالتشريد والشقاء المقيم. أما الذين يقدمون الطاعة، فإنهم يدخلون إلى ميراث أبدى مجيد.

يجب أن نعطى القيادة والسيادة للمسيح. يجب أن يُخلّى المعلم السبيل إلى المعلم الأعظم. يجب الخضوع لإرادته، ولو بدت بأنها تتعارض مع أحب رغبات النفس.

إن أردنا للسفينة رحلة موفقة، وعودة ناجحة محملة بالسّمك الكثير، فيجب عدم إيجاد رئيسين فيها. يجب أن تلبى النداء اليوم، الآن. إن لديه مكانا لأجلك، وهو يريد أن يستخدم حياتك، ولكّلك يجب أن تضع نفسك تحت تصرفه. لا تسمح بأن تقيد نفسك بأية عادة، أو أى ظرف، أو بالعُرف المألوف. وعندما تمسك بالمجداف، اترك القيادة للمسيح. وإطاعة لأمره، ابعد إلى العمق، واذكر أن هنالك، عبر المياه، يوجد طوف الأبدية، حيث ينتظر نفوس الطائعين ما أعدته العناية الإلهية: «جمرا موضوعا وسمكا

موضوعا عليه وخبزا» (يو ٢١: ٩)، وحيث تعود السفينة إلى الشاطئ «ممتلئة سمكا كبيرا مئة وثلاثا وخمسين» (يو ٢١: ١١).

«بذبيحة وتقدمة لم تسر، أذنى فتحت، وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد، هأنذا جئت لأفعل مشيئتك، وشريعتك فى وسط أحشائى، لذلك عرفت أنى لا أخزى» (مز ٤٠: ٦ - ٨؛ إش ٥٠: ٥ و ٧).

﴿٣﴾ الطاعة تقود إلى العمق

حالما يتسلم الرب القيادة، يقود السفينة إلى العمق. وحينئذ، لا نعود بعد فى المياه الضئيلة، بل نبدأ عملنا فى المياه العظيمة: «النازلون إلى البحر فى السفن، العاملون عملا فى المياه الكثيرة هم رأوا أعمال الرب وعجائبه فى العمق» (مز ١٠٧: ٢٣ و ٢٤). عمق المشورة الأبدية التى اختارتنا فى المسيح قبل إنشاء العالم. عمق المحبة الأبدية التى أحببتنا ونحن بعد خطاة. عمق الشركة والاتحاد بالله كاتحاد الآب بالابن. عمق أعمال العناية الإلهية التى تعمل وراء كل التاريخ البشرى. عمق الراحة الأبدية التى ستدخلها نفوسنا المتعبّة؛ «الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله»، ويعلمه للذين يحبونه.

ولكن دائرة التفكير محصورة هنا بنوع خاص فى عمق الشركة الإلهية. لقد ذهل بطرس إذ رأى أن السفينة اجتازت مناطق كثيرة من مناطق السمك، وشقت طريقها إلى وسط البحيرة، قبل أن يأمرهم الرب بإلقاء الشباك. وحالما بدأوا عملية الصيد، وقبل أن يكملوا كل الاستعدادات اللازمة، أدركوا أنهم أمسكوا سمكا كثيرا جدا، لدرجة أن الشباك كادت أن تتمزق. وحينئذ، صار بطرس يجاهد جهادا عنيفا لإخراج الشباك، وكانت السفينة مهددة بالغرق، ولهذا أشار بسرعة إلى شركائه الذين تبعوه - على ما يظهر - لتوقعهم حدوث حادث خطير كهذا؛ وهؤلاء: «أتوا وملأوا السفينتين حتى أخذتا فى الغرق».

وحيئنذ، أدرك بطرس، للمرة الأولى، معنى الشركة مع المسيح، وكيف أن الطاعة الكاملة من جانبنا تضمن المعونة الكاملة من جانبه. فبينما كان الصيادون يلقون الشبك، كان السيد يصدر أوامره للسماك الذى كان يرى نفسه مدفوعا بقوة لن تُقهر لدخول الشباك التى تنتظره. ألم يكن هذا ما تتبأ به المرنم فى المزمور الثامن بأن ابن الإنسان سوف يكون له السلطان على «سماك البحر السالك فى سبل المياه»؟

يا له من درس هنا لنا أجمعين. نحن نعلم كيف نتعب طويلا دون أن نمسك شيئا. وكم من مرة عدنا إلى الشاطئء بسمكة صغيرة جدا أو اثنتين. ولكن، حالما ندخل فى شركة مع ابن الله، أو نصبح له شركاء - لأننا لهذا دُعينا - فإننا نكتشف أن كل ما علينا هو أن نغسل الشباك ونصلحها، أن نتكل على السيد ليبين لنا مواضع السمك، وأن نؤمن بأنه سوف يتمم الباقي. يجب أن نتكل كل الاتكال على هذه المعونة الإلهية. يقول الرسول مؤكدا: «أمين هو الله الذى به دُعيتم إلى شركة ابنه» (١ كو ١: ٩).

وفى يوم الخميس، ألقى بطرس شبكته مرة أخرى، ولكن فى هذه المرة، وسط الجماهير العديدة الهائجة؛ ومرة أخرى، كرر الرب معجزة بحر الجليل، وملا شبكته بثلاثة آلاف نفس.

وفى بيت كرنيليوس، لم تكد شبكته تلمس الماء حتى امتلأت سمكا... «فلما ابتدأت أتكلم، حل الروح القدس عليهم» (أع ١١: ١٥). ويقينا أن بطرس، فى كل مناسبة، كان ينظر إلى وجه يسوع مبتسما، وهو يقول: «آه يا رب! هوذا معجزة بحر الجليل تتكرر.»

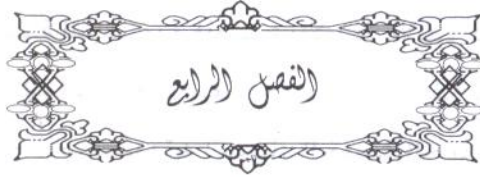
إننا نستطيع أن نحصل على نفس هذا الاختبار، بنفس هذه الشروط. وإن كنا لم نحصل عليه بعد، فلنبحث عن السبب. إنه لا يرجع إلى السيد، بل إلينا نحن، إلى طاعتنا، أو إلى شباكنا. إن كانت شباكنا هى أحاديثنا أو عطاتنا، فلنصلحها بالدرس العميق والصلوات الحارة. يجب أن تكون عيون الشبكة ضيقة، بحيث لا تسمح لأية سمكة بالخروج منها. يجب ألا ندخر وسعا فى سبيل تقديم الإنجيل للآخرين، لكى لا

يبقى عذر للسامعين. يجب ألا تقدم الحق الأبدى بطريقة غامضة، أو بعبارة ركيكة هزيلة سخيفة. أصلحوا شباكم القديمة، أو استعملوا شباكا جديدة.

واحرص أيضا على أن تكون نظيفة. اغسلها مما يكون قد علق بها من رمال أو أعشاب. تخلص من محبة الذات.

يجب ألا تحاول جعل السامعين يتغاضون عن جوهر الرسالة، ويتحولون إلى شخصك. وعندما تتم كل شيء، ثق بأن الرب، ولو كان الآن جالسا عن يمين العظمة في الأعلى، إلا أنه لا يزال يعمل مع عبيده، ويؤيد كلامهم بقوة الروح القدس.





﴿ صياد الناس ﴾

﴿ لوقا ٨ : ١١ ﴾

❖ «لست أعلم من أنا، ولكنى أعلم أننى قد رأيت
رؤى لا يسوغ التحدث عنها.
«ولست بعد أقيم وزنا للأفراح والأتراح،
ولكنى أفكر فقط فى ضعفى وتعدياتى.»

﴿ بوكائن ﴾



إن غرض السيد من دعوة تلاميذه يتكشف لنا فى الكلمات
التي يسجلها كل من متى ومرقس، والتي لابد أن يكون قد وجهها إليهم
على الشاطئ، عندما رآهم مرة أخرى يعودون إلى سفنهم: «هلم ورائى
فأجعلكما صيَّادَي الناس» (مت ٤ : ١٩). إننا نستطيع أن نوفق بين هذه
الطريقة من الدعوة، وبين تلك التي وُجِّهَتْ بنوع خاص إلى ابن يونا
المندفع، الحاد الطبع، المتحمس، والتي يدونها لوقا فى (ص ٥). مما
يلاحظ هنا - كما فى سائر الأناجيل - أن الرب يدعوهم بالاسم الأكثر
ذيوعاً «سمعان»، كأن اسم «بطرس» بقى تحت الحفظ إلى أن ينتهى
تدريبه، فى تلك الشهور التي تنتظره، لكي يأخذ مكانه اللائق بين رفقاءه
الرسل الآخرين.



لقد أقته الدعوة إذ كان منشغلا فى أعماله العادية. وداود، دُعِيَ من رعاية الغنم ليرعى شعب الله المختار. وبولس، دُعِيَ من صنع الخيام ليعلم الكنيسة بأن الأشياء التى تُرى وقتية وزائلة بالنسبة للبيت غير المصنوع بالأيدي، الأبدى فى السموات. والينايع الأبدية، أُعلِنَت للمرأة السامرية إذ وضعت جرتها بجوار بئر يعقوب. إذن، فقد كان مناسباً جداً أن يوضح الرب لصديقه الصياد الخدمة الجليلة المجيدة التى تنتظره، ويفسر لها إليه عن طريق المهنة التى كان مكباً عليها منذ حدثته، والتى كانت، من نواحٍ متعددة، شبيهة بعمل ربح النفوس. ووجه الاختلاف الوحيد، نجده فى الكلمة اليونانية المترجمة: «تصطاد»، والتى يتسع معناها إلى مدى أوسع، إذ أن معنى الأصل اليونانى: «تأخذ حياً» [١]، وقد وردت نفس هذه الكلمة اليونانية فى (٢ تى ٢: ٢٦).

فى كل الأجيال المتعاقبة، كانت هذه الكلمات موضوع تأمل عميق للكثيرين من المخلصين الغيورين، محاولين أن يستخلصوا منها سر النجاح فى ربح النفوس. منذ أكثر من مائتى عام، كتب «توماس بوسطن» فى مذكراته اليومية يقول: «فى مطالعتى السرية، التهب قلبى إزاء هذه الكلمات "تصطاد الناس"، وتاقت نفسى إلى إتمامها فى حياتى. وصرت أحاول أن أدرك كيف أتبع المسيح حتى أصير صيادا للناس. ووجهت كل قلبى للتأمل فى هذا الأمر».

قد يكون أمراً شاقاً لو عددنا الاقتراحات المنوعة التى قُدِّمت على مثال السفر الذى كتبه «بوسطن» عن «تأملات فى فن اصطياد الناس». كم من خدام أتقياء، مُنْصَبِّين على كنائس عامرة، ويلتف حولهم أشخاص أتقياء، ومتوفرة لديهم كل الوسائل: السفينة، شباك الصيد وما إليها من الطراز الأول. ولكنهم ينظرون بعين، هى أقرب ما تكون إلى عين الحسد، إلى نجاح بعض الخدام البسطاء، الذين لم يتوفر لديهم أى شئ من المساعدات البشرية، ولكنهم يخرجون سمكا كثيرا جداً من أعماق الحياة البشرية.

❖ ❶ أو: «تصطاد لكى تبقى حياً».

قال أحد الصيادين المحنكين: «احفظ نفسك بعيدا عن النظر.» وقال آخر: «يجب أن يكون الطَّعم وطريقة الصيد وفقا لعادات السمك.» ويشدد آخر على طول الصبر والأناة. أى نجاح يُنتظر إذا حُرِّكت المياه بشدة وعنف؟ كل دراسة نافعة، ولكن، قد تؤدي بنا دراسة هذا الفصل إلى زيادة التعمق فى تفهّم فكر المسيح.

﴿١﴾ إن النجاح فى ربح النفوس يتوقف بوجه عام على الاقتناع الكلى بأننا شخصيا خطاة

وفى تاريخ حياة القديسين، نجد الأمثلة الكثيرة التى تؤيد هذه الحقيقة. ولكن، لنكتف بذكر مثلين فقط. لقد جاهد رسول الأمم جهاد الأبطال، وبذل مجهود الجبارة فى دعوة الأمم. ولكنه، إذ يتأمل فى ماضى حياته، وفى حالته الطبيعية، لا يتردد فى التحدث عن نفسه بأنه «أول الخطاة» و «أصغر القديسين». ومرة أخرى، نجده يقول إننا لا نفشل لأن نعمة الله أظهرت غناها الفائق فى خلاصنا. ثم يقول: «نحن أيضا جميعا تصرفنا قبلا بينهم فى شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار. وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضا» (أف ٢: ٣).

إن «يوحنا بنيان»، الذى تطبق حياته على حياة الكثيرين ممن يضيئون كالكواكب فى دائرة ربح النفوس الموفقة، إذ تأمل فى حياته كما تبدو فى نور الله، كتب يقول: «كنت فى نظر نفسى أشد قبحا من ضفدعة، وأظن أننى كنت هكذا فى نظر الله أيضا. كنت أتمنى لو أتيح لى تغيير قلبى مع أى شخص آخر. وكنت أعتقد بأنه لا يعادلنى إلا الشيطان نفسه فى إثم قلبى وفساد ذهنى. كنت تُقلا على نفسى ورعبا لذاتى. كنت أتمنى لو أبادل أى شخص آخر بحياتى.»

إن الذين اختبروا عمليا، وأدركوا يقينا إن الخطية خاطئة جدا، هم أكثر الناس إشفاقا وعطفًا على من أصبحوا مباعين تحت الخطية، الذين يدخرون أنفسهم غضبا فى يوم الغضب، ويسببون أحزانا شديدة للمخلص، ويضيعون على أنفسهم الغرض العظيم الذى لأجله خلُقوا. إنهم يصرخون بكل حزن وألم: «أسفا أيتها النفوس المسكينة، لقد كان البعض منا هكذا مثلكم.» حينما تتجدد حياة رؤساء العصابات فى جيش

الشیطان، یصبحون جنوداً أقویاء للمسیح. فإن معرفتهم لحيّل الشیطان ومكائده لها قیمتها العظمى. والخاطيء یعرف من مرارة أجرة الخطیة ما لا یعرفه الملاك أو الطفل البرى. وأمثال أغسطينوس ویوحنا بنیان هم الذین عرفوا بالاختبار مراوغة القلب وانتحاله المعاذیر، مرارة تبكیت الضمیر، مقدار التعطش لطلب الإغاثة. إنهم یعرفون تماماً مواضع الجحور التى یأوى إليها السمك، كما یعرفون أفضل الطرق للوصول إليها. إنهم یعرفون معنى الصبر الكامل، وطول الأناة، كما تأنى الرب علیهم. إنهم یعالجون الأخطاء برقة ولطف، كما یعطفون على كل من یرفض الاقتراب منهم، لأنهم هم أنفسهم كانوا محاطین بالضعف. قد نجرّب بعض الأحيان بالقول مع أغسطينوس: «أیتها الغلطة المباركة»، لأن معرفة قلوبنا الخاطئة تعطينا مفتاح سائر القلوب التى ترزح تحت التجربة. فلا نعجب إذن إن كان الرب قد بدأ هذه الخطوة التمهیدية مع بطرس، وأعلن له نفسه.

لقد عرف الرب، هو وسائر رفقاءه، مدة لا تقل عن ثمانية عشر شهراً، ولكنهم كانوا یجهلون عظمتة الحقیقیة ومجده، فقد كان فى عرفهم مجرد نجار الناصرة، القديس العظیم، المعلم العجیب، صانع الآیات والمعجزات. وكانت فكرتهم العامة أنه كان كالمعمدان خادماً مختاراً لله، ومنادياً بعهد جدید. ولم تتسع دائرة تفكيرهم أكثر من هذا. كانوا یعتبرون المسيح من نفس جسدھم ودمھم، حسبوه شرفاً عظیماً أن یكونوا ضمن أصدقائه، وسروراً أعظم أن یشركوه معهم فى ثروتهم الضئيلة وبيوتهم المتواضعة. لم یخطر ببالهم قط أنهم یتصلون یومياً بالحمل الذى دُبِح قبل إنشاء العالم؛ وإنه لأجل خلاصهم أخلی نفسه وأخذ صورة عبد.

وفجأة، وعلى غیر انتظار، سطع نوره بشكل غریب، وأثر فیهم تأثيراً غیر عادى. بُهرت عینا بطرس برهة، وكاد أن یفقد بصره، وكان لا یستطیع أن یبصر إلا بكل مشقة بسبب مجد ذلك النور. ولكنه، إذ أحس بجذب الشبكة المكتظة بالسمك، والتى تكاد أن تتمزق بسبب حمولتها الثقيلة، تأكد فى هذه اللحظة أن معلّمه وصدیقه لابد أن یكون قد استخدم قوة فوق مقدور البشر. تأكد بأن الله موجود، وهو لم یكن یدرك هذا. ما أرهب ذلك المكان؛ لم یكن هذا إلا بیت الله، وباب السماء. وللحال، أدرك بأن

خطيته قد فُضحت، وأن نجاسة قلبه قد كُشفت، فصرخ قائلاً: «يا رب، إني رجل خاطيء»، لاحظ التغيير الظاهر: عندما بارحت السفينة، دعا بطرس «يا معلّم»، أما الآن، وقد أُعلِنَتْ له هذه الرؤية، فيدعوه «يا رب»، وعلى الفور، قال له يسوع: «من الآن تكون تصطاد الناس».

هنالك وجه للشبه - بشكل عجيب - بين اختبار بطرس واختبار أيوب، فقد كان وسط آلامه يصر على الاعتراف بنزاهته المطلقة: «حتى أُسلم الروح لا أعزل كمالى عنى، تمسكت ببرى ولا أرخيه. قلبى لا يُعَيَّرُ^[١] يوماً من أيامى» (أى ٢٧: ٥ و ٦). وبعد ذلك، سمح الله بأن يعلن له بعض الرؤى عن الخليقة، فصار يتحدث المرة بعد المرة عن قدرة القدير وحكمته وذكائه. وكما كشف عن عيني بطرس ليرى عجائب المسيح فى العمق، هكذا كان الحال مع أيوب، فصرخ حين أضاء مجد الله على نفسه: «بسمع الأذن قد سمعت عنك، والآن رأتك عيني، لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد» (أى ٤٢: ٥ و ٦).

يا لوخزات الضمير القاسية
عندما يقترب الخطاة من الله لأول مرة
هو صانعى، فهل أبقى بعيداً عنه؟
هو مخلصى، فهل أتحوّل عنه؟

إذن، فكلما جزنا اختباراً كهذا، أمكن اعتباره كتمهيد لتوفيق جديد فى خدمة رب النفوس. توقع أن تسمع الرب يجيبك على إثر اعترافك بالخطية بأن يدعوك دعوة جديدة لتأخذ السفينة والشباك للصيد. وهذا الاختبار نحصل عليه، لا مرة ولا مرتين، بل مراراً عديدة، كلما ازددنا اقتراباً من قداسة الله الكاملة.

يتميز حلول الله داخل القلب بالاعترافات، فإنه يقودنا على الدوام إلى اكتشاف الخطية والشر فى أعماقنا، وفى حركاتنا التى كانت تبدو لنا من قبل طاهرة بريئة.

﴿١﴾ أو: «ضميرى لا يؤنبنى».

والنفس الأمينة تحسب على الدوام برّها كثياب بالية، وتعتزف بأنّها لم تدرك بعد، ولم تصر كاملة بأي حال من الأحوال. والاعتراف الوحيد الخليق بنا، هو أننا نسعى لكى ندرك ذاك الذى من أجله أدركنا المسيح يسوع. كلما ارتفع النسـر فى تحليقه إلى العلى، ازداد انعكاسه تعمقا فى البحيرة. فلا تخف من أن تعرف نفسك على ضوء تعليم الروح القدس، فإن هذا إنما هو إعداد لتقدم جديد فى صيد النفوس.

﴿٢﴾ إن الفضل والخطية لا يحتمان الحرمان من رفقة الله فى ربح النفوس

«اخرج من سفينتى» أو «ابعد عني»، هذا ما صرخ به التلميذ الواقع تحت آلام توبيخ الضمير، وكأنه قال له: «إننى سأتى بك يا رب إلى الشاطئ، إلى المكان الذى أخذتك منه هذا الصباح. وعندما نخرج إلى البر، تمضى أنت إلى حال سبيلك، وأمضى أنا فى طريقي. سوف تبقى محبتي لك أبد الدهر، وسوف لا يبرح شخصك من مخيلتى ومن تفكيرى نهارا أو ليلا طالما كنت تحت قبة السماء، ولكننى لست جديرا بأن أرافقك. ولكن، لعله فى نفس الوقت ناجى نفسه بهذه الكلمات: «لا أدري كيف أعيش بدونك. إلى من أذهب وكلام الحياة الأبدية عندك؟»

إننا نتخيله يتقدم فى تؤدة إلى يسوع، وفى خجل يرتدى عند قدميه، وينطق بتلك الكلمات الخارجة من قلب مضطرب.

يذكّرنا هذا المنظر بالملك ألفريد، ملك إنجلترا، الذى، إذ كان يجول فى قرية «شروود» متنكرا، تباعد عن أتباعه وضل الطريق حتى وجده حطاب رقيق القلب، وأتنس إليه إذ ظنه زميلا له، فأشركه معه فى سريريه وفى مائدته المتواضعة، دون أن يدرك بأنه يضيف الملك بجلاله الملكى. وأخيرا، نقله إلى أتباعه، فدهش إذ وجدهم يؤدون كل واجبات الاحترام والولاء اللائقين بمقامه الملكى؛ الأمر الذى يختلف عن موقفه بإزائه. وبغته، وجد نفسه أمام الحرس الملكى الذى حال بينه وبين الملك. فتقدم باعتذارات قوية بسبب بساطة معاملته إياه، وفكّر فى توديع الملك وداعا لا لقاء بعده، وقال: «هنا، يجب أن نفترق يا صاحب الجلالة، فاذهب أنت إلى عرشك، وأنا إلى كوخى الحقير.»

أما الرب فأجاب بطرس: «كلا. فإن الخطية طالما أصبحت بغيضة، وقُدِّم عنها الاعتراف الكافي، والتوبة الحارة، فإنها لا تحول دون رفقتي لك، ولا تحرمك من خدمتي، لأننى أستطيع أن أستخدم الخطاة الذين يشعرون بخطيتهم. إنه لن توجد خطية لا أستطيع التغلب عليها مهما عظمت، أو تطهير القلب منها مهما كانت نجسة. أبق معى، فإننى سأطهرك، وأشفيك، وأخلصك، وأجعلك آلة لخلاص ألوف من الخطاة مثلك.»

من المستحيل أن ندرك، على وجه التحقيق، مقدار ما تُدخله هذه الكلمات من تعزية على قلوب أولئك الذين يرغبون فى خدمة المسيح، رغبة صادقة، مع علمهم بعدم استحقاقهم لها... «لست مستحقا أن أحمل رسالة الخلاص للآخرين، لأنى رجل خاطئ». كيف تستخدمنى وتحت أمرك جيوش من الملائكة الأطهار؟ كيف تأتمننى على خدمتك وخدمة قضيتك؟ كلا. هذا لا يمكن أن يكون. صحيح إننى أحبك، ولكن، ليكون بينى وبينك فاصل بعيد المدى، طالما كنا نسير معا فى الطريق. إن قلبى ينسحق لابتعادى عنك، ولكننى لا أستطيع أن أرفع وجهى أمامك، أو أستعيد مركزى الذى خسرتة. دعنى أقف فى الدائرة الخارجية، وأراك بين الآونة والأخرى. لا أستطيع أن أطلب أكثر من هذا، لأنك تعرف وأنا أعرف، وكل خاطئ يعرف، إننى رجل خاطئ.»

على أن يسوع ليس لديه سوى جواب واحد: «لا تخف، من الآن تكون تصطاد الناس»... لا تخف، أنا الكفيل بإتمام هذا لك... «قد محوت ذنوبك وكسحابة خطاياك» (إش ٤٤: ٢٢)، «وخطاياك لا أذكرها» (إش ٤٣: ٢٥)، «ومحبة أبدية أحببتك» (إر ٣١: ٣)، رغم أننى سبق أن رأيت فيك كل تلك النقائص والعيوب. أبتاعد عنى؟ حاشا. أنت أعز عندى من كل النجوم فى مجدها. إنك سوف تبقى معى إلى أبد الدهر، وحيث أكون أنا تكون أنت كذلك. بعد أن تجوز اختبار يوم الخمسين، وبعد أن تتمم خدمتك وتكمل جهادك، تُحسب أهلا للوقوف فى حضرتى، وتتنظر مجدى وتشارك فيه.

يا رب! هذا كثير جدا على. يكفينى أن أقبل قدميك.

﴿٣﴾ لكي تكون خدمة ربح النفوس ناجحة، يجب أن تكون هي غايتنا الرئيسية في الحياة

إنها لا يمكن أن تكون إحدى مهام الحياة. نَعَمْ ما قاله الرسول: «افعل شيئاً واحداً»... «تركوا كل شيء وتبعوه»... إننا نستطيع أن نتخيل بطرس يعود إلى مكانه بعد هذا الحديث، ويتأمل في سر الحياة التي تكشفت أمامه. وإذا كان غائصاً في تأملاته، اضطربت النيران في قلبه. أي شيء أسمى من هذا يستحق أن يعيش من أجله؟ يقينا إنه يجب أن يلي هذا النداء: «اتبعني»... «ها أنذا يا رب أتبعك».

وهنا يحلو لنا الخيال... أبحرت السفينة إلى الشاطئ، وكان قد سبقها أحد الزملاء الصيادين، فأخبر زوجة بطرس أن السفينة سوف تعود حالا إلى الشاطئ. كان الطعام ينتظره منذ الصباح الباكر، فإنها قد أعدت له طعام الإفطار، ولكنه تأخر عن موعده. فأسرعت إلى الشاطئ، ووقفت منتظرة، وازداد قلبها فرحاً حين رأت السفينة محملة بالسماك المتكاثر. وإذا اقتربت السفينة من الشاطئ، نزل بطرس، وحمل المسيح إلى الشاطئ. ثم اقترب منها، وفاجأها بهذه الكلمات بكل رقة ولطف: «أستأذنك قليلاً، فقد طلب مني المعلم أن أذهب معه. لقد طلب مني ألا أخاف، وأنه سوف يعتني بنا، ووعد أن يعلمني كيف أصطاد الناس. سوف أعود إليك حالما أتعلم درسي وانتهت مأموريتي معه. وفي الوقت عينه، يجب أن أتفرغ لخدمته. أسمح لي بذلك؟»

فأجابته الزوجة على الفور: «اذهب معه يا زوجي العزيز. سوف أتدبر الأمر كيفما اتفق أنا ووالدتي. امكث معه بقدر ما يحتاج إليك. لقد كنت أتحدث مع والدتي هذا الصباح فقط عن التغيير العجيب الذي حدث في حياتك منذ عرفته.»

وهي أيضاً آمنت. وكانت تجوب الأقطار برفقة زوجها تساعده، كما يشهد بذلك بولس (١ كو ٩: ٥). نحن لا يمكن أن نصدق بأن بطرس صار له في الحال نفس إحساس السيد نحو العطف على نفوس الآخرين؛ فهذا قد حصل عليه فيما بعد. في بداية الأمر، اكتفى بأن يتبعه، ويصفى لكلماته، ويرافقه، ويعاونه. ولكنه بعد قليل، تأصلت فيه، وفي سائر رفقاءه، نفس عاطفة السيد، حتى صارت هي الدافع الرئيسي لهم في الخدمة.

هذا ما يحصل معنا أيضا . فإننا، إذ نسير مع المسيح، نتغير إلى صورته بمعونة الروح القدس المستمرة، فتنقل إلينا عواطفه وإحساساته، ونتوق لأن نراه مكرما، محبوبا، عاليا . ونود أن يرى من تعب نفسه ويشبع . وتصير مصلحته مصلحتنا، ولا نعود ننظر إلى وراء لمصالحنا الشخصية... فينفخ الروح القدس في هذه الشرارة، حتى تصير شعلة عظيمة، فنصل إلى ما وصل إليه بطرس، الذي، بمحبته للمسيح، تأهل لأن يرفع غنمه وخرافه .

فلنطلب أن نشترك مع المسيح في عطفه على البشر . لننتقدم إلى المسيح، حتى تلهب فينا نيران تلك المحبة . لیتنا نكون شعلة دائمة من أجل المسيح، حتى تكون محبته في قلوبنا دائمة إلى الأبد، وتكون محبتنا من أجل نفوس الآخرين قوية كالموت، لا تدانيها أية محبة بشرية .





﴿ دروس أولية ﴾

﴿ مر ١ : ٢١ - ٣٩ ﴾

❖ «عسير أن يتحمل المرء وطأة الحزن، أو يجلو ظلمات الشك. وكل متألم يقول كلمته التي، إما أن تكون لخيره أو ضره. وقليلون منا هم الذين يهمس الله في آذانهم معلنا قصده. أما الباقون، فعليهم أن يتأملوا ويرحبوا بالألم، والموسيقيون هم الذين يدركون هذا.»

﴿ براوننج ﴾

لقد ذكر بولس كنيسة أفسُسَ بأنها قد تعلمت من الرب نفسه «كما هو حق» (ص ٤ : ٢١). إذن، فمن الضروري جدا أن ندرس الدروس الأولية التي بها ابتداء الرب أن يعد بطرس ورفاقه للخدمة. وعلى كل من يريد أن يكون رابحا للنفوس أن يجلس باتضاع في مدرسة السيد.



﴿١﴾ الدرس الأول : إن عشرته تؤدي بهم حتما إلى الحرب الروحية

هذا ما حصل فعلا. فإن جماعة الصيادين، القليلة العدد، رافقت معلمها إلى المجمع في السبت الأول، بعد اعتزامها النهائي على التتلمذ له. وسرعان ما انتشر خبرها في كل بحر الجليل، فسبب لها عارا شديدا جدا. وعقب انتهاء خدمة المجمع العادية، دُعى قائدهم وصديقهم لمخاطبة الجموع، فبدأ يكشف أسرار الملكوت بكلمات الروح والحياة. وإذ تبين الفرق العظيم بين حديثه الذي تفيض منه الحياة، وبين الأحاديث الميتة السقيمة التي تعودوا سماعها من الكتبة، دهشوا أيما دهشة. كان هذا الفارق أشبه بالفارق بين تدفق المياه من الشلال وبين المياه الراكدة في البركة، فإنه «كان يعلمهم كمن له سلطان». وسرعان ما رن صدى هذا التعليم في قلوبهم وضمايرهم، ولبوا الدعوة.

ساد الجماعة صمت عجيب. ولكن حبل الصمت، قطعه صراخ رجل كان يسكنه روح نجس... «فصرخ قائلا ما لنا ولك يا يسوع الناصري؟ أنا أعرفك من أنت»، اتركنا وشأننا. قد يكون هذا الروح النجس قد سكن جسم وعقل ذلك الرجل مدة سنوات طويلة، ولا يعرف هذا إلا أقرب الناس إليه. على أن حضور اللاهوت الأقدس، ولو كان متواريا خلف حجاب جسده الذي كان إلى ذلك الوقت سليما لم ينشق بعد، سبب هذه الصرخة المحتملة. إن العين الملهبة قد لا تسبب شيئا من الألم طالما كانت محتجبة عن نور الشمس، لكن، بمجرد تعريضها لنور الشمس في الظهيرة، يشتد الألم لدرجة لا تُحتمل. فماذا يكون حال النفس الدنسة عندما تواجه فجأة، في العالم الآتى، ذلك المجد الذي تغطى أمامه الملائكة الأطهار وجوهها؟

ولابد أن يكون ذلك الصراخ قد أحدث انزعاجا شديدا. قد يكون ذلك الرجل، إلى تلك اللحظة، معتبرا كعضو موقر في الهيئة الاجتماعية. لم يكن أحد يشك في أن روحا نجسا يسكنه. أما بطرس، فإنه لابد أن يكون قد أدرك فجأة أن نوع الصفات التي يحملها السيد، الكلية القداسة، يجب أن تفضح كل مملكة الأرواح الشريرة، وتثير فيها روح العداء؛ هذه المملكة التي وصفها المسيح فيما بعد بأنها هي «أبواب الجحيم».

إن المصارعة التى يثيرها «ليست مع دم ولحم، بل مع أجناد الشر الروحية» التى تسيطر «على ظلمة هذا الدهر».

أحس بطرس بارتياح شديد، إذ أدرك أن سيده استطاع أن يواجه هذه الحاجة الملحة. فإنه عندما أمر الروح النجس أن يقف عند حده، وأن يخرج من هذا الإنسان المعذب، لم يستطع إلا أن يطيع، ولو أنه جعل فريسته تثور، وتصرخ تلك الصرخة العالية غير الأرضية. واشترك التلاميذ أيضا فى الدهشة، ولكنهم أدركوا جليا ضرورة التسلح بأسلحة روحية جديدة، الأمر الذى من أجله سرَّ الرب. أدركوا أن أسلحة محاربتهم يجب أن تكون روحية لا جسدية، وإلا عجزوا عن هدم تلك الحصون، أو تحرير أولئك الأسرى، الذين ظلوا تحت ثقل العبودية طيلة أيام الحياة.

كان هذا المنظر، الذى شهده بطرس فى المجمع، باعثا له على التفكير العميق. فإنه أدرك، بسرعة البرق، أن هنالك عالما سفليا من الأرواح الشريرة، لعل بعضها من الملائكة الساقطة، والبعض الآخر «نجوم تائهة محفوظ لها قتام الظلام الأبدى» (يه ١٣). وأدرك أيضا أن هذه تتزعج بعنف إن بُذِلَ مجهود لإنقاذ فريستها، وأنها سبق أن كانت لها اختبارات عن الرب فى حالة لا يعلمها إلا الله وهى أيضا، وأنها اضطرت للشهادة لقداسته الفائقة، وأن هذه القداسة سوف تبتددها وتلاشيها عندما تدق الساعة المعينة، وأنها مهما جاهدت ضد هذه القداسة، فإنها لن تثبت أمام قوته، وأن مسرتها الوحيدة تتحصر فى خداع البشر وتعذيبهم.

لم يكن عسيرا على بطرس أن يدرك نتيجة تأثير قداسة الله فيها، فإنه هو أيضا، منذ ساعات، صرخ قائلا: «أخرج من سفينتى يا رب لأنى رجل خاطيء»، ولكن كل مخاوفه تبددت حالما أخضع إرادته لإطاعة سلطان المسيح والخضوع له. كان الأمر الذى خشيه الشيطان، فى حالة بطرس، هو القوة التى مُنحَ إياها لإبادة الخطية. وكانت رفقة المسيح له ولرفقائه تعنى «فرح لا يُنطَقُ به ومجيد». وهكذا كان يتهيأ لأن يسمع السيد يقول لهم: «اشفوا مرضى، طهروا برصا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين. ها أنا أعطىكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شئ» (مت ١٠: ٨؛ لو ١٠: ١٩).

﴿٢﴾ الدرس الثانى : الحاجة إلى الرقة واللف في الخدمة

كان بطرس قويا، عنيفا، جبارا. كان صوته قويا، ومسيره شديد الوطأة. لم تكن مسته رقيقة لتقويم القصبة المرخوة. كان لابد من تدريب طويل، قبل أن يستطيع الحث على الشفقة واللف كما فعل فى رسالتيه. كان لابد أن يذوق أن الرب صالح، وأن يلبس ذلك الروح الوديع الهادى، الذى هو قدّام الله كثير الثمن (١ بط ٢: ٣، ٣: ٤ و ٨)، لقد أعطى له الدرس الأول فى هذا الفن فى بيته.

وبعد هذا المشهد الذى تم فى المجمع، قبل الرب دعوة بطرس وأندراوس للذهاب إلى بيتهما (الذى عاشا فيه معا)، للاستراحة فيه؛ وقد شملت الدعوة يعقوب ويوحنا أيضا. ولعل اقتراحا كهذا سبق أن دُرُس، وكانت نساء البيت منشغلات فى إعداد ما تحتاجه الضيافة. وعلى أى حال، فإنه حالما وصل الضيوف إلى باب البيت، كانت زوجة بطرس فى انتظارهم. وإذ أخذت زوجها على ناحية، همست فى أذنه مخبرة إياه بأن أمها قد اعترتها حمى شديدة. كانت مضطجعة على سرير فى الغرفة الداخلية، وحرارتها مرتفعة جدا لدرجة خطرة. لعل هذه الحمى اعترتها بسبب اضطرابها الذى نشأ عن محاولتها بذل كل ما فى وسعها لإكرام الضيف العزيز. قد يُرى، لأول وهلة، أنه من سوء الحظ أن تحدث حادثة كهذه فى يوم كهذا. على أن الحوادث المشؤمة يستطيع المسيح، إذا ما مسها بيده الكريمة، أن يجعل منها أبهج الذكريات.

«لوقت أخبروه عنها»، ويخبرنا لوقا أنهم «سألوه من أجلها». لم يتعجب الحاضرون فقط من معجزة شفائها السريع، بل تعجبوا أيضا من أن السيد لمس يدها برقة ولطف، أخذها بيدها، وأقامها، كما يخبرنا بطرس على لسان مرقس. لم يكن يخطر بباله أنه، فى السنوات التالية، سوف يفعل نفس الأمر بالمُقعد على باب الهيكل، وبطابيثا فى يافا.

إن العالم يحتاج إلى الرقة واللف كما يحتاج إلى القوة والعنف. ولعل القوة لا يمكن أن تكتمل إلا إذا كانت رقيقة. إن خطر أعمال الرحمة الحديثة، هو أنها تؤدى كل شئ حسب القواعد واللوائح، مع مراعاة الدقة المتناهية لى لا تخرج عن القوانين

المرسومة، دون أن تترك مجالا للشفقة المسيحية والرفقة واللفظ التي لا تتقيد بقيود. هذه الرقعة مطلوبة في لمس عين الأعمى المتألمة، وجسد الأبرص الذابل، ويد الأم المحمومة. لقد جفت النفوس، وتحطمت حياة العائلات الكثيرة، وخابت الآمال بسبب عدم توفر هذه الرقعة. يا لها من تسمية صادقة تلك التي أُطلقت على ترنيمة الطفل الموجهة إلى المسيح، والتي جعل عنوانها «الراعى الرقيق»، إنه يأخذ الخراف بين ذراعيه، ويحملها في حضنه، ويقود المرضعات برقة ولطف؛ فعلى كل رجل «كالصخرة» أن يعرف كيف يمزج الرقعة بالقوة.

﴿٣﴾ الدرس الثالث: لحة خاطفة للآلام البشرية

كانت هذه الآلام تُثقل قلب السيد، وكانت باعثة له بصفة مستمرة على إظهار قوته المخلصة. لم يكن ممكنا إلا لهذه القوة أن تسند الرسل - وخاصة بطرس - في كل تجارب المستقبل ومصاعبه. لهذا، رتبت العناية بأن يخرج قادة هذه المدينة من بيوتهم، حتى تتحرك فيهم عاطفة الشفقة بما يروونه من مظاهر الألم، مع أنها كانت أسعد حظا من غيرها من المدن الأخرى. فإنه كان عندما يحين المساء، كان يجتمع في الشارع المتواضع الذى يسكن فيه بطرس «جميع السقماء والمجانين»، وأصدقاؤهم المتألمون من أجلهم، «وكانت المدينة كلها مجتمعة على الباب». لم يكن يخطر بباله أن كمية هائلة بهذا المقدار من البؤس والشقاء والألم، تختفى بالقرب من منزله. ولكنه كان أيسر له أن ينتقل من المنظر الأليم ليسبر غور بحر الآلام العميق جدا الذى يغوص فيه العالم. إن الحجاب الذى لن يعوق الله عن نظر أى شئ فى الوجود (بل يُسدل أمام أعيننا لئلا تصير الحياة غير محتملة)، رُفع مدة بضع ساعات فى مساء ذلك اليوم، بينما خرجت الكواكب واحدة فواحدة، ترقب بحزن وألم ويلات البشرية.

ليست الحياة كلها حزنا وألما. فالمحبة، والصحة، والحياة العائلية، ومرح الأطفال، ومباهج الحياة، هذه كلها يجب أن تكون لها قيمتها وتقديرها. ولكن خلف الباب الآلام مبرحة؛ ويجب أن نعرفها حتى نرفع أنظارنا نحو السماء، وننقل: «إِفْتَنَّا» (أى انفتح)، كما فعل المسيح (مر ٧: ٣٤).

فى أيام أستير، لم يكن أحد يجسر على دخول القصر الملكى، لابسا المسوح. هذا هو أحد أخطاء الملوك، فإنهم يرفضون الاعتراف بالأحزان والآلام، بينما هى تولّد التذمر، ثم التمرد والثورة... إنهم يصرونّ على مراقبة كل ما تكتبه الصحف رقابة دقيقة، وحذف كل إشارة فيها إلى نواحي الآلام فى الحياة. لا يسمحون بوجود ورقة ذابلة فى حدائقهم، أو عصفور ميت فى الغابة، أو أبرص فى الشارع الذى يجوزونه بمركباتهم، بل يأمرّون: «أنشدوا الأغنيات، اعزفوا الموسيقى، أحيوا الحفلات الراقصة. لا تدعوا المرح ينقطع، قدموا إلينا الملذات بصفة مستمرة، والتسلّيات بصفة دائمة..» هذا ما يطلبونه، ولكنهم سرعان ما تتهار عظمتهم، وتندكّ عروشهم.

لم يكن هذا الحال مع الرب، فإنه حينما وجد أبرص واحد أو أكثر، كان يتحرك قلبه عطفًا على كل آلام البشرية. يخبرنا الإنجيلى أنه: «لما رأى يسوع الجموع تحنّ عليهم إذ كانوا منزعين ومنطرحين كغنم لا راعى لها» (مت ٩: ٣٦). إن أردنا ربح النفوس، فلنتعلم هذا الدرس. إن الشرط الأول والثانى والثالث للخدمة، وإنقاذ البشر من موت الخطية، كما فعلت الملائكة إذ أنقذت لوط وعائلته عند أبواب سدوم، هو أن تمتلئ النفوس من عاطفة الشفقة والرحمة التى كانت تملأ قلوب هذه الملائكة، فالقلب المنسحق هو الذى يشفى القلوب.

يصرّح أعظم إنسان عرفته الكنيسة رابحا للنفوس، بأنه كان يتمخض بأولاده ويشفق عليهم كل الإشفاق (غل ٤: ١٩)، وأنه كان مستعدا أن يكون محروما من المسيح من أجل إخوته وأنسابه حسب الجسد (رو ٩: ٣). والقلوب الباردة لا يمكن أن يستخدمها. الله لربح النفوس الهالكة. وكلما زادت محبتنا، زادت كرازتنا تأثيرا. إن مقياس الماء لنهر النيل، يوضح درجة الفيضان على سهول مصر، وبالتالي، يبيّن وفرة المحصول أو قلته. إن كنا نقنع بالخدمة دون تجديد حياة أحد، فلا يحق لنا أن نتوقع تجديد حياة فرد واحد. أما إذا كانت نفوسنا تحنّ اشتياقا، أو إذا استطعنا أن نصرخ مع راحيل قائلين: «هب لى بنين وإلا فأنا أموت» (تك ٣٠: ١)، فإن الجواب سوف لا يبطىء... طوبى للجوع والعطاش لأنهم يشبعون. هب لنا دموعك أيها الرب يسوع المسيح إذ نبصر المدينة... «يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكي نهارا وليلا قتلى بنت شعبى» (إر ٩: ١).

﴿٤﴾ الدرس الرابع : مصدر القوة

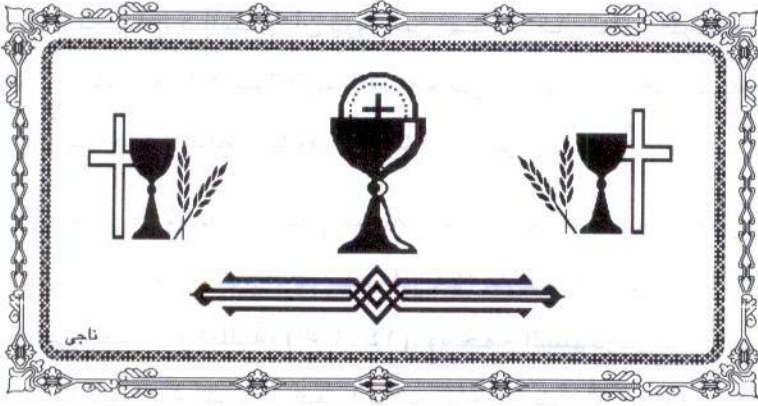
فى الصباح الباكر جدا، بحث أهل البيت عن ضيفهم العزيز، ولكنهم وجدوا الغرفة خالية. وعبثا حاولوا العثور عليه فى البيت... أين كان؟ وأصبح الجميع يجدون فى البحث عنه «إن الجميع يطلبونك». ولعل صيادا أخبرهم أنه التقى به فى الطريق المؤدى إلى الجبال المتاخمة للمدينة، إذ كان عائدا عند الفجر من عملية صيد السمك. وعلى منحدر الجبل، كان هنالك راعٍ يتهيا لرعاية غنمه، فأبصر نقرة تظللها الصخور، ولشد ما كانت دهشة الجماعة إذ عثروا على سيدهم جاثيا على ركبتيه؛ فإنه قد استيقظ قبل شروق الشمس بوقت طويل، «وقام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يصلى هناك».

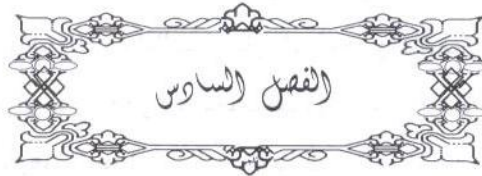
لقد كان يُخرج الأرواح النجسة، ويشفى مرض كثيرين، ولكنه كان يشعر بأن قوة تخرج منه. كان يحتاج، كإنسان، أن يروّج عن نفسه. كان على بطرس ورفاقه أن يشاهدوا هذا المنظر مرارا كثيرة فيما بعد؛ حتى أتى يوما، لما فرغ فيه يسوع من الصلاة، طلب إليه أحدهم قائلا: «يا رب، علّمنا أن نصلى».

لم ينس بطرس قط عادة يسوع للصلاة، وعزم عزما أكيدا على اتباع تلك الخطوات المباركة. وبركة يوم الخمسين لم تحل عليهم إلا لأنهم: «كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلب» (أع ١ : ١٤). ومجمع السنهدريم لم يستطع أن يمد يده بالأذى، لأن الجماعة كلها: «رفعوا بنفس واحدة صوتا إلى الله» (أع ٤ : ٢٤). والصلاة فتحت أبواب السجن إذ كان بطرس محبوسا قبيل الحكم عليه بالإعدام (أع ١٢ : ٥ و ١٠)، والرؤيا التى رآها عن تقديس العالم الوثنى وتطهيره، لم تُعلن له إلا عندما كان يصلى على سطح منزل سمعان الدباغ.

أيها الإخوة، ينبغى أن نصلى. أيتها الأخوات، اصعدن إلى قمة الجبل، واصرفن الأوقات الطويلة فى الصلاة. قال أحد الرؤساء الدينيين لأتباعه المبشرين إن خدمتهم الرئيسية هى ربح النفوس، وأنهم إن لم يؤدوا الخدمة بكل أمانة وجدّ ونشاط، فسوف

يكونون مسئولين عن دماء رعيّتهم. ثم ختم حديثه إليهم قائلاً: «لماذا لم نزدد في حياة القداسة؟ لماذا لا نعيش للأبدية، ونسير مع الله كل النهار؟ هل نستيقظ في الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً لنختلي بالله؟ هل نواظب على الصلاة في الساعة الخامسة بعد الظهر في ختام النهار؟ ينبغي أن نتمم خدمتنا.»





﴿ الدرس الأول والثاني ﴾

﴿ لو ٤ : ١ - ١٣ ؛ يو ٦ : ١ - ٢١ ؛ مت ١٤ : ٢٢ و ٢٣ ﴾

❖ «كان ممكنا أن يشيد قصرا بكلمة واحدة،
ورغم ذلك، لم يكن له أين يسند رأسه. لقد
أشبع الألو فخبزا، ورغم ذلك، لم يهيئ
لنفسه وجبة واحدة. إيه أيتها المحبة
المضحية، المنكرة لذاتها، التي تبالى بالآخرين
دون نفسها.»

﴿ ترنش ﴾



إن قوة الله فى الطبيعة تحت أمر كل من يدرسون - بحكمة
واتضاع - الشروط اللازمة لاستخدامها. إن الفرق بين الشعوب المتمدينة
وغير المتمدينة، هو أن الأولى عرفت كيف تتنفع من القوات التى تتوارى
وراء عوامل الطبيعة المختلفة: الرياح، البخار، الكهرباء، الأثير. أما
الشعوب الأخرى، فإنها تعتمد أولا وأخيرا على قوة عضلاتها. وما الآلات
الميكانيكية إلا اختراعات حكيمة، بها نحاول أن نُطِيع النواميس الطبيعية،
بما يتبع هذا من نتيجة حتمية، وهى أن القوة التى تختفى وراءها لا بد أن
تطيعنا. وليس هنالك محاباة للوجوه؛ فمهما كان الإنسان غنيا أو فقيرا،
جاهلا أو متعلما، من أصل شريف أو من أصل وضيع، ابن صعلوك أو
ابن أشرف الملوك، لا بد أن يحصل على معونة الطبيعة، إن أرادها، طالما
كان مستعدا أن يدفع ثمن الطاعة لشروطها التى لا مفر منها.



هذه هى الحال تماما مع قوة الله القدّوس، فإنّه مستعد أن يتعاون مع أى إنسان يتمم شروطه بأمانة. فالفقراء، والضعفاء، والمحترقون، ونفاية هذا العالم، يستطيعون أن ينعموا بأعظم مظاهر القوة الإلهية مثل المتعلمين والمثقفين. إن قوة البخار تستطيع أن تدير ماكينة صغيرة، كما تدير مصنعا عظيما. وبقينا أن صفات البساطة والتواضع والوداعة تتال بركات وفيرة جدا من الله، لأنها لا تبالى كثيرا بنفسها، بل تحتقر ذاتها. طوبى للمساكين بالروح، لأنهم أغنياء بالإيمان، وورثة الملكوت.

إذن، فمن الضرورى جدا، ليس للرسل فحسب، بل لنا أجمعين، أن نتعلم الشروط التى بها نستطيع الحصول على القوة الروحية. وهذه نراها واضحة وجليّة فى التجربة المثلثة الأركان التى جازها السيد فى مستهل خدمته، لنتبع الترتيب الذى نجاه الإنجيل الثالث:

- ﴿١﴾ يجب أن نرفض استخدام القوة الإلهية فى مصلحتنا الشخصية؛ عندئذ يمكن أن نُؤتمَنَ عليها لخدمة الآخرين، ومن ثم يسد الله كل احتياجاتنا.
- ﴿٢﴾ إن السيادة الحقيقية تُكتسب، لا بالصراع أو قوة العضلات، بل بالخدمة والتضحية، واحتمال الآلام حتى الموت.
- ﴿٣﴾ إن القوة الإلهية تُمنَح، لا للتظاهر والتفاخر والخيلاء، بل لمساعدة وبركة الآخرين.

قد يختلف ترتيب هذه المبادئ الثلاثة، ولكنها محتمة، لا يمكن الاستغناء عنها قطعا. كان ضروريا جدا أن يتعلمها بطرس، رجل القوة والنشاط، لأنه كان لابد له فى الأيام التالية أن يشهد لمجىء ومجد سيده وربّه بقوة روحية عظيمة، وبترتيب سابق رتبته العناية الإلهية. كان لابد لهم جميعا أن يجوزوا بعض الاختبارات، نجدها مدونة فى جميع البشائر، وخاصة فى (يو ٦).



﴿١﴾ إن ائتماننا على خدمة الآخرين يتوقف على إنكارنا لذواتنا

فى الوقت المعين، والمكان المحدد، للذين سبق أن رتبتهما العناية الإلهية، عاد الرسل إلى السيد «وأخبروه بكل شىء، كل ما فعلوا وكل ما علّموا» (مر ٦ : ٣٠). لقد كانوا فى حاجة إلى فرصة يناقشون فيها اختباراتهم الحديثة، لينالوا الإرشاد اللازم بإزاء ما صادفوه من صعوبات، وليشركوه فى أفراحهم. وعند عودتهم مباشرة، واجتماعهم بالسيد، وصلتهم الأنباء بأن يوحنا المعمدان، الذى كانوا يعرفونه جميعا، ويكرّمونه، ويجلّونه، ويحبّونه، قد قُتل بطريقة دنيئة بأمر الملك فى السجن؛ وتأيدت هذه الأخبار بوصول تلاميذه الذين طلبوا جثته خشية أن يمثّل به تمثيلا، رغم ما يعلمونه من أن ذلك الطلب يعرّض حياتهم للخطر. وبعد إجابة طلبهم، دفنوا الجثة، ثم عادوا، فى نفس ذلك الوقت، ليخبروا المسيح بما حصل. كان واضحا أن تيار الاضطهاد كان شديدا ضد تلك الحركة الجديدة. كانت الحكمة تقتضى عزلة وقتية عن أعين الجماهير، وكان الحزن يستلزم الخلوة للإقلال من أثر تلك الصدمة التى سرعان ما لبّدت الجو بالغيوم.

«فقال لهم تعالوا أنتم منفردين إلى موضع خلاء واستريحوا قليلا لأن القادمين والذاهبين كانوا كثيرين، ولم تتيسر لهم فرصة للأكل» (مر ٦ : ٣١).

وإذ دخلوا السفينة، اتجهوا بها نحو الشمال الشرقى من البحيرة، حيث يمتد الشاطئ متصاعدا إلى سهل فسيح الأرجاء، اكتسى بجلّة سندسية، ويتصل هذا السهل بغابة عظيمة. فى ذلك المكان الفسيح المنعزل، كانت توجد مغاير كثيرة، فيها تجد الرؤوس المتعبة والقلوب الحزينة راحة عظمى* على أن الشعب عرف الطريق التى سلكتها السفينة، فجدّ فى إثرها حتى وصلوا إلى ذلك المكان، ومثّلوا فى حضرة المسيح، فنظر إليهم كما ينظر الراعى الأمين إلى خرافه المنزعجة (مر ٦ : ٣٣ و ٣٤).

وللحال، أرجأ المسيح كل شىء آخر، حتى يسد حاجة أكثر من عشرة آلاف نسمة «فتحن عليهم وشفى مرضاهم، وابتدأ يعلمهم كثيرا». ولكن أعجب كل الأمور، ذلك المنظر الذى شاهدوه فى نهاية اليوم؛ فإن الرب أشبع الجماهير الغفيرة من خمسة أرغفة شعير وسمكتين وجدهما أندراوس، أخ بطرس، عند غلام صغير سرّه أن يقدمها

عن طيب خاطر، ولعله كان يؤمن فى قدرة السيد على إشباع تلك الجماهير بها، فكان إيمانه هذا هو العنصر البشرى الذى طالما تطلبه المسيح، «فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا من الكسر اثنتى عشر قفة مملوءة» (مت ١٤ : ٢٠).

لا شك فى أن بطرس وسائر الرسل قد أخذتهم الدهشة إزاء هذا الحادث العجيب الذى لم ينسوه قط. وعندما كانوا يعملون لتجديد الألوف من البشر فى الأيام التالية، طالما كانوا يرجعون بذاكرتهم إلى أمثال هذا الحادث فى الناحية الجسدية والناحية المادية. وعلى أى حال، فإنهم فى تلك اللحظة اصطدموا بذلك الفرق العظيم بين فقر معلمهم وبين سخائه وكرمه اللذين لا نظير لهما قط. إنه سبق وطلب منهم ألا يحملوا شيئاً لرحلتهم سوى عصى، لأنه لم يكن هناك ما يدعو لحمل كيس طالما كان الخبز غير متوفر. ثم إنهم سمعوا أيضاً منه قصة الصوم الذى صامه على الجبل أربعين يوماً، عندما جُربَّ باستخدام قوته كالابن الحبيب ليحوّل حجارة الصحراء خبزاً. لقد كان له السلطان دوماً أن يقدم خبزاً، فلماذا لم يستخدم هذا السلطان لسد حاجته؟ لماذا لم يقدم إليهم وليمة بعد وليمة؟ لماذا كان يبحث بعض الأحيان، فى الصباح الباكر، عن شجرة تين على الطريق، لعله يجد فيها تيناً؟

قد يُرى أن فى هذا تناقضاً، ولكن هذا التناقض الظاهرى كان يحمل فى طياته حقيقة جوهرية، هى أن الله لا يمكن أن يأتمن شخصاً على قوته، إن كان يستخدمها لإشباع شهواته الخاصة. إننا نجرب فى البرية بساعات الوحدة، بالحرمان طويلاً من تلك الأشياء التى يتمتع بها الآخرون. وإذا جزنا التجربة بنجاح، فعندئذ فقط يسمح لنا الله باستخدام تلك القوة - فى أقصى حدودها - لخلاص الآخرين وإشباعهم. هذا هو سر اختبار البرية المقدم للكثيرين، الذى طالما حير عقولهم وأربكهم. عندما نجوز اختباراً كهذا، كثيراً ما نتساءل:

هل غضب الله علينا؟ كلا. هل نسى أن يكون رحيماً؟ كلا. هل بغضب حجز مراحمه؟ كلا.

إذن، فلماذا هذه البرية والصحراء القفر؟ إنه يجربك قبل أن يأتى بك على قوته - الغزيرة - وفى نفس الوقت، إن الملائكة سوف تخدمك بعد انتهاء مدة التجربة.

﴿٢﴾ السيادة تتوقف على التضحية

يظهر أن الجماهير، عقب تناول الطعام، سادتهم عاطفة مفاجئة ليجعلوا يسوع حاكما عليهم، متحدّين بذلك ظالمهم الرومان وثائرين عليهم. هنا أعظم من يهوذا المكابى، وهنا من يزيد الثورة اشتعالا: يهوذا وسمعان الغيور. لقد كانا ينتظران هذه الساعة، وكانا يرجوان أن يدفعنا يسوع فى هذه الثورة، ولكنه لم يكن راغبا فيها مطلقا. لقد سبق أن جاهد ضد هذه الفكرة فى البرية، عندما قدّم إليه الشيطان كل ممالك العالم ومجدها؛ كان هذا العرض يتضمن ضرورة استخدام القوة، كما يتضح من حديث الرب مع پيلاطس: «لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون». إنه لم يتحول شعرة واحدة عن هذا الوضع، ولكنه كان يعلم تمام العلم أن ممالك العالم لا يمكن أن تكون له بالقوة العالمية، بل بثمن غالٍ، بالآلام، وقطرات الدماء، بالصليب وموت الجلجثة.

لذلك، فإنه ألزم تلاميذه أولا ليدخلوا السفينة ويبعدوا عن الشاطئ، بينما صرف هو الجموع بسُلطان لم يمكنهم مقاومته... «وبعدما ودعهم، مضى إلى الجبل ليصلى» (مر ٦: ٤٥ و ٤٦). من ثم، عزم على التحدث إليهم فى اليوم التالى بأسلوب جديد يقطع عليهم كل تفكير فى مملكة أرضية.

سوف نتأمل فى فرصة أخرى فى هذا التغيير الظاهر فى سياسته معهم. ويكفى أن نلاحظ هنا كيف أن السيد نفّذ البرنامج الأسمى الذى وضعه كابن الإنسان فى بداية خدمته؛ يا له من درس لنا أجمعين. إن الكنيسة لن تربح النصر بقوة الأذرع البشرية، ولا بالقوة، أو القدرة، ولا بالخيّل أو المركبات، ولا بأبطال الحرب أو قوة الأسلحة، بل بالخدمة، بالآلام، كتلك التى احتملها الشهداء فى كل الأجيال، بسكب الدموع وسفك الدماء، بتكميل آلام المسيح. بهذه، وهذه فقط، يأتى الملكوت، وتتم مشيئة الآب.

﴿٣﴾ قوة الله يجب ألا تستخدم للفخر والتظاهر

الله لا يعطى مجده لآخر (إش ٤٢: ٨)، «كى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه» (١ كو ٢٩: ١). يظن البعض أن السيد حدد لتلاميذه مكانا معينا على الشاطئ ليلتقوا به فيه،

وأن هذا جعلهم يجذفون بأقصى سرعة. ولكن، سرعان ما هبت العواصف على السفينة. قد يكون هذا هو الواقع فعلا، ولكنه ليس بأمر ذى بال فى موضوعنا، فإنه يكفى أن نعرف بأنه: «رأهم معذبين فى الجذف، لأن الريح كانت ضدهم، ونحو الهزيع الرابع من الليل (أى نحو الفجر)، أتاها ماشيا على البحر» (مر ٦: ٤٨)؛ مشى على الماء كأنه يمشى على طريق مرصوف. كثيرا ما يسمح الله بأن تهددنا الزوابع لكى نتعلم كيف نزداد تقديرا لمصادر قوته العجيبة. عندما نسلك طريقا أرشدنا إليه هو بكل وضوح، فإن ما يعترضنا فيه من صعوبات ليس دليلا على أننا مخطئين، بل على أن لديه إعلانا جديدا عن نفسه يريد أن يعلنه لنا. فلنتق تماما بأن الرب مستعد أن يتحمل كل الأخطار التى تتجم عن إطاعتنا لأوامره طاعة عمياء، فإن العواصف دليل النصر التى يدبرها هو لنا بكامل حكمته.

ولكن بطرس تحركت فيه روح المخاطرة. لم يقنع بأن يبقى جالسا هادئا مع سائر رفاقه فى السفينة حتى يصل إليها الرب. لعل سائر الرسل اكتفوا بتلك الكلمة الهادئة التى كلمهم بها السيد؛ أما بطرس، فإنه شعر بأن هذه الفرصة تتطلب منه أن يذهب إليه. فكانت هذه ظاهرة عجيبة لمحبه وإيمانه، وعملا بارزا يدل على شجاعة نادرة. كان هنالك أثر لروح الفخر والتظاهر، لم يحس هو بها على الأرجح، ولكن الرب أدركها. لهذا، فإن بطرس، حين طلب بأن يأمره المسيح بالذهاب إليه ماشيا على الماء، دعاه المسيح بأن يقفز إلى الماء... وسار فعلا على الماء، ولكن إيمانه لم يكن كاملا، فابتدأ يفرق.

فى الساعة الخطيرة من التجربة، عرض الشيطان على المسيح بأن يطرح نفسه من فوق جناح الهيكل إلى أعماق الوادى، ويدوس على الهواء، كما حاول بطرس الآن أن يدوس على الماء، وأضاف المجرب على هذا بأن الملائكة سوف تحمله على أيديهم، وبذلك ينزل إلى أسفل الوادى بكل جلال وعظمة، دون أن يمسه أى أذى. ولكنه رفض هذا العرض، لأن الرب لم يطلب منه. ولكن هنالك لحظة أخرى فيما بعد، طلب منه الآب أن يضع حياته، أن يقبل الموت، أن ينزل إلى وادى ظل الموت الحالك الظلام. وحالما أدرك أن هذا هو واجبه الذى لا ريب فيه قط، لم يكن هنالك أقل تردد مطلقا، بل أطاع

حتى الموت، موت الصليب؛ وحملته أذرع الآب الأبدية فى نزوله ، حتى يصعد من ذلك الوادى إلى أعلى السموات.

قد تأتى ساعة فيما بعد، يأتى فيها الأمر صراحة لبطرس ليقذف بنفسه من سفينة الحياة العادية إلى عواصف وأمواج الاضطهاد والاستشهاد. ولكن تلك الساعة لم تكن قد حانت بعد، إذ لم يكن قد تهيأ لها بعد. كذلك لم يكن قد تهيأ لها، حين كرر نفس العملية، بنفس النتيجة، فى بيت قيافا. كان يجب أن تتطهر عواطفه وأخلاقه التى كانت، إذ ذاك، مليئة بروح الفخر والاتكال على النفس. بعد ذلك، لا يكون فى حاجة لانتظار الأمر بالسير على الماء، لأنه يستطيع أن يرى كل شىء واضحا جليا.

وابتداً يفرق. ورغم أنه كان يجيد العوم، فإنه لم يحاول أن يعوم، بل صرخ لطلب النجدة. وللحال، مد الرب ذراعه وأمسك به، ودخلا السفينة معا. لم يسمع من تلك الشفاه الحكيمة والرقيقة توبيخا، بل سمع هذه الكلمات: «لماذا شككت؟» كان السبب الواضح لفشله هو تطلعه إلى العواصف والأمواج، بدل أن يثبّت نظره فى وجه الرب. على أنه كان هنالك سبب أعمق؛ كان إيمانه غير كامل، كان فيه تصدّع وخلل. إن أقل أثر لمحبة الذات يعطل عمل الإيمان، كما فشل «هوكر» فى عبور الأطنطى بسبب تجمع بعض ذرات الرمال فى آنية الترشيح. إن كنت لا تستطيع الانتفاع بمواعيد الله التى هى النعم والأمن فى المسيح، فثق تماما بأن الخطوة التى تخطوها، والتى تظن بأنها موفقة، وأنها صالحة، وللخير، لا بد أن تفشل، لأن هنالك عنصرا للكبرياء، وحب الظهور، والفخر، ومحبة الذات، يفسد حياتك وأنت لا تدري. تخلص من هذه الآفات بالالتجاء دوما إلى الصليب. أمت نفسك بما فيها من رغبات وميول باطلة. ردد بكل حزم ما قاله المسيح فى موقف مشابه: «اذهب عنى يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مر ٨: ٣٣).

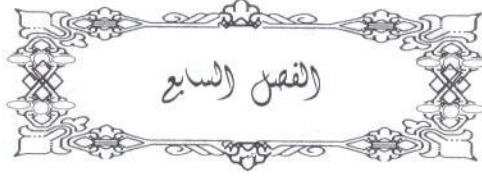
وهكذا تعلم بطرس المادة الثالثة فى درسه الأول والثانى. وتحت تأثير هذه الساعة الذى لم يمح منه قط، دوّن فيما بعد تلك النصيحة الغالية: «تواضعوا تحت يد الله القوية لكى يرفعكم فى حينه» (١ بط ٥: ٦).

نتوسل إلى يا رب أن تطهر أفكار قلوبنا بروحك القدوس، لكي نحبك محبة
كاملة، ونعظم اسمك القدوس.

ليس لى سواك يا أبته
فليكن روحك القدوس فى رفقتى
ليمنحنى القوة والعزاء والحياة
لست أطلب الكنوز العالمية أو الجاه
لا ذهباً ولا فضة فى غريتى
ولا شيئاً من عرض الحياة
يكفينى أن أنال دوماً رضا
وأن أجده أبداً فى معونتى
لأخذ مكانى الجدير بى كابن الله

﴿هوبتر﴾





﴿ لمن نذهب غير المسيح ﴾

﴿ يوحنا ٦ : ٢٢ - ٧١ ﴾

- ❖ إننى أجد آمال الشباب تتلاشى كالغبار
- ❖ كما أرقب كل ما فى الوجود ينهار
- ❖ وإذا أنظر إلى قبة السماء الفسيحة الأرجاء
- ❖ أجدها حيناً تؤذن بالليل وحيناً تؤذن بالنهار
- ❖ أما المسيح، مسيحى، فإنه ثابت أبداً الدهور

﴿ كنجسلى ﴾



عندما انصرفت الجموع أخيراً، عبر الرب تلك المراعى الخضراء، حتى وصل إلى حافة الجبل، ثم ابتدأ فى الصعود. وعندئذ، بدأ يشعر بما نشعر به نحن عند صعود الجبال. على أن الوحوش الكاسرة ولّت هاربة من طريقه. ثم بدأت الشمس فى المغيب، وساد كل الأرض سكون رهيب، حتى اشتدت العاصفة على البحيرة، ثم سَمِعَ دويهاً على قمم الجبال. ألم تكن هذه العاصفة تنذر بأخرى أشد منها، سوف تعصف فى اليوم التالى على سفينة التلاميذ، الذين كانوا يجاهدون ضد الأمواج المتلاطمة؟



كان هذا موقفا حرجا له. لقد كانت الجماهير المختلفة تزدهم حوله، رغبة منها فى إشباع شهوتها السياسية، وطلبا لاستقلال البلاد والانتقام من الأعداء. ولكنه رأى ألا يخدعهم، بل يكشف لهم كل شيء بوضوح تام، لئلا يخسر غرضه الأسمى وهو الفداء، ويحاولوا أن يتخذوا منه أداة لإنشاء حزب سياسى. كان يجب اتخاذ خطوات سريعة وحازمة للقضاء على هذه الحركة... يجب عدم إضاعة يوم واحد... يجب أن يوضح لهم فى اليوم التالى إن ملكوته ملكوت روحى، وبذلك يطفى نيران تلك الثورة. ولهذا، نراه يقضى وقتا طويلا مع الآب فى الصلاة، تمهيدا لإزالة هذه الأفكار العالمية من عقول أتباعه. لم تكن رسالته أن يعطى طعاما وشرابا، بل برا وسلاما وفرحا فى الروح القدس. كان يعلم تماما ماذا ستكلفه هذه الرسالة، ولكن، لم يكن هنالك مفر من ذلك.

وفى صباح اليوم التالى، شاهد على الشاطئ الآخر ثورة مساء اليوم السالف تتجدد. لذلك، نراه يتجه نحو المجمع، ويلقى ذلك الحديث الرائع الذى نجده مدونا فى (يو ٦)، والذى يعتبر أسمى ما كُتب فى العهد الجديد، بعد وصف مشهد الجلجثة.

وفى تدوين هذا الحديث، نرى بعض فقرات اعتراضية تبين كيف قوبل به من المستمعين. كذلك نرى فيه مقدار التأثير الذى أحدثته كلمات الرب الروحية فى جمهور الحاضرين؛ فى (ع ٤١)، نراهم «يتذمرون عليه»، وفى (ع ٥٢)، نراهم «يخاصمون بعضهم بعضا»، وفى (ع ٦٠)، نجد الكثيرين، حتى من تلاميذه، يصرّحون علنا بأن أقواله لا تُحتمل، وفى (ع ٦٦)، نقرأ أن الكثيرين، حتى من تلاميذه، رجعوا إلى الوراء، ولم يعودوا يمشون معه، ابتدأوا ينسحبون أفرادا وجماعات؛ أولا جماعة الوطنيين السياسيين المتحمسين، ثم أولئك الذين كانوا يطمعون فى أكلة أخرى... ثم الطيبو القلب، ولكنهم ضيقو التفكير، لأنهم اصطدموا لما طلب منهم أنهم يجب أن يأكلوا جسده ويشربوا دمه. فقد رأوا أنه يدعى الألوهية بهذا الطلب... وأخيرا، صار المجمع خاليا تماما إلا من جماعة الرسل الذين وقفوا منذهلين، والذين ملأهم الحزن إذ شاهدوا الجماهير تنفض من حوله، كما أدركوا أن مطامعهم الشخصية قد قُضِيََ عليها. وحينئذ، نظر إليهم، وسألهم هذا السؤال المحرك للعواطف: «ألعلكم أنتم أيضا تريدون

أن تمضوا؟» فأجاب بطرس على الفور: يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك. ونحن قد آمنّا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي..»

﴿١﴾ إن السؤال يُشعر بضغط الحاجة الملحة

«إلى من نذهب؟» يشعّرنا هذا السؤال بضغط شديد، كما كانت الحال مع بطرس. لقد كان له بعض الإلّام بطقوس الفريسيين، وعقائد الصدوقيين السلبية، وأساطير اليونانيين، وتعاليم الرومانيين المادية... ولعل بعض تعاليم الصوفيين قد وصلت من الشرق على شواطئ البحيرة مع تجارة الهند والصين. ولكن، أية راحة أو عزاء أو معونة، كان ممكنا أن تقدمه تلك النظم أو التعاليم أو العقائد أو الفلسفات للعالم المتعب إلى أقصى حدود التعب، أو للنفس المثقلة والمريضة بالخطية؟ أدرك بطرس أن النفس البشرية يجب أن تتجه اتجاهها آخر؛ كان يجب أن تخرج عن حدود ذاتها لطلب الماء الحي وخبز الحياة. لقد نشأت في داخله رغبة ملحة للأمور الأبدية، اللانهائية، الإلهية. لم يكن يعرف شيئا عن هذه في الأيام السالفة، قبل أن يدوّ صوت المعمدان في البرية ويوقظ نفسه النائمة. ولكنه، منذ استيقظ، وأدرك حقائق العالم الروحي، لم يجد ريا ولا شعبا في كل مصادر التعليم الأولى. ومنذ تلك اللحظة، شعر بحنين داخلي، أحس به المرئم من قبل إذا قال: «تشتاق، بل تتوق نفسى إلى ديار الرب. قلبى ولحمى يهتفان بالإله الحي» (مز ٨٤: ٢). أدرك بطرس، بالاختبار العميق، أن هذا الحنين لا يهدأ إلا في ربه... إلى من يذهب غيره؟

لمن نذهب في هذه الأوقات العصيبة التي أصبح فيها العالم مثقلا بالمتاعب؟ لقد اختبر البشر كل أنظمة الحكم البشرى، وكل أوجه الفلسفة البشرية، وكل أشكال الثقافات الدينية، فلم يجدوا أنفسهم أخيرا إلا أنهم يتقلبون في فراشهم على أحر من الجمر، كالنائم المعذب الذى لا يجد راحة على هذا الجانب أو ذاك «كثيرون يقولون من يربنا خيرا» (مز ٤: ٦)، فحوادث الانتحار في ازدياد، وحالات الدعارة والفجور، وضعف الرابطة الزوجية، تبين تناقص المحبة والرجاء والإيمان. وشعور التمرد في تزايد مستمر، والتقاليد القديمة يكتسحها تيار حب التغيير. هذه هى ساعة التجربة التي تنبأ

عنها الوحي: «ساعة التجربة العتيدة أن تأتى على العالم كله لتجرب الساكنين على الأرض» (رؤ ٣: ١٠) ... إلى من نذهب؟

إلى من نذهب، عندما تستيقظ نفوسنا فجأة أمام عظمة الحضرة الإلهية التى لا نراها طالما كنا منغمسين فى ملذات العالم، ولكنها تعلن إلينا فى ساعات الوحدة، والحزن، والخسائر؟

إلى من نذهب، عندما نمثل فجأة أمام نور العرش الأبيض، فنذكر أن أنقى وأطهر المياه لن تستطيع تنظيف قلوبنا وضمايرنا التى لوثتها الخطية؟

إلى من نذهب، عندما نجد أن الأنوار التى اتكلنا عليها قد بدأت تنطفئ واحدا فواحدا، وأنه لا الشمس ولا الكواكب تعود تضيء أياما طويلة، وأن النفس الحائرة لا تهب عليها أقل ريح، بينما تستمع إلى الأمواج تلاطم شاطئاً مجهولاً؟

إلى من نذهب فى وحدة الشيخوخة، فى آلام الأمراض الجسدية، فى ساعات الموت، فى يوم الدينونة الرهيب، وسط مجد القداسة التى لا تستطيع الملائكة مواجهتها، والظاهرة التى ليست السماء بظاهرة قدامها؟

لقد كان لبطرس كل الحق فى هذا السؤال. إنه يعبر عن صرخة الألم المنبعثة من القلب البشرى عندما يقف فجأة أمام الله والأبدية.

﴿٢﴾ بديل المسيح

لنحاول أن ندرك تماما ماذا نحتاج. إننا نحتاج الحياة، الحياة الأبدية، الشوق والحنين والرغبة نحو أمور أخرى سوى العواطف والعقل، والتى يكون مركزها بالنسبة للروح كمركز الحياة الجسدية فى حياتنا اليومية؛ قال أحدهم: «إن ما تشاق إلىه أرواحنا هو الحياة.»

إن يسوع يوقظ الأشواق الغريبة فى نفوسنا. نحن نصرخ ونرتعب، كما يفعل الطفل حين يستيقظ فجأة، فيبكى إذ يجد الغرفة خالية. قال «أفلاطون» إن هذه ذكريات حياة سابقة، حين كانت النفس كاملة فى سماء كاملة. وقال «وردزورث» إنها

لمحات غير ذلك البحر الخالد الذى أتى بنا إلى هنا. نحن لا نبالى كثيرا بأصلها، ولكننا نعرف فقط أننا نعود من أباطيل العالم، كما تعود البهائم من المياه الملوثة.

أنلجأ إلى مذهب اللارديين؟ إنه يسخر ويهزأ بمطالبنا. وما مثله إلا مثل شخص يحاول أن يؤكد للجائع بأن شعور الجوع إن هو إلا خطأ وحماقة.

أنلجأ إلى مجرد الاتكال على الفرائض والطقوس؟ إنها، رغم ما فيها من جمال، وما تنشئه فينا من احترام للأيام السالفة، إلا أنها فى حد ذاتها تعجز عن أن تشبع لهفة النفس إلى الله الحى، أو تروى عطشها.

أنلجأ إلى ديانات الشرق؟ يمكن أن يقدم كونفوشيوس أو بوذا أو غيرهما أى علاج شاف للنفس، كما فعل المسيح، قدّوس إسرائيل، الذى منح رسالة الغفران الكاملة، ووهبنا ثقة القبول أمام الله، وخلع علينا سر البر والقداسة الناصع البياض، وأعطانا النصر الكاملة على الفساد المتأصل فى القلب؟

جرب أية طريقة شئت، فلا تجد فيها سوى الأنين وعدم الراحة، بل اليأس التام.

إذن، فالراحة لن توجد إلا فى المسيح... «الغمر يقول ليست هى فى، والبحر يقول ليست هى عندي، لا يُعطى ذهب خالص بدلها، ولا توزن فضة ثمنها لها... إذ أخفيت عن عيون كل حى، وسُتِرت عن طير السماء» (أى ٢٨: ١٤ و ١٥ و ٢١). على أن يسوع قال: «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال. نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك» (لو ١٠: ٢١).

﴿٣﴾ سمو المسيح الذى لن يبارى

إن تعاليمه (أو «كلامه»، كما يقول بطرس)، لا تتفق مع ميول الطبيعة البشرية. هى لا تتفق مع التعاليم اليهودية المحدودة، ولا مع ثقافة العالم الوثنى. ولكنه لم يسع قط لأن يكسب لنفسه أتباعا بالنزول بتعاليمه إلى مستواهم. إنه لم يدعن قط لشهوات سامعيه أو تحزباتهم أو آرائهم الخاطئة. ورغم أن طبيعته البشرية كانت تتوق إلى

العطف والإيمان، فإنه وقف ثابتاً كالصخرة، متمسكاً بمثله العليا. وماذا كانت النتيجة؟ كانت كما وصفها ناپليون بكل دقة: «بينما تحطمت الإمبراطوريات العظيمة التى أنشأها البشر بحكمتهم النادرة وذكائهم الفذ، فإن الملايين ماتوا من أجل المسيح، وملايين آخرين سوف يستعذبون الموت.»

❖ ما هو أساس سمو المسيح هذا الذى لا يبارى؟

﴿١﴾ رغم أنه قدّوس القديسين، فإنه بكل سرور وارتياح يعالج مشكلة الخطية. إن الخطية مرعبة للنفس المتيقظة؛ إنها تدفع ببعض الخطاة فى بلاد الهند إلى تعذيب أنفسهم بمنتهى القسوة، إنها ملأت الأرض فى كل الأجيال بالمذابح والكهنة، إنها قد دفعت الأبرار والقديسين إلى سكب دموع التوبة الغزيرة. إنها كانت السبب فى النهضة الدينية التى حركت العالم. لقد حاول البشر أن يستهينوا بها، أو يتجاهلوها، أو يتكتموا كل أخبارها، كما حاولوا أن يوجدوا مسكنات لها. أما يسوع، فإنه هو وحده الذى قد طهر الطريق منها، والذى استطاع أن يوفى مطالب كل من العدل والرحمة، والذى استطاع، ببره ودمه، أن يحقق رغبة البشر الملحة، ويحثهم على الغفران.

﴿٢﴾ ورغم أن أنه كان إنساناً بتجسده، إلا أنه استطاع أن يقدم لنا الخبز الحى، بل هو نفسه خبز الحياة. إن الخبز يقدم إلينا المؤثرات التى سبق أن امتصها نبات القمح من الشمس والأرض، من عوامل الصيف وندى الفجر، من أشعة النور السحرية وعوامل النمو الصامت فى الليل. على هذا المثال، يقدم لنا الرب غنى الله الأبدى، إذ أن كلماته الحية وروحه القدّوس الحال فى قلوبنا، يقدمان إلينا تلك الحياة الأبدية التى كانت عند الآب قبل كل العالم، والتى أُعلِنَتْ لبطرس ولسائر الرسل، والتى أُعلِنَتْ للعالم بواسطة حكمتهم. نحن نعلم أن الخبز يغذى أجسادنا، هذا ما ندركه من اختبارنا اليومى، ولن يزيدنا تأكيداً من هذه الحقيقة كثرة الجدل، أو كثرة الأبحاث الكيماوية، أكثر من اختبارنا العملى. هكذا مع ربنا، خبز الحياة، فإننا نعرفه، وندركه كل الإدراك، لأننا لمسناه، ذقناه، أحسننا به.

٣ - ورغم أن فى كلامه سرا لا يتفق مع الأشياء السطحية، فإن هذا السر نفسه عنصر إضافى لإيماننا. إن كانوا هم يتابعون عن المسيح، فلأنهم لا يعرفون. أما نحن، فإننا قد اقتربنا منه، لأننا، وإن كنا لا نفهم، فإننا نجد أن سر اختبارنا العميق يتفق مع سر مماثل فى شخص المسيح. إن المسيح، الذى يُتاح لنا أن نسبر غوره تماما، ونقيسه، ونشخصه، ونزنه، ونحلله، ونعرف كل تفاصيله، لا يليق بأن يكون مسيحا لنا. نحن نحس بالرغبة نحو الفرح الذى لا يعبر عنه، والسلام الذى يفوق كل عقل، والمحبة التى تفوق الفهم، ونحن نجده أمامنا دوما، غمر ينادى غمرا (أو عمق ينادى عمقا)، فأعماق طبيعتنا تجد صداها فى أعماقه، لأنه يسد كل أعوازنا، يهبنا أكثر بكثير مما نطلب أو نفتكر، عوضا عن النحاس يأتى بالذهب، وعوضا عن الحديد يأتى بالفضة، وعوضا عن الخشب بالنحاس، وعوضا عن الحجارة بالحديد (إش ٦٠: ١٧). هو يقودنا دوما إلى ينابيع جديدة للمياه الحية، وما أعدّه للذين يحبونه. لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر. إيه يا قلبى، بكل ما فىك من رغبات لا تشبع، لقد وجدت فى يسوع أكثر مما كنت تتطلب، فإلى من تذهب غيره؟

مما يفيدنا كثيرا فى صلواتنا الفردية، أن نحصر تفكيرنا، بين الآونة والأخرى، فى الخدمات الروحية التى كانت تقدم فى خيمة الاجتماع أو الهيكل فى العهد القديم. جميل جدا أن نجد عهدونا على المذبح، ونغتسل فى المرحضة، ونشعل محبتنا ثانية على المنارة، ونقدم تضرعاتنا على مذبح البخور الذهبى. ولكن هذا لا يعنى أن نتناول من خبز الحياة، من جسده ودمه الأقدسين، قبل الدخول بثقة إلى قدس الأقداس بدم يسوع.





﴿ أعطيك المفاتيح ﴾

﴿ مت ١٦ : ١٣ - ٢٠ ﴾

❖ « إذا أغثتَ فقيرا صرتَ غنيا، وإذا عضدتَ مريضا أصبحتَ قويا، وكل الخدمات التي تؤديها تترد إليك وتزيد في أجرك. »

﴿ أ. ب. براوننج ﴾



عاش يسوع بين رسله حوالى عامين ونصف العام. وإذا أخلى نفسه، لم يعطهم مفتاحا حقيقيا لعظمته، بل ظل طول أيامه على الأرض مُخفيا مجده وعظمته. لم يكن خليقا به أن يفاخر بصفاته أو يطنطن بها، بل أن يحيا حياة لم تشهد نظيرها العين البشرية. إن «الحياة أظهرت، وقد رأينا (أو رأيناها)» (١ يو ١ : ٢)، كما قال تلميذه وحيبيه الذى أتيح له - أكثر من باقى رفقاءه - أن يرى الكثير عن غنى نعمته وحقه.

لم يكن باقيا سوى ستة أشهر للتدريب والتعليم قبل أن يغادرهم، وكان يجب أن يزداد تعمقا فى تعليمه خلال هذه المدة. وتمهيدا لهذا، كان ضروريا أن يعرف الحالة التى وصلوا إليها نتيجة مشاهداتهم واختباراتهم فى المدة الماضية، حتى إن كانوا قد استطاعوا - رغم تحفظه الشديد - أن يدركوا مجده الحقيقى «مجد ابن الآب الوحيد»،



وجد نفوسهم مهياة لتقديم إعلانات أسمى إليهم. أما إن كان الأمر بعكس هذا، وطمس إله هذا العالم بصائرهم عن أن يروا مجده، ويروا فيه صورة الله، اتضح من ذلك أنهم لا يصلحون لدعوته العليا، وأنه يجب أن يبحث عن سواهم لحمل رسالته، ولتكوين نواة الكنيسة.

ولكى يضمن الخطوة الضرورية لهذا الفحص الجوهري، رحل الرب إلى أقصى الحدود الشمالية لبلاد فلسطين، إلى جبل حرمون، أعلى جبال لبنان. ينبع نهر الأردن من إحدى قمم هذا الجبل بقرب مدينة قيصرية فيلبس القديمة؛ هنالك استقر المسيح مع جماعته. وإننا لتتخيل أن هذا الحديث المبارك قد دار على سفح الجبل الذى اتشح بجلّة سندسية، أو بين غاباته وأحراشه. هكذا كان وضع ذلك الحديث الرائع، الذى كان له الأثر الخالد فى حياة المسيحية، أكثر من أى حديث آخر من أحاديث المسيح.

﴿١﴾ سؤال السيد الفاحص

«من يقول الناس إنى أنا ابن الإنسان؟» تعددت الإجابات وتباينت. أجمع الكل على أنه ليس إنسانا عاديا. أحس البشر أن نارا إلهية كانت تشتعل وراء الآنية الفخارية الصافية، ولكن آراؤهم اختلفت باختلاف المتكلمين، فالبعض - وعلى رأسهم هيرودس - اعتقد بأن المعمدان قد قام من بين الأموات، ولم يخل اعترافهم هذا من شعور الخوف والذعر. والآخرين قالوا إن إيليا، الذى علّمهم ملاخى أن ينتظروه، قد جاءهم فى «يوم الرب». والبعض شبهوا يسوع بأحد أنبياء القدم. ولعل الرب لم يشعر بشيء من شعور المرارة أو الاندهاش أمام هذه الإجابات، إذ لم يكن يبالى كثيرا بما وصل إليه الرأى العام. فإنه عرف ما كان فى الإنسان، ولم يكن المقصود بهذا السؤال سوى التمهيد للسؤال التالى، وهو الجوهري: «وأنتم، من تقولون إنى أنا؟»

وإن جاز لنا استعمال اصطلاح البشر، فإننا نقول إن قلبه كان يرقب الجواب. وعلى الفور، خرجت هذه الكلمات، بكل تأكيد وحزم، من شفتى بطرس، الذى كان على الدوام اللسان الناطق للباقيين: «أنت المسيح، ابن الله الحى». وهذا يماثل التصريح الذى نطق به بطرس فى (يو ٦: ٦٨ و ٦٩)، وهو يجمع بكيفية عجيبة بين رجاء اليهود عن

المسيا المنتظر، وبين الاعتراف بمركز المخلص الفريد وطبيعته الممتازة كالأبن الوحيد للإله الأبدى الحى. وإذ سمع المسيح هذا التصريح، امتلأ قلبه غبطة وفرحاً. لقد تعلّم هذا الصياد ذلك السر: «الذى فى أجيال أخر لم يُعرّف به بنو البشر كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح» (أف ٣: ٥). وعلى الفور، أجابه المسيح قائلاً: «طوبى لك يا سمعان بن يونا (أو ابن يوحنا)، إن لحمًا ودما لم يُعلن لك، لكن أبى الذى فى السموات.»

تبعث فينا هذه الكلمات أحياناً الرغبة فى الحصول على هذا التعليم الروحى، والتعمق فى الأسرار الإلهية، الرغبة فى أن نعرف كما عرفنا... اصمتى أيتها النفس، فإنه لا يزال «سر الرب لخائفيه»، ولا يزال روح الآب يتحدث إلى القلوب البشرية بهمسات هادئة، كما تحدّث مرة فى مغارة حوريب... «إنه مكتوب فى الأنبياء: ويكون الجميع متعلمين من الله» (يو ٦: ٤٥). إذن، فكل من يأتى للمسيح قد سمع، وقد تعلم من الآب. ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذى من الله، لكى نستطيع أن نعرف «حتى أعماق الله» (١ كو ٢: ١٠).

﴿٢﴾ أساس الكنيسة

وعندئذ، تحدث المسيح عن الكنيسة لأول مرة، ولاحظ أنه ينسب الكنيسة لنفسه «كنيستى». إلى ذلك الوقت، كانت الكنيسة (الواحدة، غير المنقسمة، الخفية)، كائنة فى مشورة الله الأبدية. وتدل صيغة المستقبل (المستفادة من سياق الحديث) للكلمة «أبنى» [١]، على أنه كما بُنيت حواء من آدم لدى نومه، هكذا كانت الكنيسة سوف تُبنى من جراحات عمانوئيل ونومه فى قبره؛ وكان معيّن أن تكون عروسه، جسده، جماعته التى يعلن فيها مجد طبيعته الكامل... «كنيستى»... لقد أحبها المسيح منذ الأزل، وبدمه فداها، وبروحه وبكلمته لا يزال يطهرها، سوف يحضرها لنفسه يوماً ما «كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شئ من مثل ذلك» (أف ٥: ٢٧). وكما أحضر لعازر، الوكيل الصالح الأمين، عروس إسحق من بلاد بعيدة، هكذا الحال مع الكنيسة، فإن الروح القدس يكملها فى هذه الأيام الأخيرة، ويعدّها لتكون مع الرب إلى يوم الأبد.

﴿١﴾ وردت فى الإنجيلية: «سأبنى».

إن الكنيسة مَبْغُضَةٌ بصفة عامة من عالم الأرواح الساقطة السفلى المظلم، الذي يدعو المسيح هنا «أبواب الجحيم». فـ «الجحيم» هو العالم السفلى غير المنظور، مسكن الأرواح الشريرة التي تسود ظلمة هذا الدهر تحت قيادة «رئيس سلطان الهواء» الذي يتحكم فى قلوب العصاة. و «الباب»، فى اصطلاح الشرق، هو مكان المشورة، والقضاء والتستر على الجرائم، وحشد قوات الأعداء.

أدرك المسيح - مقدما - تمام الإدراك، تلك الحرب الطويلة، الشعواء، المضنية التى سوف يشنها العدو على كنيسته، «فغضب التنين على المرأة، وذهب ليصنع حربا مع باقى نسلها، الذين يحفظون وصايا الله، وعندهم شهادة يسوع المسيح» (رؤ ١٢ : ١٧) نعم، والكنيسة لن تغلب إلا «بدم الخروف»، «وبكلمة شهادتها»، وأبناؤها لا يحبون حياتهم حتى الموت.

ومهما طالت الحرب واشتدت، فالنتيجة لا شك فيها، «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها». والخروف يغلبهم لأنه رب الأبواب وملك الملوك، والذين معه «مدعوون ومختارون، ومؤمنون» (رؤ ١٧ : ١٤). سوف يرن فى آذان العالم المنذهل صوت جماهير غفيرة يُسمع عن بعد كأنه صوت رعد قاصف، وعن قرب، يتضح جليا أنه صوت الغلبة إذ يعلن (أولا) أن الكنيسة خرجت ظافرة منتصرة، (ثانيا) أن عرس الخروف قد أتر وأن العروس قد تهيأت.

أما سر غلبة الكنيسة على أعدائها، فينحصر فى (عقيدة) الأساس، بل بالأحرى: فى (حقيقة) الأساس. لا يتوقف على شخصية إنسان ضعيف استحق، فى ظرف دقائق قصيرة، أن يسمع أقصى توبيخ خرج من بين تينك الشفتين الرقيقتين، بل على شخص ربنا وإلهنا «ابن الله الحى». إن أصل النص اليونانى فى عبارة المسيح لا يترك لنا أى مجال للشك فى المعنى الذى قصده؛ هنا نجد كلمتين يونانيتين: الأولى «بطرس» (Petros)، اسم سمعان الجديد، ومعناها (فى اليونانية كمعنى «صفا» فى الآرامية حجر، أو قطعة من الصخر قُطعت أو نُحتت من أصلها الصخرى. والكلمة الثانية «الصخرة» (Petra)، أى الأصل الصخرى نفسه. والرب يحرص على أن يميز بين

الكلمتين بكل دقة. فلو أنه قصد أن يكون بطرس هو أساس الكنيسة، لجاءت عبارته بطبيعة الحال بهذا الوضع: «أنت بطرس، وعليك أبنى كنيسة». ولكنه، إذ دقق كل التدقيق في اختيار ألفاظه، يقول: «أنت بطرس، حجر، قطعة من الصخر. واستطعت بقوة روح الله أن تتكلم بقوة وبقين. ولكننى لا أستطيع أن أبنى عليك، لأن أساس كنيسة يجب أن يتحوّل من بطرس إلى پترا (إلى الصخرة)، من الجزء إلى الحق الأعظم، الذى أنار بصيرتك الآن. إن حق علاقتى الأبدية بالآب هو الأساس الوحيد، الذى سوف ترتطم عليه كل قوات الشيطان والبشر دون أن تتال منه شيئاً. لن يفلح أى حجر فى هذه المهمة.»

﴿٣﴾ هبة المفاتيح

يجب أن نلاحظ بدقة أن نفس الكلمات التى تحدث بها الرب إلى بطرس، استخدمها فى حديثه مع المؤمنين كأفراد فى (مت ١٨ : ١٨) [١]، ثم مع الرسل إذ كانوا مجتمعين معهم فى العلية مساء يوم القيامة، (انظر يو ٢٠ : ٢٢ و ٢٣) [٢].

فى ضوء هذه الآيات، نستطيع أن نقرر بأن هبة المفاتيح تشمل كل من يحيا ويعمل بقوة الروح القدس. فإننا متى حصلنا على نعمة الروح القدس المعزى، كما حصل عليها التلاميذ الذين نفخ السيد فى وجوههم مساء يوم القيامة، أُتيح لنا الحصول على قوة المفاتيح. نحن لا نعطى نفس امتياز الرسل، بل نعطى البصيرة التى بها ندرك أننا كنا نسير معه إلى عمواس بقلوب منسحقة أولاً، ثم بقلوب ملتهبة، وبالتالى تكون - بقوة الروح القدس - مصحوبة بنعمة المفاتيح التى تستطيع أن تفتح الأبواب المغلقة، وتحرر المسجونين، إذ تخرجهم من سجونهم.

﴿١﴾ «الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء. وكل ما تحلّونه على الأرض يكون محلّولاً فى السماء.»

﴿٢﴾ «ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تغفر له ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت.»

هنا - على سبيل المثال - خاطئة كسيرة القلب، تتوهم أن خطيتها أعظم من أن تُغفر، فتجد أختا مسيحية تقدم إليها - كمفتاح - كلمات المسيح، كما نرى فى (لو ٧) و (يو ٨)، وللحال، يفتح أمام هذه الخاطئة المسكينة باب تدخل منه إلى سلام الله.

وأىضا، قد يوجد إنسان يعتقد أنه ارتكب خطية لن تُغفر، فيلتقى به أحد أولاد الله الأمناء، الخبيرين بأسرار الملكوت، ويقدم إليه - كمفتاح - كلمات المسيح التى تحدث بها فى مناسبات مماثلة: «كل خطية وتجديف يُغفر للناس» (مت ١٢: ٣١)، ويبيّن له الفرق بين الخطايا وبين حالة الموت التام، وعدم الإحساس المطلق التى يدفع الناس إليها أنفسهم، إذ يميّتون ضمائرهم لكى لا تحتج ولا تشتكى. وبذلك، يفتح أمامه الباب إلى حرية أولاد الله.

وأىضا، قد يوجد إنسان أصبح الضمير فيه نائما سقيما، وعذبتة الوسواس، وأزعجته الشكوك. مثل هذا، تستطيع أن تتقدم إليه بالإصحاح الثانى من كولوسى، أو الثالث أو الرابع من غلاطية - كمفتاح - وللحال، تجد أن باب السجن قد فُتح، وأن الأسير قد جاز باب الحديد - كبطرس - الذى يؤدى إلى مدينة ابن الله.

هذا هو سر الحياة المباركة. تجوّل فى العالم فاتحا أبواب السجن، رافعا الأحمال الثقيلة، مانحا نورا وفرحا وسلاما للمنسحقين، مناديا بسنة الرب المقبولة وأغلق الأبواب المفتوحة أمام الكثيرين محاولة أن تبتلعهم لفرط اليأس. افتح تلك وأغلق هذه، لأن هذا هو العمل الذى جُبِلت عليه الملائكة... «اقبل الروح القدس».

لعلك تعلم ما فعله فرسان الملك آرثر، إذ خرجوا متجولين فى أطراف المملكا ليقوموا كل خطأ، ويردوا كل ظلم؛ ولم يكن يمر عليهم يوم واحد دون أن يريحو الكثيرين. نحن أيضا مكلفون بخدمة مشابهة، فعلينا ألا نهذا يوما واحدا لئلا نخسر الجعالة. نحن أيضا نحمل سيف الروح ومفاتيح الملكوت. نحن أيضا نستطيع أن نلبس كأس التضحية المبارك.





﴿ معه على الجبل المقدس ﴾

﴿ مت ١٧ : ١ - ٩ : ٢٤ بط ١٦ : ١٨ - ١٨ ﴾

❖ «إن أنا بقيت معك على الجبل المقدس أتمتع بالإعلانات البهية والرؤى المباركة، مع التفكير فى الآلام القادمة.

«فاحفظنى من أن أرتفع بفراط الإعلانات، وقدنى طول مدة مسيرى فى وادى البكاء. وأرشدنى إذ أنحدر من سفح جبل التجلى. واحفظنى من خطية التذمر طول مدة مسيرى فى طريقى إلى السماء.»

﴿ كبل ﴾



فى عصر اليوم الأخير من إقامة المسيح فى قيصرية فيلبس، عرض على تلاميذه الثلاثة المتقدمين أن يصحبوه إلى أعالي قمم جبل حرمون لقضاء فترة الاختلاء. وإذا كانوا يجهلون ما ينتظرهم، قبلوا هذا الطلب عن طيب خاطر، ورافقوه ليشاهدوا ذلك المنظر الذى ترك فى نفوسهم أثرا لن تُمحى ذكرياته. إلى هذا المنظر، يشير بطرس فى آخر أيامه، مؤكدا بأنه من أقوى الأدلة على ألوهية السيد وألوهية رسالته. فإنه يقرر بأنه هو وزميلاه كانوا: «معانين عظمتة... فى الجبل المقدس» عندما «أخذ من الله الآب كرامة ومجدا». لم يكن فى هذه الحقيقة أى مجال للشك، لأنهم لم يتبعوا «خرافات مصنعة.»



﴿١﴾ تفاصيل التجلى

﴿١﴾ كان المكان - بدون شك - فى جبل حرمون. لقد انقضت الأيام السابقة عند سفح هذا الجبل. أما جبل طابور، الذى كان يُظن قديما بأنه هو المكان الذى اختير لهذا المشهد الرائع، فكان فى ذلك الوقت (كما أيدت ذلك بعض الاكتشافات الحديثة) موزعا لقلعة رومانية استقرت فيها حامية قوية، وهذا لا يلائم مطلقا ذلك الجمال الذى يرمز إلى المجد السماوى. وفضلا عن هذا التشبيه، الذى يذكره مرقس فى إنجيله، والذى يشبه فيه ثياب المسيح بالثلج، دليل جديد على أن قمم جبل حرمون، التى تغطيها الثلوج بصفة دائمة، كانت ماثلة فى ذهن مرقس، الذى كانت له صلة وثيقة ببيطرس. ولا يوجد مكان آخر فى فلسطين تغطيه الثلوج بصفة دائمة سوى هذا الجبل.

﴿٢﴾ وكان الوقت على الأرجح ليلا. كانت عادة الرب أن يقضى الليالى على الجبال، التى هى مذابح العالم الطبيعية. وفضلا عن هذا، فإن النعاس الذى غلب على التلاميذ، حتى أوشك مجد التجلى على الاختفاء، يرجح بأن الوقت كان ليلا. ويؤيد هذا الاستنتاج أيضا، تلك الحقيقة التى يذكرها لنا لوقا صراحة، وهى أنهم نزلوا من الجبل «فى اليوم التالى»، إذ استقبلهم جمع كثير كان فى حالة تأثر شديد بسبب ذلك الابن الوحيد المعذب بروح نجس. يزداد إلى هذا، أن الرواية تزداد فى أعيننا جمالا، كلما تذكرنا كيف أن المسيح شع منه ومن ثيابه نور ساطع، ومجد باهر، وبهاء فائق، وسط ظلام الليل الحالك.

﴿٣﴾ ومما يلاحظ أنه «وفيما هو يصلى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضا لامعا» (لو ٩: ٢٩). فى حالة موسى، كان مجد وجهه يعزى إلى امتصاصه للنور الأبدى الذى حلق بإبصاره فيه، فكان يعيد النور الذى كسبه. يوجد نوع من الماس، إذا عُرّض لنور الشمس طويلا، ظل متلألئا مدة طويلة إذا نُقل إلى غرفة مظلمة. قضى موسى أربعين يوما وأربعين ليلة فى حضرة الله، وكان النور الذى بهر أبصار إسرائيل نتيجة تلك الشركة الطويلة، فإنه، إذ نظر إلى وجهه الله، تغير إلى تلك الصورة عينها. أما فى حالة الرب، فإن المجد الذى أبصره التلاميذ، والذى شع من ملابسه، حتى أن ملابسه العادية صارت «تلمع بيضاء جدا

كالثلج لا يقدر قصّار على الأرض أن يبيّض مثل ذلك»، فقد كان إشعاعا من الداخل لمجد ابن الله الوحيد. ليس بعيدا أن المسيح، فى كل مرة اختلى فيها بالآب على الجبل، كان يخلع عنه ثوب التكر، ويتكرر نفس المنظر، ولو لم يوجد من يشاهده ليدوّنه.

ويجدر بنا - بهذه المناسبة - أن نكرر بإلحاح تلك النصيحة الثمينة (رو ١٢: ١ و ٢) التى نطق بها الرسول بولس، الذى سمع فقط عن التجلى أثناء الأربعة عشر يوما الخالدة التى قضّاها مع بطرس بعد ذلك بوضع سنوات. لِنَتَجَلَّ بتجديد أذهاننا، وعندئذ، إذ نقدم أجسادنا ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله، فإن هذه الأجساد أيضا تتجلى، تتبعث الأنوار من الداخل، وتختبر ما هى إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة.

﴿٤﴾ وزاد فى روعة المشهد ظهور موسى وإيليا. كان هذان البطلان يمثلان الأمة اليهودية. كان موسى يمثل الناموس، وإيليا يمثل الأنبياء. ولقد كان انتقال كل منهما من هذه الحياة بكيفية عجيبة؛ فموسى مات فى أعالي جبل الفسجة بأمر الله، ودُفن بمعرفته فى قبر مجهول. وإيليا صعد فى مركبة نارية أرسلت خصيصا لنقله. على أن هذه العجائب لا تعلل سبب ظهورهما الذى تم قبل تلك الأزمة الخطيرة.

منذ بضعة أيام، كان الرب قد كشف لتلاميذه القناع - بكل دقة - عن مناظر موته المزمع أن يكون. وللحال، حاول بطرس - نيابة عن الباقين - أن يقنعه بالعدول عن هذا، وقال له: «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا» (مت ١٦: ٢٢). إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا كلامه، أو يعطفوا على قضيته. لا شك فى أن المحبة المتدفقة، والولاء، والإخلاص، هى التى دفعت هذه النفس المتسرعة للاعتراض على كلام الرب. ولكنه لم يكن يفقه ما قال، كما كان الحال معه أيضا على الجبل. لهذا، كان ضروريا أن تقدم الكنيسة المنتصرة سفيرين من أقوى وأنبل الشخصيات للالتقاء بالرب قبل أن يثبت وجهه للذهاب إلى أورشليم ليموت.

﴿٢﴾ موضوع حديث الزائرين العلويين

إنهما «تكلما عن خروجه الذى كان عتيذا أن يكمله فى أورشليم»، وكان هذا الحديث عن «خروجه» باعثا لدهشة بطرس. وقد استعمل نفس هذا التعبير فيما بعد عن موته، إذ قال: «إن خَلَعَ مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضا، فأجتهد أيضا أن تكونوا بعد خروجى تتذكرون كل حين بهذه الأمور» (٢ بط ١: ١٤ و ١٥).

لابد أن هذا الحديث كان توبيخا عجيبا لبطرس ورفاقه، فإنهم كان يبدو إليهم أن موت الصليب غير معقول، بل غير لازم، فإن الذى خَلَّص الآخرين، يستطيع بلا ريب أن يخلِّص نفسه من موت مشين وأليم كهذا. لذلك، صرخوا بملء أفواههم: «حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا». الله لا يسمح بهذا، والإنسان لا يرضى به. صحيح أن معلّمهم قد أصبح مبعُضا من قادة الدين فيهم، ولكن لا داعى للاصطدام مع السلطات الرومانية التى بيدها وحدها حكم الموت بالصليب.

أما الآن، فقد دهشوا إذ أدركوا أن السماء لم يكن لها حديث سوى هذا. فقد اتضح لهم أنه هو الموضوع الوحيد الذى تحدث عنه موسى وإيليا. مهما اختلفا فى الصفات والوظائف، فقد اتفقا اتفاقا تاما فى هذا الموضوع الخطير. وحالما أقبلت الفرصة للتحدث مع المسيح، انتهزها. كان هذا هو الموضوع الخطير الذى يشغل تفكير «ربوات هم محفل ملائكة أبرار مكملين»، كان هو موضوع نشيد القيثارات العلوية، وكانت الملائكة تشتهى أن تطلع على هذا السر الذى ينحصر فى فداء العالم كلما اقترب الرب من دفع الثمن، «لا بفضة أو ذهب، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب أو دنس». إنه سبق أن أعد - قبل تكون العالم - لإعلان المحبة اللانهائية. أما الآن، فى أواخر دهور العهد اليهودى، فقد كان على وشك إتمام هذه المهمة.

لعل موسى تحدث عن خروف الفصح، الذى سبق أن ذُبَّ قبل «الخروج» الذى انتقل به شعبه إلى الحرية، وأكد للرب أن موته يحمل معنى الحرية والغلبة، عندما تكون جماعة «الغالبيين على الوحش واقفين على البحر الزجاجى (المختلط بنار شمس البر الأبدى) وهم يرتلون ترنيمة موسى وترنيمة الخروف» (رؤ ١٥: ٢ و ٣).

ولعل «إيليا» ذكر بأن شهادة يسوع هي روح النبوة (رؤ ١٩ : ١٠)، وأنه قد كُتب في «الأنبياء والمزامير أنه ينبغي أن المسيح يتألم» ويدخل إلى مجده (لو ٢٤ : ٤٤ و ٤٦). ولعله ردد بنوع خاص (إش ٥٣) إنه: «من تعب نفسه يرى ويشبع، وبمعرفته يبرر كثيرين»، بل ربوات لا حصر ولا عد لهم.

ولعل «موسى» قد شهد بأن كل ذبيحة سُنك دمها على مذابح إسرائيل لم يكن في مقدورها رفع الخطية، وأنه إن لم يتمم موته الآن، فقد ذهب كل أتعابهم أدراج الرياح، وتزعزت أركان الفداء الذي يتمتع به القديسون.

ولعل «إيليا» أكد بأن عربة خيمة الصعود تنتظره على الشاطئ الآخر لنهر الموت الذي سوف يشق مياهه القوية ليعبره. لعله قال له: «بموتك سوف تبطل الموت. سوف تجرد الموت من شوكته، والهاوية من غلبتها. سوف تنير الحياة والخلود. سوف تنشق مياه الأردن إلى الأبد، وتعبر جماعة المنفيين على أرض يابسة.

لا شك في أن موت الصليب، الذي كان يراه الرب منتظرا إياه، كان هو تدير الأبدية. كان جماعة القديسين ينشدون أولا أغنية الخليقة بتسبيح لا ينقطع، قائلين: «أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء» (رؤ ٤ : ١١). ولكن هذه استبدلت أخيرا بنشيد هو أكثر فرحا وأوفر حبوراً: «مستحق هو الخروف»، هو الخروف المذبوح قبل إنشاء العالم. كان معنيا أن يكون لموته تأثير، لا على الأرض فقط، بل حتى في جماعة المخلصين في السماء؛ كل خليقة في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وفي البحر وكل ما فيها كان يجب أن تتأثر بموته، وتزداد اقتراباً من قلب الله. ولأنه كان معروفاً أنه سوف يطيع حتى الموت، موت الصليب، فكان يجب أن تجثو باسمه كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو ربُّ لمجد الله الآب (في ٢ : ٨ - ١١)؛ كان يجب أن يعطى اسماً فوق كل اسم (ع ٩)، وأن يبطل كل رئاسة وكل سلطان وكل قوة، وأن يخضع له كل شيء، تمهيدا لتقديم كل شيء للآب، لكي يكون الله الكل في الكل (١ كو ١٥ : ٢٤-٢٨).

إذن، فهل نعجب إن علمنا كيف كانت سحابة الشهود ترقب المخلص باهتمام شديد جداً، عندما تقدم إلى ميدان الجهاد ليخطو الخطوة الأخيرة في ذلك

الصراع العظيم، ويضرب الضربة الأخيرة؟ لقد اشتركت صفوف السماء فى الدهشة والتعجب مع جماهير الشعب، حتى دُعِيَ هؤلاء - ساعة الصعود - للانضمام إلى موكب الظفر بفرح وبهجة... «وبالإجماع، عظيم هو سر التقوى. الله ظهر فى الجسد، تبرر فى الروح، تراءى للملائكة، كُرِّزَ به بين الأمم، أُؤْمِنَ به فى العالم. رُفِعَ فى المجد» (١ تى ٣: ١٦).

﴿٣﴾ السحابة المظلة

قدّم بطرس اقتراحا غير متزن، لأنه كان وليد العجلة والتسرع. إنه «لم يكن يعلم ما يتكلم به» كما يخبرنا مرقس (وهو أقرب الإنجيليين إلى بطرس، ولعله نقل هذا عنه شخصيا). كان اقتراحا بعيدا عن العقل والمنطق، فهو على الأقل يتنافى مع الصليب، لأنه يتضمن أن يتغافل الرب عن مطالب البشرية الساقطة، ويقضى بقية أيامه فى مظلة على الجبل. ويتضمن الاقتراح أيضا أن يتعطل موسى وإيليا عن إقامتهما السعيدة، وخدمتهما المباركة فى المقدس العلوية. يا له من جهل أن يحصر بطرس كل تفكيره، وكل آماله، فى سعادة الإقامة أعلى الجبل، بدل أن يفكر فى ذلك الصراع الذى ينتظره أسفل الجبل. كان على بطرس أن يقطع شوطا بعيدا، حتى يتعلم أن يكتب: «الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة لكى نموت عن الخطايا فتحيا للبر، الذى بجلدته شفيتم» (١ بط ٢: ٢٤).

وإذ كان يتحدث بهذه الكلمات، رأى هو ورفيقاه سحابة نازلة أحاطت بذلك المنظر البهيح. فخافوا حين رأوا أن سيدهم وضييفه الكريمين اختفوا عنهم وسط مجد وبهاء تلك السحابة... «إذا بسحابة نيرة ظللتهم». لم تكن سحابة عادية، بل لعلها السحابة التى تمثل حضرة الرب التى قادت شعب إسرائيل فى البرية، والتى ملأت هيكل سليمان عند تدشينه، والتى ركبها الرب عند صعوده إلى السماء. سُمِعَ من وسط السحابة صوت الله الأبدى، حاملا شهادة قوية للمخلّص كابن الله، وطالبا ولاء وخضوع الجميع له: سمع التلاميذ الثلاثة ذلك الصوت، ولا شك فى أن شهادتهم لهذا الحادث الخطير لها قوتها.

ماذا كان ممكنا أن يحدث؟ كان واجبا ألا يذوق آدم الثانى الموت، لأنه بلا خطية. لو أن آدم الأول لم يخطئ، لكان ممكنا أن ينتقل إلى الله كأولئك الذين سوف يكونون أحياء عند مجيء الرب. كذلك كان ممكنا أن يكون الحال مع المسيح الذى بلا خطية. كان ممكنا أن «يَبْتَغِ المائت من الحياة»، لم يكن هنالك ما يدعو أن يخلع الخيمة، بل أن يلبس فوقها (٢ كو ٥: ٤). فى لحظة، فى طرفة عين، كان ممكنا أن ينتقل مع موسى وإيليا إلى باب الفردوس المفتوح، لكى يصير مقدّمنا دون أن يكون فادى جنسنا. مثل هذه الأفكار يحتمل أن تكون قد عرضت إليه، ولكن، لو أنه حصل ذلك فى أية لحظة، لدفعها عنه فى الحال، كما فعل مع بطرس - إذ اقترح مثيلا لها - وقال له: «اذهب عنى يا شيطان، لأنك تهتم بما للناس». من أجل السرور الموضوع أمامه (أو عوضا عن السرور الموضوع أمامه)، ولّى ظهره للفردوس من أجل نفسه، لكى يفتح الفردوس للص ثم لنا. وعندما عبرت السحابة، «وجد يسوع وحده» مع تلاميذه، ثم سار فى طريقه مباشرة إلى الجلجثة. وكما قال إشعياء إنه جعل وجهه كالصوان، ونحن عرفنا أنه لا يُخزى (إش ٥٠: ٧).





﴿ عنى وعنك ﴾

﴿ مت ١٧ : ٢٤ - ٢٧ ﴾

❖ «تتح عنى أيها اليأس، فربى الرحيم يسمعنى.
وإذا ما عصفت الرياح والأمواج على سفينتى،
فإنه يحفظها وينقذنى.
» حتى وإن كانت قد بدأت تفرق، فالعواصف
ليست إلا آلة فى يده يظهر بها قوته، لأنه،
وإن أغمض عينيه، لا يمكن أن يفلق قلبه.»

﴿ هريرت ﴾



كان السيد فى طريقه إلى أورشليم. وبعد أن سلخ من
الرحلة خمسين ميلا إلى الجنوب، استقر به المقام فى بيت بطرس بكفر
ناحوم للاستراحة قليلا. على أنه، لدى التأمل الدقيق، يتضح أن سكان
هذه المدينة قد تغيرت روحهم عما كانت عليه فى أيام خدمة المسيح
الأولى. فالطرق لم تغص بعد بالمرضى الذين كانوا ينتظرون الشفاء
بمجرد لمسته الشافية، والمجامع لم تعد تُفتح لسماع تعاليمه. فإن بذور
الغيرة والحسد والشك التى بذرها الفريسيون، بتحمس شديد، قد
أثمرت حصاد الزوان. وأصبح الجو مشبعا بروح الشك وتزعزع الثقة.
وتلك الوجوه الباسمة بالأمس، قد كُشِرت عن أنيابها اليوم.



بدا أحد مظاهر هذا التغيير حال وصوله المدينة مباشرة. فإن محصلى ضرائب الهيكل، التى فُرضت على اليهود اختياريا، تقدموا إلى بطرس بهذا السؤال: «أما يوفى معلّمكم الدرهمين؟» يرجع أصل هذه الضريبة إلى تاريخ متقدم جدا ، إلى أيام موسى، وقد فُرضت لسد مطالب خدمة الهيكل. كانت ضريبة اختيارية، ولذلك يجب تمييزها عن ضريبة الرومانيين، التى كانت إجبارية على اليهود والأمم على السواء. وكان هنالك اتفاق عام أن يُعفى المعلمون الروحيون، كالربيين، من ضريبة الهيكل. ولقد كان الاحترام الإجماعى الذى قُدّم للمسيح منذ بدء خدمته، حائلا تاما دون مطالبتة بدفعها. أما الآن، وقد تغيّر الموقف، وصار يُنظر إليه بنظرة أخرى، وأصبح يطارد من هيرودس والولاة، فإن القوم تقدموا إلى بطرس - كممثل له - بهذا السؤال، الذى دل على أن سياج الاحترام والتوقير الذى كان يحاط به قد بدأ يتحطم. ولعل هنالك باعئا آخر، هو أن الجماعة اعتقدوا بأن الرب قد انحاز إلى جماعة الصدوقيين الذين كانوا لا يبالون مطلقا بهذه الضريبة.

أما بطرس، فإنه أجاب على الفور بأن السيد سيدفع الجزية يقينا. لكنه، لدى وصوله إلى المنزل، أدرك أن يسوع علم بكل ما يتعلق بهذا الطلب، لأن الرب سبق فأخبره به فى السؤال الذى ابتدره به حال دخوله، إذ قال له: «ماذا تظن يا سمعان، ممن يأخذ ملك الأرض الجباية أو الجزية، أمن بنهم أم من الأجانب؟» يقينا أن ذلك الوعد الذى ارتبط به بطرس - فى تسرعه - لدفع الجزية، لا يتفق مع التصريح الذى صرّح به منذ أيام قليلة: «ابن الله الحى.»

بيّن هذا الحديث القصير أن الرب أدرك التغيير فى معاملته، الذى يجب أن يتوقعه منذ الآن. ولكنه لم يقصد المطالبة بحقوقه. طالما كان هذا الطلب لا يمس المبادئ العامة، فلن يحاول الاعتراض عليه. إنه لم يلجأ إلى محكمة الضمير العليا ليعرف أى طريق يسلكه، بل فكر فيما يتطلبه الموقف، وفى مدى التأثير الذى يتركه تصرفه فى أشد الناس مقاومة له. أدرك أنهم سوف يتخذون رفضه أساسا للتشهير به وبتعاليمه بين الشعب، وأن هذا الرفض سوف يكون عثرة جديدة فى طريقهم. إذن، فلكى لا يُعثر أبسط العقول، صرّح بأنه مستعد لأن يدفع الجزية عنه وعن تلميذه.

وهنا نجد مبدأ عميقا، يتطلب منا التفاتا دقيقا. عندما تعترضنا بعض المواقف التى لا تتعارض مع المبدأ أو الضمير، فيجب أن نكون مستعدين للرضوخ لضعف الضعفاء الذين نؤمل بأن نربحهم لمبادئنا. وفى (١ كو ٩)، نجد بولس يتصرف حسب هذه القاعدة، فإنه صرّح بأنه حر من أشياء كثيرة، وغير مرتبط بها مطلقا، ولكنه، رغم ذلك، مارسها من أجل استبقاء نفوذه على أولئك الذين كان يرجو أن يقودهم فيما بعد إلى حرية المسيح. لقد كان وهو فى المسيح حرا مع الجميع، ولكنه من أجل المسيح استعبد نفسه للجميع. وقال أيضا: «كل الأشياء تحل لى، ولكن ليس كل الأشياء توافق» لأنها لا تبني، وقد تسبب العثرة للآخرين. «كونوا بلا عثرة لليهود وللليونانيين ولكنيسة الله. كما أنا أيضا أَرْضَى الجميع فى كل شىء غير طالب ما يوافق نفسى، بل الكثيرين لكى يخلصوا» (١ كو ١٠: ٣٢).

نحن، كمسيحيين، يجب ألا نخضع لأى طلب مَادَى لا يتفق والضمير. ولكن، حيث لا يعثر الضمير، يجب أن نكون مستعدين لأى طلب شرعى جرى عليه العرف والعادة. لإظهار حريتنا، يجب ألا نعثر أى إنسان مطلقا، وفى هذا، لا يتأخر الرب عن أن يكون شريكا لنا «عنى وعنك»، فإنه مستعد أن يتكفل بأى طلب مَادَى يُطَلَّبُ باسمه ومن أجل إنجيله.

﴿١﴾ إن المسيح يتعهد بسداد أى طلب مَادَى يُطَلَّبُ من تلاميذه المعدمين

لقد ترك بطرس كل شىء ليتبعه إطاعة لأمره. ترك السفن والشباك، وتجارة الأسماك. وإن كان قد احتفظ بسفينته، فلم يكن ذلك إلا لمساعدة معلّمه فى حياته النشيطة. فلقد مرت عليه شهور منذ وُجِدَ بين رفاقه الصيادين. إذن، فلم يكن هنالك مورد لإعالة أسرته من مهنته. ولا شك فى أن الرب رتب أن يخصّص مبلغ معين من الصندوق العام لإعالة هذه الأسرة. عندما تسلم نفسك تسليما كاملا للمسيح ولخدمته، لا اتباعا لأهوائك، بل إطاعة لدعوته، فيجب أن تعتمد اعتمادا مطلقا على تدبير عنايته، وحتى إن ضعف إيمانك، فإنه يبقى آمينا، لن يقدر أن ينكر نفسه.

لعل المرأتين، زوجة بطرس وأمها، نظرنا إلى هذا الترتيب فى بادئ الأمر بشئ من الريبة وضعف الثقة. ولعل إيمانهما قد جاز امتحانا قاسيا مدة غياب الجماعة كلها، لأنه عند وصول بطرس إلى البيت، لم يتوفر فلس واحد لدفع هذه الجزية. لقد أنفقتا كل ما كان متوفرا لديهما، ولا بد أن يكون بطرس قد أذهله ذلك الفارق العظيم بين منظر جبل التجلى المجيد بمظاله الثلاثة المقترحة، وبين حالة الضيق التى يجوزها منزله المتواضع. يجب علينا، نحن الذين نخرج إلى المؤتمرات والخلوات الروحية، ألا نتغافل عن تلك القلوب المحبة والأمانة التى تركناها فى بيوتنا فى شئ من الضيق والعوز. لا يليق أن نلذذ أنفسنا على جبل حرمون إلا إن كنا قد دبرنا كل ما تحتاجه بيوتنا المتواضعة.

لقد أحس بطرس بحق أنه ليس له أن يحمل وحده هذا الحمل، فإنه واضح أن المعلم، إذ دعاه لترك كل شئ، قد تعهد بكل أعوازه. لم يكن هنالك شك فى أنه سوف يعوله وكل من له، ولو أن الوسيلة لم تكن معروفة بالضبط. إذن، فقد وجد بطرس راحة جزيلة عندما وجد أن المسيح سبق فأنبأه بأمر الجزية المطلوبة قبل أن يقص عليه روايته، وعندما أدرك أن المسيح علم بكل شئ ودبر الوسيلة لإنقاذ الموقف.

صديقى العزيز! تشجع. إنه يجيب قبل أن تدعو. وفى أثناء تحدثك معه، يكون العون قريبا منك. هو يعلم أنك من أجله تركت أشياء كثيرة مباحة لغيرك ممن لم يدعوا مثلك لحياة التكريس وإنكار الذات. من أجل المسيح، تركت بعض موارد الرزق التى لم يتشكك منها غيرك. ومن أجل الإنجيل، تركت محبة بعض الأهل والأصدقاء، ولو كانت المحبة بريئة. من أجل النفوس الهالكة، قد احتملت الكثير من التضحيات وإنكار الذات لأقصى حد. تشجع، ولا تظن أن سيدك متغافل عن كل هذا. ولا شك فى أنه سيعوّضك عن كل هذه التضحيات بأية طريقة من الطرق. لا تتردد فى أن تخبره بحاجتك، وثق بأنه لا يمكن أن يرد لك طلبا. كل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو أبناء أو أراضٍ من أجل اسمه، يأخذ مائة ضعف.

ذهب بطرس إلى البحيرة برعب شديد، آخذاً معه صنارته التي تقادم العهد على هجرها، متحيراً في أى مكان يلقي الصنارة، ولكنه واثق من أن سمكة معينة لابد أن تسير إليه في طريق البحر. كانت السمكة قد أبصرت قطعة نقود متلألئة إذ سقطت بجانب سفينة من مسافر أو من طفل، فحملت هذه القطعة التي لم ترحب بها، حتى تقيأتها في يدى بطرس وهو منذهل، ومن ثم أعادها إلى البحر، فسلكت سبيلها في وسط المياه، وهى لا تعلم أنها قد تمتت قصد خالقها. لا شك في أن الرب يسد كل أعواز عبیده الأبناء، إن لم يكن بمعجزة مشابهة، فبأية وسيلة أخرى... «كل من اتكل عليه لا يعاقب (لا يخزى)» (مز ٣٤: ٢٢)، وهو يفتح يديه ويُسبِّح كل الذين يتقونه... إن أتى الجابى إلى بابى، فإن يسوع كفيل بإغاثتى في كل الطوارئ.

﴿٢﴾ الرب يقرن نفسه بإنسان خاطيء

«فخذوه وأعطوهم عنى وعنك». مما يلاحظ أن السمكة لم تقبل قطعتين من النقود. كل منهما نصف إستار، بل قطعة واحدة قيمتها إستار. ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً، حرف «و» الذى يربط الكلمتين معا «عنى وعنك» بحلقة ذهبية توصل بين المخلص وتلميذه الضعيف. هذا يقينا هو موضوع تعجب الأبدية أن يدعونا أخوة، أن يتحدثنا بشخصه أمام أبيه والملائكة القديسين، أن يطلب بأن نكون معه حيث يكون هو، لننظر مجده، وندخل ملكوته الأبدى. قد يتضح أن هذا غير قابل للتصديق بعض الأحيان، ولكن هذا ما قصده الله بمشورته ومسرة مشيئته منذ الدهور، وهذا ما اختبره عمليا كل المؤمنين في كل الأجيال.

إننى أرى المسيح منتصرا عقب نهاية التجربة على الجبل أربعين يوما، عندما جهّز رئيس هذا العالم كل عدته عبثا. أراه وهو يبتسم، واعداء إياى أننى أيضا سوف أدوس الصلّ [١] والأسد، وهو يقول: «عنى وعنك». أراه بين ظلال جثسيمانى، وهو يشرب، حتى الثمالة، تلك الكأس التي وضعها الآب في يده. أسمع صوته ينبعث هادئا من أعماق أحزانه، ولكنه يخبرنى أنه لم ينتصر من أجل نفسه فقط، بل من أجلى أنا أيضا، وهو يردد القول: «هذا عنى وعنك».

﴿١﴾ الحية السامة (مكتبة المحبة).

أراه يموت فوق الصليب، يدخل الحديد إلى نفسه. عبرت ظلمة ذلك اليوم التاريخى المشهود، التى كانت حالكة وسط النهار، فصرخ ظافرا منتصرا: «قد أُكْمِلَ». وإذ قال هذا، وقع بصره على غارقا فى دموع الحزن تحت الصليب، فأكد لى بأن طاعته حتى الموت كانت لازمة لإتمام إرادة الآب، ولكنها أيضا لازمة لفدائى فيكرر القول ثالثة: «هذا عنى وعنك».

أراه خارجا من القبر فى فجر اليوم الثالث. لقد انتزع من الموت شوكتته، ومن القبر غلبته. أسمعته وهو يذيع تلك البشارة المفرحة: «أنا هو الحى، وكنت ميتا، وها أنا حى إلى أبد الآبدين» (رؤ ١: ١٨). وإذ يسير فى طريق ذلك البستان، يؤكد لى أنى أيضا قد قمت، ثم يردد لى القول: «هذا عنى وعنك».

وأخيرا، أقف مع جماعة التلاميذ فوق جبل الزيتون، إذ ارتحل عنهم، وحملته سحابة نيرة حتى احتجب عن عيوننا. وإذ قصرت عيوننا الجسدية عن أن تراه، يتسلل إلينا الصوت من السماء: «إننى أذهب إلى ملكوتى، ومتى ذهبت، أرسل إليكم الروح القدس بملء قوته»، ثم ردد الصوت نفس الكلمات: «هذا عنى وعنك».

وهكذا، يربط نفسه بإنسان خاطيء. ومن ذا الذى يستطيع أن يفرِّق ما جمعه الله؟ لا الموت، ولا الحياة، لا الأمور الحاضرة أو المستقبلية، تستطيع إن تفصل تلك الصلة.

﴿٣﴾ المسيح يقيم البشر الضعفاء وكلاء له

«فخذوه وأعطهم عنى وعنك». إنه يتوق لأن يوزع بركاته على البشر. ولكنه لأجل هذه الغاية، يحتاج إلى وكلاء لكى يوزعوا على الجماهير، كما حصل فى القديم، إذ أخذ التلاميذ من يديه الخبز والسمك وأعطوا للجماهير، ولعله ردد إذ ذاك نفس هذه الكلمات: «خذوا واعطوا».

ألم يكن هذا هو ناموس المسيح؟ فإنه، إذ أخذ من الآب موعد الروح القدس، سكب به بكلتا يديه على الكنيسة المنتظرة. لقد سر الآب أن يحل فيه كل الملة: «ومن ملئه نحن جميعا أخذنا، ونعمة فوق نعمة». وإن جاز لنا أن نعبر عن ذلك بتعبير آخر، فإننا

نقول أن الرب أخذ ميراثه من الآب، وأعطاه إلينا كشركاء معه فى الميراث. إنه «أخذ وأعطى». من خزانة الآب الأبدية أخذ نصيب البكورية فى سبائك ذهبية، ولكنه حوّلها إلى عملة عادية، لكى نستطيع نحن أيضا بدورنا أن نأخذ ونعطي... «مستغنين فى كل شئ لكل سخاء ينشئ بنا شكرا لله» (٢ كو ٩: ١١).

تأخذ الزهور دواما من أشعة الشمس والندى والهواء ما تعطيه إلينا فى ألوانها البهيجة، وروائحها العطرية، وجمالها الفتان. وفى العصر الفحمرى، امتصت الغابات الضخمة من أشعة الشمس القوية تلك القوات التى يردها إلينا الفحم اليوم. والبهاائم تأخذ من عشب الجبال والمراعى ذلك الغذاء الذى تقدمه إلينا بتضحية حياتها. ولا زال فطاحل العلماء يواصلون البحث عن الطرق التى بها نزداد انتفاعا من القوات العجيبة الخفية التى تحيط بنا؛ إنهم بين الآونة والأخرى يخترعون الاختراعات العظيمة لإفادة البشرية، وناموس كل اختراع هو: «خذ وأعط».

وسبب الفشل الذريع فى حياة الكثيرين جدا، هو أنهم لم يتعلموا أن يأخذوا، إنهم يصلّون، ويصلّون بحرارة، ولكنهم لم يصلّوا بعد إلى درجة الأخذ أو القبول... «تطلبون ولستم تأخذون». قال المسيح: «كل ما تطلبونه حينما تصلون، فأمنوا أن تتألوه» [١] فىكون لكم» (مر ١١: ٢٤). وأرسل بولس إلى كنيسة رومية هذه الرسالة بلهجة الثقة واليقين: «والعطية بالنعمة التى بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين... والذين ينالون (يأخذون) فيض النعمة وعطية البر سيملكون فى الحياة» (رو ٥: ١٥ و ١٧). فالرسول لا يأمرنا بأن نصلى للحصول على فيض النعمة، بل يدعونا لننالها (نأخذها). من أكبر مشكلات الصلاة، صعوبة التمييز بين اللجاجة وبين القبول والأخذ من الله فى الصلاة.

يجهل الكثيرون معنى الأخذ. إنهم يصلّون، ولكنهم لا يأخذون. وهاكم سر هذا الفشل المرير. إننا نصلى، ونصلى بلجاجة، ونجاهد، ولكننا نعجز عن أن نبصر البضاعة

❖ ١ «إنكم تتألونه» (أى تأخذونه فعلا وقت الصلاة) حسب الترجمة القبطية وترجمة اليسوعيين، أو «إنكم نلتموه» حسب الترجمة الإنجليزية المنقحة.

وقد وصلت إلى الرصيف، ودخلت المخزن، وأنها فى انتظارنا حتى نبحث عنها ونأخذها. وقبل أن نستطيع الأخذ، يجب أن نكون واثقين من أننا لسنا مدفوعين بمطامع شخصية، بل نطلب باسم المسيح، ونطلب ما يتفق مع إرادته، مستثنين على وعد معين من مواعيده. إن أتممنا هذه الشروط، استطعنا أن نسمع صوت أبينا السماوى، ونحن ماثلون فى حضرته المقدسة، يقول لنا: «يا ابنى، أنت معى دواما، وكل ما لى فهو لك، خذ واذهب فى طريقك، لتعطى.» قد لا نحس بأننا أخذنا، ولكن كل ما علينا هو الثقة الكاملة فى أمانة الله المطلقة التى لا تتخلى عنا، لنخرج للعمل واثقين من أننا قد أخذنا، وأن موردنا رحيب جدا، وأنه لا ينضب، وأنه مهما كثر عدد الذين يطالبوننا، فإن معلّمنا كفى بإيفاء كل الطلبات.

وكما أننا لا نستطيع أن نعطى إلا بعد أن نتعلم كيف نأخذ، كذلك نحن لا يمكن أن نأخذ إلا إن كنا مستعدين أن نعطى. إن كنا نحاول أن نأخذ دون التفكير فى العطاء، فإننا نجد أن يدنا قد شلّت بجانبنا، فالعبد غير الأمين الذى أخذ الوزنة ودفنها، لاستخدامها فى أغراضه الشخصية عند الحاجة، خسرها.

لنخرج لكى نعطى، هنالك - فى كل ناحية - قلوب متفجعة، ونفوس مرة، وأيادٍ ممتدة إلينا تطلب الإغاثة. لنسمح بأن يجعلنا الله أوانٍ يوصل بها من بركاته إلى الآخرين، ويتخذنا وكلاء؛ يزيدنا الله كل نعمة لأنه يعلم أننا سوف نزداد فى كل عمل صالح (٢ كو ٩: ٨)، إنه سوف يملأ المجرى من ينباع لا تتضب، إنه «يقدم بذار للزارع، وخبزا للأكل» (٢ كو ٩: ١٠). وملائكته سوف تخدمنا، إنه «يملأ كل احتياجكم بحسب غناه فى المجد» (فى ٤: ١٩)... «اعطوا تعطوا، كيلا جيدا ملبدا مهزوزا فائضا يعطون (يعطى المسيح) فى أحضانكم، لأنه بنفس الكيل الذى به تكيلون يكال لكم» (لو ٦: ٣٨). إذن، «فخذ واعط.»





﴿ الراعى فى حراسته ﴾

﴿ مت ١٨ : ١ - ٢٢ ، ١٩ : ٢٣ - ٣٠ ، ٢١ : ١٨ - ٢٢ ﴾

- ❖ أنت تعرف أحـــــزاننا
- ❖ كما تعرف الأفراح لدينا
- ❖ ليس شىء عنك يخفى إذا ضللنا
- ❖ والذى يحير العقول منا
- ❖ أن نعلم بأنه مهما عظمت خطايانا
- ❖ وتدنست حـــــياتنا
- ❖ فإنك، وأنت ترى كل شىء بعينيك الثاقبتين
- ❖ تظل تدعونا إخوة... ويا لها من كلمة عذبة
- ❖ تملأ النفس غبطة وســـــعادة
- ❖ أيها الرب الساكن فى الأعالي
- ❖ أنت تعرف كل شىء
- ❖ ومع ذلك، فإنك تحبنا أكثر مما تعرف عنا

﴿ كبل ﴾



فى صلاة المسيح القوية المعروفة فى (يو ١٧)، نراه يتحدث
 عن تلاميذه، قائلاً: «حين كنت معهم فى العالم، كنت أحفظهم فى
 اسمك، ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك». فى هذه الكلمات، التى
 تشير إلى حفظ الله لأولاده، نرى لمحة لشفاء النفوس، الأمر الذى هو
 موضوع عناية المسيح الدائمة. إنه لم يكن أجيراً... عندما رأى الذئب



مقبلا ليخطف، لم يهرب، بل سار أمام قطيعه الصغير، والتقى بالعدو. إنه علم بأنه عندما يُضرب الراعى، تتبدد الرعية... ولكنه لم يكف مطلقا عن تحذيرهم ليلا ونهارا بدموع... لقد رأى الشيطان مقبلا إليهم ليغربلهم كالحنطة، فصلى بنوع خاص من أجل ذاك الذى قد تقوده طباعه إلى الإنكار المروع، والذى كان لا يشك قط فى محبته، والذى سبق أن رأى حزن نفسه الشديد.

يجب ألا ننسى قط أن المخلّص لم يعامل تلاميذه كجماعة فقط، ولكنه كان يعاملهم كأفراد، لا بطريقة سلبية، بل بطريقة إيجابية، وأنه درس غرائزهم، وكان يهذب كل واحد التهذيب الذى تتطلبه حالته. إذن، فلعل فى كل كلمة من كلماته، التى دونها الإنجيليون، إشارة خاصة للتشجيع أو للتوبيخ بسبب الصفات التى لاحظها. كان فى كل شخصية من هذه الجماعة القليلة بعض مميزات قوية، يجب درسها وتهذيبها، قبل إعدادهم للعمل العظيم الذى ينتظرهم، فهم حجارة الأساس فى أورشليم الجديدة.

وظهر أنه كان يوجه عناية خاصة لكل من يهوذا وبطرس. فالأول كان مخاتلا مخادعا، يميل إلى الدس والمؤامرات. أما الثانى، فإنه كان متسرعا ومندفعا، مما كان يحمله دوما على التطرف إلى أقصى حد، بل إلى الاندفاع للمتناقضات، ولهذا، فإنه كان فى حاجة مستمرة إلى التحذير، بل إلى انتشاله من ورطاته التى طالما دفع نفسه إليها؛ فحينما يقول للسيد: «اخرج من سفينتى»، وحينما آخر يترك كل شىء ليتبعه... ومرة يستحق أن يسمع هذا التطويب العظيم: «طوبى لك»، ومرة أخرى يستحق أن يُلقَّب بـ «شيطان». وفى لحظة واحدة يقول: «لن تغسل رجلى أبدا»، ثم بعد ذلك مباشرة: «ليس رجلى فقط، بل أيضا يدي ورأسى». وفى ساعة واحدة يظهر استعدادة للدفاع عن السيد الذى أحبه حبا مفرطا، ثم ينكر إنه يعرفه إنكارا قاطعا. لهذا، فقد كان أمرا شاقا أن يدرب على الثبات فى أخلاقه وتصرفاته، ولإعدادة لقيادة الكنيسة فى صراعها ضد العالم المجهز بأسلحة قوية. لم يشك معلمه فى إخلاصه ومحبته، ولكنه كان يتألم جدا إذ يرى تقلبه وتهوره.



حالة يهوذا

لسنا فى حاجة إلى إطالة التأمل فى مراقبة السيد لحالة يهوذا، وتحذيراته الكثيرة له. ولكن لا شك فى أن الكثير من أقواله كان مُعزِّى إلى التغيير الذى كان يلاحظ على هذا الشاب، الذى كان يُرجى منه خير جزيل، والذى كان من مدينة قريوت [١]؛ كان يلاحظ بحزن شديد أن محبة المال تأكل نفسه، ولا بد أنه كان ماثلاً فى ذهنه لدى النطق بالكثير من الأقوال: «أعداء الرجل أهل بيته» (مت ١٠: ٣٦)، «لا تحملوا كيسا ولا مزودا...» (لو ١٠: ٤)، متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله» (لو ١٢: ١٥)، «فرع (الغنى) عينيه فى الهاوية وهو فى العذاب» (لو ١٦: ٢٣)، «يأتى سيد ذلك العبد فيقطعاه ويجعل نصيبه مع الخائنين» (لو ١٢: ٤٦)، «لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» [٢]. هذه الأقوال تنطبق علينا أجمعين، ولكنها كانت تحمل إشارة خاصة ليهوذا، ولعله قد قصد بها أن تكون إنذارا له عما ينتظره من خاتمة محزنة.

كذلك، نستطيع أن نجد إشارات كثيرة عن حالة بطرس فى الشهور الأخيرة من خدمة المسيح.

حالة بطرس

كانت هنالك مواقف عديدة تستدعى تحذيرا خاصا، كما تستدعى تقوية وتشديد عزم.

﴿١﴾ محاولته أن تكون له الأفضلية والزعامة

لعلنا لا نكون قد ظلمناه إذا حكمنا بأنه كان له النصيب الأوفر فى المنازعات الحادة التى كانت تثار بين التلاميذ بين الآونة والأخرى، رغم عدم ذكر اسمه صراحة،

﴿١﴾ هذا ما يرجحه الكثيرون، على أساس أن اسمه مركَّب من كلمتين: «إيس» أى رجل، و «قريوطى» نسبة لقريوت.

﴿٢﴾ لو ١٦: ١٣ «مكتبة المحبة»

خصوصا بعد وعد المسيح بإعطائه مفاتيح ملكوت السموات، وبعد الإشارة إلى المعنى الذى يتضمنه اسمه، وبعد أن اختصه هو واثنين من رفاقه بمشاهدة مناظر جبل التجلى الرائعة. يؤيد هذا الحكم ما سجله إلينا مرقس (وهذا أقرب الإنجيليين إلى بطرس، ولعله كتبه نقلا عنه) من أن الرب، لدى عودته من جبل التجلى «جاء إلى كفر ناحوم، وإذ كان فى البيت (أى بيت بطرس)، سألهم: بماذا كنتم تتكلمون فيما بينكم فى الطريق؟» (مر ٩: ٣٣)، أما هم «فسكتوا، لأنهم تحاجوا فى الطريق بعضهم مع بعض فى من هو أعظم»، أما هو «فجلس، ونادى الاثنى عشر، وقال لهم: إذا أراد أحد أن يكون أولا فيكون آخر الكل، وخادما للكل»، ثم أخذ ولدا، وينقل إلينا التقليد أنه كان أحد أبناء بطرس نفسه، وأنه هو الذى صار أسقفا فيما بعد (الأسقف أغناطيوس)، ثم مات شهيدا؛ أخذ المسيح هذا الولد، ثم احتضنه، وقال لتلاميذه: «من قبل واحدا من أولاد مثل هذا باسمى يقبلنى.»

قام النزاع على الرئاسة مرة أخرى بينهم، عندما حاول يعقوب ويوحنا أن ينتزعا من بين شفتى المسيح تصريحاً لمصلحتهما، بإرسال أمهما للتوسل بأن يعطى لهما حق الجلوس عن يمين ويسار المسيح فى ملكوته. وفى مساء يوم الخيانة العظمى، تجدد النزاع، مما عطّل كل واحد عن التقدم لغسل أرجل الباقين، بسبب عدم وجود خادم فى البيت، مع أن صاحب البيت كان قد أعدّ - بحكمته وأدبه - إبريقا ومنشفة، ووضعهما فى متناول التلاميذ.

ولعل هذا الطمع فى الرئاسة، هو الذى دفع بطرس إلى الإصرار على التصريح بأنه، ولو تتحى الجميع عن السيد فى ساعة التجربة القادمة، فإنه سيبقى ملازما له «وإن شك فيك الجميع، فأنا لا أشك أبدا، ولو اضطرت أن أموت معك لا أنكر». ولا شك إنه كان يقصد كل ما قال. وإن كنا قد ذكرنا كلمة «طمع» فى بدء هذه الفقرة، فكانت هنالك عوامل مخففة فى التصريحات التى نطق بها. كان هنالك على الأقل ولاء حار، ورغبة ملحة فى ألا يمس ذلك الجسد الطاهر أى أذى لا يستطيع أن يردده، وارتياح داخلى بأنه أيسر وأفضل له أن يموت مع المسيح عن أن يحيا بدونه.

ولكن، إن كانت تحذيرات المعلم لتلميذه لم تُجَدِ نفعاً، فعله لم يفلح فى استئصال روح العظمة من قلبه، أكثر من سقطته المخزية فى تلك الليلة التى أُسْلِمَ فيها المسيح؛ فإننا فى الصفحات التالية، لا نجد آثاراً لتلك الروح القديمة قط. صحيح إنه يحتل المركز الرئيسى فى الحوادث المدونة فى (أع ١ و ٢)، دون أن نجد أى أثر لحب الظهور أو العظمة، ولكن فى أول مجمع للكنيسة (أع ١٥)، أعطى كرسى الرئاسة ليعقوب، بينما يقدم بطرس رأيه كأى واحد من الباقين. وأخيراً، نجده فى رسالته الأولى ينصح الشيوخ، لا على أساس أنه رسول، بل باعتباره أنه هو «الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح». وبعد ذلك، يضيف الكلمات التالية التى يحثهم فيها على رعاية رعية الله، والتى كان بلا شك يكتبها وهو يذكر سقطته المرة، فيقول: «لا كمن يسود على الأنصبة، بل صائرين أمثلة للرعية» (١ بط ٥: ١ - ٣).

﴿٢﴾ روح الصفح والتسامح

كان المسيح يتحدث مرة عن الصفح والتسامح، فتقدم بطرس فى الحال بهذا السؤال: «يا رب، كم مرة يخطئ إلىّ أخى وأنا أغفر له؟» ثم تقدم مقترحاً بأن سبع مرات كافية، وهذا أكثر ما يمكن أن يُطَلَب منه. أما الرب، فعصف بذلك الاقتراح الذى قُدِّمَ بدون تبصّر ولا رويّة، والذى كان يستند إلى فكرة يهودية قديمة، ولكن هذه الفكرة كان مقضياً عليها بأن تكتسحها تلك المحبة التى سيسكبها المسيح على العالم، لأن الجلجثة ويوم الخمسين فتحا أبواب الرحمة التى لا تُحَدِّد... «قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات». بعد ذلك، بيّن المسيح فى المثل التالى (مثل العبد غير الصفوح)، الفارق العظيم بين الخطية ضد الإنسان من رفيقه، وبين الخطايا التى لا حصر لها ضد الله. ثم بيّن رحمة المسيح المتناهية التى تتسامح فى الديون ولو وصلت إلى عشرة آلاف وزنة؛ ولو أن المسيح لم يشر بكلمة إلى دمه المطهر الذى كان سوف ينبعث من قلبه فداءً للبشرية الساقطة.

عرف الرب، وهذا ما لم يخطر على فكر بطرس قط، أنه سوف تأتى ساعة، وهى آتية قريباً، فيها يجد بطرس نفسه قد ارتكب خطية تقدر بعشرة آلاف وزنة بالنسبة

لأشَرَّ إساءة وصلته من أى رفيق له، مما لا يُقدَّر بأكثر من «مائة دينار». وفى تلك الساعة، لا يسعه إلا أن يتعلق بالرجاء الذى ينبعث من نور هذا المثل، كما يتعلق الغريق بالحبل الذى يُلْقَى إليه لإنقاذه.

لنتخيّل بطرس الآن، وهو يركض فى الشوارع فى فجر الجمعة، مسرعا إلى جثسيمانى، حيث كان يغط فى النوم منذ ثلاث أو أربع ساعات، بينما كان سيده فى جهاده العنيف. لنتخيله وهو يتأمل بحزن فى تلك الكلمات التى أنكر بها السيد. كيف ساغ له أن ينطق بتلك الكلمات؟ كيف سقط حيث نذر أن يقف ثابتا وقويا؟ كيف نطق بتلك الأقسام واللعنات التى لم تتجس بها شفتاه منذ سنوات طويلة؟ ترى، هل سمع المعلم كل كلمة؟ ويا لهول تأثير تلك النظرة التى نظر بها إليه! ماذا يستطيع أن يقول؟ وإلى أين يذهب؟ أين تحرر؟ لقد كادت تأوهات الأسف تخمد أنفاسه. وبعدئذ، استعادت ذاكرته تلك الكلمات: «لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات». أينتظر الرب منى أن أغفر إلى هذا الحد، ولا يفعل هو كذلك؟ ألم يصرّح بأن سيد ذلك العبد رقّ قلبه، وأطلق سراح المدين المسكين، وعفا عن ذلك الدين العظيم، الذى قُدِّر بعشرة آلاف وزنة؟ لا شك فى أنه قد قصدنى أنا بالذات. وبعد ذلك بسنوات طويلة، دوّن لنا هذه الكلمات: «كونوا جميعا ذوى محبة أخوية. مشفقين، لطفاء، غير مجازين عن شر بشر، بل على العكس، مباركين... الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة... المحبة تستر كثرة من الخطايا» (١ بط ٢: ٢٤، ٣: ٨ و ٩، ٤: ٨).

﴿٣﴾ المطالبة بالأجر

عندما عجز ذلك الشاب المسكين عن دفع الثمن الذى تتطلبه التلمذة للمسيح، ثم مضى بحزن، ورأى بطرس علامات الأسف بادية على وجه المسيح، [١] تقدم إليه فوراً بهذا السؤال: ها نحن قد تركنا كل شئ وتبعناك، فماذا يكون لنا؟ (مت ١٩: ٢٧). واضح هنا أن الأمل فى المكافأة والجزاء كان ماثلا أمام عينيه. لا شك فى أن الرب

﴿١﴾ مت ١٩: ١٦ - ٢٢ ﴿مكتبة المحبة﴾

سوف يعوّض أولاده أضعاف تضحياتهم، الأمر الذى طالما أشار إليه. ولكن مثل هذه المساومة التى بدت من بطرس، غير جائزة قط فى ملكوت السموات، ولهذا، نطق السيد بمثل الفعلة فى الكرم (مت ٢٠: ١ - ١٦)، ليعلم التلاميذ، بكيفية لا تُنسى قط، إنه فى خدمة الله، يجب أن تحل روح الثقة فى نعمته محل روح المساومة.

لقد ظل الفعلة فى السوق منذ الفجر، ولم تكن بطالتهم تعزى إلى خطئهم «لم يستأجرنا أحد». ولم تأت فرصتهم للعمل إلا قبيل الغروب. ولكن عندما حلت فرصة دفع الأجور، أخذوا أجر يوم كامل عن تلك الساعة الواحدة التى عملوا فيها. فاعتبر أجرهم لا على سبيل الدين، بل على سبيل النعمة. عاد هؤلاء الرجال إلى بيوتهم وقلوبهم تفيض فرحا. لقد كانت نساؤهم تراقبهم واقفين فى السوق طول النهار بلا عمل، فكان الحزن يشتد بهن. ولكن، لشد ما كانت دهشتهن عندما أُعطىَ لهن أجر يوم كامل. نعم، ألم يبلغ إليهن ما قاله صاحب الكرم لأحد المتذمرين: «أم عينك شريرة لأنى أنا صالح؟» يقينا أن هذا قول حق، فإن صاحب الكرم صالح. [١]

وكأنى بالسيد يقول لبطرس ردا على سؤاله: صحيح إنك قد أتيت مبكرا إلى الكرم، لقد كنت ضمن الأوائل، وصحيح أيضا أنك احتملت ثقل النهار وحره، وسوف تتحمل من الآلام والتضحيات أكثر مما احتملت، ولكن عندما تتمم مأموريتك، فإنك تكون قد قمت بالواجب عليك، وسوف يكون أجرك متوقفا على غنى نعمة الله.

ولعل هذه الكلمات أيضا قد أدخلت إلى قلب ذلك الرسول الكسير بعض الراحة والتعزية فى الأيام التالية، إذا ناجى نفسه قائلا: صحيح أننى كنت من أوائل الذين لبوا دعوة المسيح، ولكننى قد خسرت كل حق فى طلب الأجر، حتى ولو كنت يوما ما أدعى هذا الاستحقاق فى الماضى. إننى لا أستحق أن أدعى رسولا، إننى أتخذ مركزى بجانب المرأة التى كانت خاطئة، وبجانب زكا العشار. ولكن السيد صرّح بأن الأجر لا يحدّد بمقدار الخدمة، بل بمقتضى النعمة. ليس لمن يريد ولا لمن يعمل، بل لله الذى يرحم. اللهم ارحمنى أنا الخاطئ، واسمح أن تُظهرَ فىّ أنا أولا كل أناة.

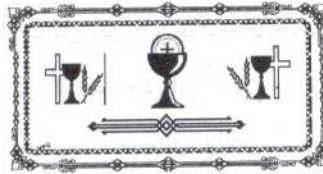
﴿١﴾ مت ٢٠: ١ - ١٦ ﴿مكتبة المحبة﴾

﴿٤﴾ الإيمان

وإذ كانوا سائرين فى صباح أحد الأيام، أبصروا تينة جافة، كان المسيح قد لعنها فى اليوم السالف، ودعا عليها بالجفاف، تحذيرا للتلاميذ ولإسرائيل «فتذكر بطرس، وقال له: يا سيدى انظر، التينة التى لعنتها قد يبست.» أما يسوع، فأجابهم قائلاً: «ليكن لكم إيمان بالله» (مر ١١: ٢٠ - ٢٢)، أى تمسكوا بإيمان الله، أو ثقوا فى أمانة الله.

إننا يجب أن نضع أهمية عظمتى على الإيمان. ولكن، هنالك أياما فى الحياة البشرية يبدو فيها إيماننا كأنه قرب على الزوال، فنصرخ قائلين: «أؤمن يا سيد، فأعني عدم إيماني»، لأن عدم إيماني أكثر من إيماني (مر ٩: ٢٤). إن إيماننا مثل حبة الخردل، وهى أصغر البقول، أما صعوباتنا فإنها تعترض طريقنا كالجبال الراسخة؛ بل المخلص نفسه طلب من أجل بطرس لكى لا يفنى إيمانه. إذن، فإننا نجد عزاء لا يُحدّ إذ نحول أفكارنا من إيماننا إلى أمانة الله، ونتمسك بها، ونتكل عليها، ونصرخ: «إن كنا غير أمناء» [١]، فهو يبقى أميناً، لن يقدر أن ينكر نفسه» (٢: ١٣).

فى تلك العاصفة الهوجاء، التى هبت على نفس بطرس فى تلك الليلة المخيفة، لا شك فى أنه قد وجد تعزية لا تقدر فى هذه الكلمات: «تمسك بإيمان الله، اتكل على أمانة الله، ثق بأنه بقى أميناً ولا يمكن أن ينسى.» لقد ضعف إيمانه، أما أمانة الله، فهى ثابتة كالجبال الراسخة.



﴿١﴾ «إن لم تؤمن»، حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية.



﴿ مساء تجربة الإنكار ﴾

﴿ مت ٢٦ : ١٧ - ٢٠ ؛ مر ١٤ : ١٢ - ١٧ ؛ لو ٢٢ : ٧ - ١٦ ؛ يو ١٣ : ١ - ٢٠ ﴾

❖ « لا ينقصني الأصدقاء المحنون المحبون »

الذين يحيطونني بمحبتهم، التي هي قوية

كالموت، أرق من النسيم، أثمن من الذهب

الإبريز... ماذا أرد لك يا رب من أجل هذه

النعم التي أغدقتها عليّ؟

﴿ هوبتير ﴾



اكتظ جبل الزيتون أيام الفصح بعدد عظيم جدا من

العائلات التي وفدت إلى اورشليم من كل أطراف المملكة، بل من ممالك

متعددة. وإذ لم تجد لها مكانا في المدينة المزدحمة، أعدت لإقامتها

مظال أو خياما، ربطت بجوارها مواشيهم، وازدحمت خادمااتهم حول

الآبار ليستقين ماء، وراح الأطفال يمرحون ويلعبون تحت ظلال أشجار

الزيتون العتيقة، أو يزورون المدينة المقدسة مع آبائهم بفرح وبهجة.

ويلد لنا أن نعرف أن المخلّص كان ضيفا مكرما في ذلك البيت

المحبوب الذي في بيت عنيا، بيت لعازر ومريم وميرثا، الذين كانوا

يفتبطون بإضافته. ولكن المرجح جدا أنه بعد العشاء في بيت سمعان،



مساءً يوم وصوله، لم يعد إلى بيت عنيا، لئلا يعرّض تلاميذه للخطر الذى كان يدبّره له الأعداء. فقد كان رؤساء الكهنة يتآمرون على قتل لعازر، لأن الكثيرين من اليهود آمنوا بالمسيح بسببه. ثم إنه من الناحية الأخرى، لو كان المسيح قد قضى تلك الليلة فى بيت لعازر، لمّا كانت مرثا، الكريمة فى بيتها، قد سمحت له بترك المنزل فى الصباح الباكر، دون أن تقدم له طعام الإفطار.

وفى نفس الوقت، كان الفصح قد اقترب، بما يتبعه من خيانة يهوذا وإنكار بطرس، وتَرَكَ الجميع له. ولنقصر تأملنا الآن على نصيب بطرس فى حوادث تلك الليلة الأخيرة فى حياة المسيح على الأرض. لقد علم يسوع «أن ساعته لينتقل من هذا العالم إلى الآب» قد حانت. وعلم أيضا «أنه من عند الله خرج وإلى الله يمضى، وأن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه»... كانت تمتزج بهذه المعرفة محبة فياضة «إذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم، أحبهم إلى المنتهى»، لا إلى منتهى الدهور فحسب، بل أيضا إلى أقصى درجات المحبة... وهكذا رأينا المحبة فى أعماقها يبرز إلينا قبس من نورها فى هذه الكلمات.

إذن، فقد كان يبالى يقينا «بخاسته»، وخاصةً ببطرس، أكثر مما كان يبالى بنفسه. ولنتأمل فى الضمانات التالية:

﴿١﴾ أنه أمدّه بصديق وفى

كان المسيح يعرف عمليا قيمة الصداقة. ولقد أفاض لنا اللثام عن العلاقة الوثيقة التى ارتبط بها مع التلميذ الذى أحبه، والذى نقل إلينا - أكثر من سواء - أسرار تلك المحبة. لذلك، فإنه كان يدرك أنه إذا ما توفر لبطرس صديق ألزق من الأخ، كان هذا له قيمة عظيمة جدا فى محنته القادمة، التى قد تؤدى به إلى اليأس الكامل.

كان يسوع يثق فى يوحنا ثقة مطلقة، والدليل البارز على هذه الثقة يتبيّن عند الصليب حين اتّمنه على أمه. هكذا عرف مقدار ما يستطيع يوحنا أن يسديه من معونة لبطرس فى ساعة محنته الحالكة الظلام. ولذلك دفعهما معا فى آخر إرسالية له، فإن

الكتاب يذكر لنا صراحة أنه «أرسل بطرس ويوحنا، قائلا: اذهبوا وأعدوا لنا الفصح لنأكل» (لو ٢٢: ٨)؛ وهكذا وضع ختمه على صداقتهما القديمة.

لقد نشأ بطرس ويوحنا معا منذ الطفولة، جلسا جنبا إلى جنب في مدرسة المعلم اليهودي، اشتركا معا في مباحج الطفولة بكل مظاهرها، كما اشتركا في صيد السمك بما فيه من لذة ومن أخطار. كذلك اشتركا في حمل نير الاحتلال الروماني، وترامت إليهما الأخبار عن الجهود التي بُذلت أخيرا للثورة ضد ذلك الاحتلال، وكانا ينتظران معا فداء إسرائيل. واشتركا أيضا في ترك بيوتهما وشباكهما، أولا لاتباع المعمدان، ثم لاتباع المسيح. ولعلهما ارتبطت نفساهما معا بدافع داخلي، على أساس أن ما نقص في الواحد يكمله الآخر. والأرجح جدا أن كلا منهما اختار الآخر، عندما أرسل المسيح الاثني عشر اثنين اثنين.

لقد كان يعقوب، أخو يوحنا، ثالثا لهما عند معجزة صيد السمك، وعند إقامة ابنة يائرس من الموت. واشترك الثلاثة أيضا في مناظر جبل التجلي، وفي الإصغاء إلى حديث المسيح الذي كشف فيه النقاب عن علامات مجيئه وانقضاء الدهر.

كان المسيح يراقب بابتهاج ارتباط هاتين النفسين معا، وكان يعلم أنه إذا ما غادرهما وانطلق إلى السماء، أحدث هذا تأثيرا شديدا جدا في نفسيهما، وفي قضيتيه أيضا، لذلك عنى بأن يزيد هذه الرابطة وثقا.

وقد حققت النتيجة ما قصد إليه السيد، وما رآه بسابق علمه. فإنه، حينما اشتدت العاصفة، رجع بطرس إلى يوحنا. ومريم المجدلية رأتهما معا في صباح القيامة. وكانا كلاهما معا حين ركضا إلى القبر. صحيح أن محبة يوحنا لصديقه كانت قوية جدا، ولكن هذا لم يمنعه من أن يسبقه في الركض، لأن قلبه كان يلتهب بمحبة أقوى، هي محبته للمسيح. على أنه بعد ذلك بقليل، عوّض عن هذا، إذ رفض أن يحتفظ لنفسه بالسر الذي أدركه حينما تطلع بعينيه الثاقبتين في الصباح الباكر، وتحقق - دون غيره - أن الرب هو الواقف على الشاطئ، وبمحبة أخوية نقل الخبر إلى بطرس،

وهمس فى أذنه، قائلاً له: «هو الرب». ولشد ما كان سرور يوحنا حينما رأى أن زميله قد اندفع بفرح إلى البحر، وأسرع إلى الشاطئ ليختلى بالسيد برهة وجيزة، ويسمع من شفّيته الطاهرتين تأكيداً آخر بالمغفرة (يو ٢١).

وكانا على اتصال دائم فى الأيام التالية، فقد ذهبا معا إلى الهيكل فى ساعة الصلاة التاسعة. وإذ تحدث بطرس إلى الأعرج، قائلاً له: «انظر إلينا»، كان يتحدث بلسانه ولسان صديقه. وعند إلقاء القبض عليهما بمعرفة السنهدريم، وقفا جنباً إلى جنب، ثم قضيا معا ليلة خالدة فى السجن. ولما أطلقا، أتيا معا إلى رفقاءهما، واشتركا معا فى إدارة الكنيسة الفتية. وقد سمحت العناية بأن يفترق الواحد عن الآخر فيما بعد، إذ ذهب يوحنا إلى أفسس وبطرس إلى بابل، ولكن المحبة القديمة ظلت فى حرارتها.

ليس جيداً أن يكون الإنسان وحده، خصوصاً فى الساعات التى يذكر فيها خطاياهم، ويثور الضمير فى داخله. وإذ يسبق الرب فىرى هذه الظروف، يسبق فيجهز - قبل حلولها - يوناثان لداود، ويوحنا لبطرس، وتيموثاوس لبولس.

﴿٢﴾ وأكد له بأنه قد تطهر تطهيراً كاملاً

«الذى قد اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه، بل هو طاهر كله» (يو ١٣: ١٠). لعل يهوذا قد تأمر ليلقى القبض على الجماعة كلها وقت تناول الفصح، ولكن هذه المؤامرة كُشِفَتْ أسرارها، وأُحْبِطَتْ بما دبره المسيح من قبل مع أحد التلاميذ سرا من أن مكان تناول الفصح يجب ألا يعلمه التلاميذ إلا عند وصولهم المدينة. لذلك، اضطر الخائن لتأجيل المشهد الأخير إلى الليل، واثقاً من أن المعلم سوف يقضى تلك الليلة فى جثسيمانى كعادته... «وكان يهوذا مسلمه يعرف الموضع لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه» (يو ١٨: ٢). ولكن فى نفس الوقت، كانت هنالك فرصة آمنة، نحو ساعة، تُقْضَى فى صحبة ممتعة يودع بعدها التلاميذ معلّمهم الوداع النهائى، خصوصاً بعد أن فارقه يهوذا.

شهوة اشتهى المخلص أن يأكل العشاء مع جماعته المختارة قبل الآلام. كان فى ذلك راحة لأحشائه، ونعمة وقوة وعزاء للتلاميذ. لهذا، أصدر تعليمته للتلميذين العزيزين، واثقا من أنهما سوف ينفذانهما على أكمل وجه، لعمل الاستعدادات اللازمة. وإذ وصل بهما التأثير لدرجة بالغة جدا بسبب دقة الموقف، أعدا خروف الفصح، قدماه إلى الكاهن لذبحه، اشتريا الأعشاب المرة، هيينا فطير الفصح والخمر، وأسرعنا إلى المنزل لإعداد وليمة الفصح المتواضعة. اشتريا كل هذا على قدر ما سمحت به الظروف المالية، لأن يهوذا كان يحمل الصندوق، وأخذ لنفسه معظم ما كان فيه.

ثم إن المدينة كانت أيضا مزدحمة جدا، حتى لم يستطع أحد أن ينتبه إلى المعلم وجماعته لدى عبورهم من باب قدرون، وسيرهم فى الطرقات حتى مكان الاجتماع... وظلمة المساء بدأت تنشر ألويتها، والنجوم المبكرة بدأت تظهر... لقد كانت روح المنافسة والغيرة والحسد لا زالت تضطرم فى قلوب الجميع، حتى ظهر لهابها دفعة واحدة حالما وصلوا العليّة التى كان بطرس ويوحنا مُجدّين فى إعدادها بعد الظهر مدة بضع ساعات. كانت الطرقات التى ساروا فيها كثيرة الأتربة، ولهذا فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر وصولهم المنزل لغسل أرجلهم حال دخولهم، كما هى العادة فى كل بيوت اليهود. وعند وصولهم إلى المنزل، وجدوا به الإبريق والطست والمنشفة، ولكنهم لم يجدوا خادما بسبب كثرة العمل فى ذلك الموسم الصاخب. ألا يتقدّم أحد الرسل للقيام بهذه الخدمة للباقيين، وخاصة للرب؟ واضح أنه لم يتطوع لها أحد، لأنهم كانوا يعتقدون أن القيام بخدمة حقيرة كهذه، معناه التوقيع على صك التنازل عن عرش العظمة الذى كان الجميع يطالبون به. ثم إنه كانت هنالك مسألة أخرى حريّة بالاعتبار، هى أنهم كانوا يتنافسون فى مواضع الجلوس إلى المائدة. وحتى إذا تنازلوا عن المقعد الذى على يمين الرب ليوحنا، فمن الذى يجلس على اليسار؟ ولكن يهوذا أصر على أن تكون له الأولوية باعتباره أمينا للصندوق... وامتلا الجو دخانا قاتما، وكادت البهجة والسلام وبركة الفصح يُقضّى عليها. ولكى يقضى الرب على أى نوع آخر، «قام عن العشاء، وخلع ثيابه (الخارجية)، وأخذ منشفة وأتزرّ بها (كما يفعل خادم البيت). ثم صب ماء فى مغسل، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ، ويمسحها بالمنشفة.»

وفجأة، سادت الجميع رهبة شديدة، وصمت طويل، حينما كان ينتقل من الواحد للآخر، حتى وصل إلى بطرس الذى كان يرقب هذه العملية بخجل وغضب، فصرخ قائلاً: «أنت تغسل رجلى؟ لن تغسل رجلى، لن تغسل رجلى أبداً». لم يخطر بباله أن تلك اليد الطاهرة سوف تجرى له غسلاً آخر أشد تأثيراً، وإلا فليس له معه نصيب فى عالم الفداء «إن كنت لا أغسلك، فليس لك معنى نصيب». وللحال، أدرك بطرس ما يقصد إليه السيد، أدرك أن الغسل الظاهرى رمز للداخلى، والجسدى رمز للروحى، فأجاب على الفور: «يا سيد، ليس رجلى فقط، بل يديّ ورأسى».

وكأنه طلب أن تبدأ حياته بداية جديدة منذ اللحظة، وأن يغمر شخصه بجملته - من جديد - فى ذلك الينبوع الصافى الذى يطهر من كل خطيئة ونجاسة... «حقيق لى هذا الرجاء يا سيدى، ليكن الاعتسال هذه المرة أكيدا ومضمونا، دعنى أبدأ الآن حياة جديدة، وعهدا جديدا، كما بدأت معك فى السفينة».

أما يسوع، فأجاب على الفور: «كلا، فإن هذا ليس ضروريا، فإن الذى قد اغتسل حديثا لا يحتاج إلى غسل كامل إن كانت الأيدي أو الأرجل فقط هى التى قد تلوّث. يكفى غسل العضو الملوّث، أما الجسم فهو "طاهر كله". إذا ما سقط تلميذى فى الخطية، فلا حاجة أن يبدأ حياته الروحية من جديد، بل يكفى أن يعترف بالخطية المعينة التى ارتكبها، ويتوب عنها. حالما يتم هذا الاعتراف، ويطلب التلميذ ذلك الاغتسال، فإننى أمين وعادل حتى أغفر الخطية، وأطهر من كل إثم».

إذن، فقد كان فى هذه العملية المتواضعة - غسل الأرجل - التى قام بها الرب، إشارة مزدوجة. فيها علّمنا سمو الخدمة، كما علّمنا أيضا أن الخطية لا تفصل النفس المتجددة عن الله. إذا أخذنا فى زلة، فلا يطلب منا أن ندخل من الباب الخارجى، بل أن نعود إلى الطريق الضيق. فالتلميذ لا يزال تلميذا، والابن لا يزال ابنا، وكل ما هو مطلوب هو الاعتراف بالخطية، وللحال يضم الابن إلى الأحضان الأبوية... «إن انسبق إنسان فأخذ فى زلة ما، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظرا إلى نفسك لئلا تجرّب أنت أيضا» (غل ٦: ١).

لابد أن يكون بطرس قد وجد فى هذا الحادث تعزية عظمية، إذ جلس فيما بعد تحت ظل خطيته العظمى. إنه لم يُطرح خارجا، لم يخسر نصيبه فى سفر الحياة، أو فى المدينة المقدسة... لم تكن هنالك حاجة أن يبدأ من بداية الحياة... كان المطلوب أن يغسل الرب قدميه الملوثتين، ومن ثم يصير «طاهرا كله». لقد تعطل عمل الله فى قلبه عن النمو، ولكنه لم يكن قد تلاشى. لم يكن فى حاجة أن يدخل مرة أخرى من الباب الخارجى ليولد ولادة ثانية، بل كان عليه أن يرجع ثانية، وأن يتعلم من سقطته كيف يثبت إخوته... كان هنالك بون شاسع بين ارتداد يهوذا وعشرة بطرس.

يا لها من تعزيات فياضة، وجدها أولئك الذين قد تلوّث أقدامهم من أوساخ طريق هذا العالم فى هذه الخدمة المتواضعة التى أجراها المخلص. لقد كان يعلم «أنه من عند الله خرج، وإلى الله يمضى»، وأنه هو الله. ولكنه كان يعلم أيضا أن غسل أرجل هؤلاء القوم البسطاء لا يتعارض مع العرش الذى كان ذاهبا إليه... والآن، وهو الخروف المذبوح الجالس على العرش، فإنه لا يصغى إلى تسبحات الأبدية بقدر ما ينصت إلى تأوهات أولاده وصلواتهم الحارة عند زلاتهم.



الفصل الثالث عشر

﴿ لا تضرب قلوبكم ﴾

﴿ مت ٢٦: ٢١-٢٥ ، ٣١-٣٥ ؛ لو ٢٢-٢١-٢٣ ؛ يو ١٣: ٢١-٣٨ ، ١٤: ٢١ و ٢٦ ﴾

﴿ «استيقظ أيها القلب، فإن المحبة التي تغمر

الجميع تقديّم إليك ملجأً وحصناً أقوى من

مفارقة حبيب.

﴿ «الله في داخلك... فهل تستطيع قوات العدو

أن تزعجك؟

﴿ «قد تؤذي المحبة حيناً، ولكنها لا بد أن تنتصر

أخيراً.»

﴿ مكدونالد ﴾

عند ظهور النجوم الثلاثة الأولى في كبد السماء، دوى

الصوت من البوق الفضى في الهيكل، مؤذناً ببداية أكل الفصح في كل

أطراف المدينة. وُضِعَ على المائدة الخبز والخمر والماء والأعشاب المرة،

وعلى مائدة أخرى جانبية وُضِعَ الخروف المشوى. وقد تدلّلت المصابيح

متألّئة في الغرفة. وصُفَّ حول المائدة ثلاثة عشر مقعداً. ودل كل شيء

على مقدار ما بذله التلميذان من جهود موفقة في إعداد كل شيء على

أكمل وجه. مضت مئات السنين على تلك الأنظمة المتبعة في تناول

الفصح من إنشاد مزامير معيّنة وتسبحات خاصة، وتلاوة بركات

وتفسيرات محددة. على أن الرسل كانوا يشعرون بأن نفس المعلم مثقلة للسبب الذى ذكره لهم توا «الحق أقول لكم إن واحدا منكم يسلمنى»، ومرة أخرى قال: «هو ذا يد الذى يسلمنى معى على المائدة»، ثم صرّح لهم الثالثة: «الذى يغمس يده معى فى الصفحة هو يسلمنى... كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد».

وبدأ كل تلميذ - عدا يهوذا - يشك فى نفسه أكثر من غيره، وصار كل منهم يتساءل متشككا: «هل أنا هو؟» أما بطرس، وقد تعبت نفسه من هذا الغموض، وربما لرغبته فى التأكد من أنه ليس هو المقصود بالذات على الأقل، فإنه أشار إشارة خفية ليوحنا ليتأكد من الرب عمن يشير إليه.

وإذ اضطجع يوحنا على صدر المخلص، سأل الرب عمن يقصد بمسّلمه. لم يشأ ذكر اسمه، وأجاب بصوت خافت إجابة لم يفهمها على الأرجح سوى بطرس ويوحنا ويهوذا: «هو ذاك الذى أغمس اللقمة وأعطيه». وعندئذ، وضع قليلا من الأعشاب المرة بين شريحتي لقمة خبز، وغمس اللقمة فى وعاء خاص به مزيج من الفاكهة، وأعطاهما ليهوذا. حينئذ أدرك يهوذا أن المعلم عرف كل شىء، ولكنه تساءل بوقاحة: «هل أنا هو يا سيدى؟» فأجابه المعلم بصوت خافت جدا: «أنت قلت». ثم قال له بصوت أعلى، سمعه الكل: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة».

لم يستطع يهوذا أن يحتل نور حضرة المسيح. ولعله بدأ يشعر بوخزات الضمير القاسية. ثم خرج مسرعا، لا يعلم بحقيقة أمره سوى بطرس ويوحنا، لأنه لم يسمع أحد هاتين الكلمتين، اللتين فضح بهما المسيح نيته السيئة، سواهما، وحتى بطرس ويوحنا لم يخيل إليهما بأن يهوذا سيتسفل إلى هذا الحد، ولم يدر بخلدهما أن الثلاثين من الفضة، ثمن الدم، كانت فى جيبه؛ فإنه كان قد أحكم المؤامرة لدرجة أن الباقيين «ظنوا أن يسوع قال له: اشتر ما نحتاج إليه (شيئا إضافيا) للعيد، أو أن يعطى شيئا للفقراء».

وما إن خرج، حتى تنفس المسيح الصعداء. إنه لن يستطيع أحد أن يدرك مقدار ما كان يشعر به المسيح من آلام نفسية فى تلك الشهور الأخيرة، بسبب وجود يهوذا بين خاصته، إلا الذى يستطيع أن يقول مع المرنم: «وَيْلى لغربتى فى ماشك لسكنى فى خيام

قيدار. طال على نفسى سكتها مع مبغض السلام» (مز ١٢٠: ٥ و ٦) ... «فلما خرج، قال يسوع....» خرجت من بين شفتى المسيح كلمات ذهبية رائعة لتحذير وتعزية خاصته، ثم لتحذير وتعزية الكنيسة العامة.

ولنتأمل بصفة خاصة فى الكلمات التى وجهها لبطرس:

﴿١﴾ «لا تضطرب قلوبكم»، «ولكنى طلبت من أجلك»

فى السنوات التالية، شبّه بطرس المجربّ بأسد يزأر حول الحظيرة، محاولاً أن يجد منفذاً بلا حارس، أو شاة ضالة. ولا بد أنه قد تذكر، وهو يكتب تلك الكلمات [١]، تحذير المسيح للجميع بصفة عامة، وله بصفة خاصة: «سمعان سمعان، هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة، ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك» (لو ٢٢: ٣١ و ٣٢).

لا خوف على الحنطة إذا ما رفعها الدارس إلى أعلى ليعرضها إلى مهب الريح بعد تمام درسها، أما التبن فإنه ينفصل عنها. هذه هى الطريقة للتخلص من التبن، كما تتخلص الكنيسة من غير المخلصين. عندما تعصف الاضطهادات على الكنيسة بسبب «الكلمة»، ويساء إلى الكثيرين... عندما يكثر الإثم وتبرد محبة الكثيرين... عندما يشتد الاحتجاج مثل ذاك الذى أثاره أثاناسيوس من أجل حق الإنجيل، فليس هنالك ما يدعو للأسف. لقد كان خيراً للكنيسة أن تتخلص من آريوس فى القرن الرابع، ومن يهوذا فى القرن الأول.

يبدو لى، على الأرجح جداً، أن الكنيسة سوف تجتاز حركة تطهير قوية جداً فى هذه الأيام، لم تشهد مثلاً من قبل، وأن العاصفة سوف تهب على الغابات فتستأصل كل الأغصان غير الثابتة تماماً فى أصولها... سوف تشتعل النيران، فلا يبقى إلا الذهب والفضة والحجارة الكريمة؛ وكما قال المعمدان: «رفشه فى يده، وسينقى بيده». ولكن، لا تخش على القمح.

﴿١﴾ «لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول متمسكاً من بيتلعه» (١ بط ٥: ٨).

والواقع إنه لم يُفقد من الرسل أحد سوى يهوذا، فقد ثبت أنهم كانوا حنطة. ورغما عن أنهم تركوا السيد أولا، إلا أنهم اجتمعوا جميعا فى العلية مساء يوم القيامة، مع أن الأبواب كانت مغلقة لسبب الخوف من اليهود. وجميعهم كانوا ملتفين حول السيد على جبل الصعود؛ ويقال إنهم جميعا - عدا يوحنا - ذهبوا إلى السماء فى مركبة الاستشهاد النارية، وقد نُقشَ اسم كل منهم على أساسات المدينة المقدسة، عروس الخروف.

وفى نفس الوقت، فإن عبارة السيد مليئة بالتعزية، فإن الشيطان يجب أن «يطلب» الإذن قبل أن يغربل، وهنالك حد يجب ألا يتعداه. يقول الرسول: «إن الله أمين الذى لا يدعمكم تجربون فوق ما تستطيعون.» قبل أن يمس العدو ثروة أيوب أو جسده، يجب أن يطلب وينال الإذن، وفى كلتا الحالتين فُرضت عليه حدود لا يتعدها. وكأن المخلص رأى صورة طبق الأصل من رؤيا زكريا عن حالة الكهنوت المروعة، التى وقف الشيطان قبالتها لمقاومتها، فتدخل المخلص - كشفيع وصديق البشرية - ليوقف هذه المقاومة «فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذى اختار أورشليم، أفليس هذا شعلة منتشلة من النار؟» (زك ٣: ٢).

ومما يزيد فى الصعوبات التى ينبغى أن نلتقى بها فى جهادنا على الأرض، أن تلك الأرواح الشريرة تحمل لنا بغضة قاتلة... والحرب مع أبلون فى وادى ظل الموت، إن كان مخيفا جدا، إلا إنه لازم... والأرواح الشريرة النجسة، التى لا حصر لها، منبثة فى طريقنا، وتترصد لنا، تنتظر الفرصة المناسبة لإيقاعنا فى الخطية؛ إنها تبغضنا، لأن الشر يبغض الخير بلا جدال، ولأنها تعرف أن فى إسقاطنا حزنا لرئيس خلاصنا. ولكن، لنعلم بأن الذى معنا أعظم من كل الذين علينا، ولا يسمح بأن نجرب فوق طاقتنا، ويطلب لكى لا يفنى إيماننا. ألم يكن خيرا لنا إننا جُربنا؟ إن التجربة تعلن لنا ضعفنا، وتدفعنا إلى التوبة والإيمان، وتعلن لنا وجوه معونته المخلصة التى لم نكن نعرفها بدونها، نحن لا يمكن أن نُعفى من التجربة. ثم إن مهاجمة الشرير لنا ليست خطية فى حد ذاتها، فالرب نفسه جُرب، وكل ما علينا هو أننا يجب أن نحذر من طبيعتنا الشريرة التى يلجأ إليها المجرب، والتى تميل إلى تحقيق رغباته وتلبية نداءاته. ولكننا نستطيع أن

نقاوم، راسخين فى الإيمان، ونستطيع أن نعتبر بأننا فى المسيح أموات عن سيادة وعن رغبات إله هذا العالم؛ نستطيع أن نلجأ إلى نعمة المسيح، فننتصر فى ساعة التجربة، ويعظم انتصارنا بالذى أحبنا، ونحمل الغنائم فى كل موقعة، ونحس بمعونة المخلص فى كل حروبنا «شكرا لله الذى يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح» (١ كو ١٥ : ٥٧).

﴿٢﴾ «لا تضطرب قلوبكم»، «أنا أمضى لأعد لكم مكانا»

إن الطريقة الحالية التى اتبعت فى تقسيم الإصحاحات قد قللت من روعة وجمال الكلمات الرائعة التى يفتتح بها (يو ١٤). نحن نحب هذه الكلمات، نحفظها، نردها بجوار أمواتنا، ندونها على مقابرنا... ولكننا كثيرا ما نهمل التأمل فيها على ضوء الكلمات الواردة فى نهاية الإصحاح السابق، وهى: «قال له بطرس: يا سيد، لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟ إنى أضع نفسى عنك. أجابه يسوع: أتضع نفسك عنى؟ الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرنى ثلاث مرات.» بعد ذلك قال (فى بداية الإصحاح ١٤): «لا تضطرب قلوبكم... فى بيت أبى منازل كثيرة... أنا أمضى لأعد لكم مكانا..»

فى مثل الابنين، أراد المسيح أن يصور لنا فكرة عن بيت الآب... فشبابيكة الرئيسية تطل على الأرض... هو المكان الذى فيه يستقبل أولئك الذين تحطمت حياتهم لإصلاحهم وتجديدهم. هنالك توجد المحبة غير متخفية، وهنالك يرحب بالابن الضال، فتعزف الموسيقى الأبدية، وتصبح الأفراح لا حد لها. أما الذين يعيشون فيه، فإنهم يشاهدون الله وجها لوجه إلى الأبد، وكل ما له فهو لهم. غير أنه لا يوجد ابن أكبر يقف خارجا، وحتى الخدم الوضيعون يفرحون بالأبناء والبنات، إذ يعودون إلى بيوتهم واحدا فواحد.

ثم إن فيه «منازل كثيرة». وهذه لا تتضمن أنه فسيح فقط، بل إن فيه مكانا لكل صنف من الأخلاق، ولكل فرد، لينمو كل واحد حسب ظروفه الخاصة. عندما كان الرسل يتبعون المسيح، كان ابنا الرعد (يعقوب ويوحنا) يغطيان عليهم؛ كان هنالك خوف دائم - من ناحيتهم - من أن لا يجدوا مكانا بعد أن يحتل هذان التلميذان كل المكان، وهم يرون أن الأمل ضعيف فى إمكان بلوغ حد الكمال.

أما هناك، فإن كل واحد من المفدين يستطيع أن يصل إلى درجة الكمال في النمو. هذه الحقيقة يعلنها لنا الكتاب صراحة في تشبيه الرسل باثني عشر حجر كريم (رؤ ٢١) يتميز كل واحد عن البقية، ويكون كل منها جزءاً رئيسياً من أساسات أورشليم الجديدة. وكما أن البستانى ينقل الزهور المكتظة من أماكنها، هكذا يُنقل القديسون، فيكون لكل واحد محبة كافية، فرح كامل، فرصة كاملة، مع نصيبه في ملء المسيح وخدمته. فبطرس سوف يظل بطرس، ويوحنا يظل يوحنا، وكل نجم يمتاز عن بقية النجوم... سوف تكون هنالك «منازل كثيرة»، فلا تبقى هنالك حاجة للمزاحمة أو للمنازعة على الأمكنة.

على أن هذه المنازل تحتاج إلى إعداد، كما أرسل بطرس ويوحنا لإعداد مكان لمجيء السيد مع بقية التلاميذ. وقد استعملت نفس الكلمة في كلا الموضعين «أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح؟»... «أنا أمضى لأعد لكم مكاناً.» انتهى الرب أن يأكل ذلك الفصح، ولكنه يشتهي أكثر جداً إلى أكله هنالك (مر ١٤: ٢٥). وفي نفس الوقت، هو مشغول دوماً في إعداد الأمكنة، كما كان بطرس ويوحنا مشغولين مساء ذلك اليوم كله، وكما كان كل تفكيرهما محصوراً فيه، كذلك هو يفكر فينا دوماً. لا يستطيع ملاك أن يفعل لنا ما يفعله هو، لأنه عاش بيننا في بيوتنا، ويعلم تماماً كيف تُعد المنازل. اقترح بطرس على الجبل المقدس أن تقام ثلاث مظال متواضعة، أما هذه فإنها مساكن أبدية. وكما أعدا حروف الفصح تذكارا للفصح الذي عمل في مصر، هكذا سيكون هنالك في وسط العرش حروف كأنه مذبوح. إنه سيشرب مرة أخرى من الخمر الجديدة، ويتمنطق مرة أخرى ليعخدم، ويشترك مرة أخرى في التسبيح بمزامير الهتاف، كالهتاف العظيم الذي كان يتخلل الفصح ويختتمه.

ولكن عظمة وعد المسيح تتبين حينما نذكر أنه سبق فأنبأهم، قبل الموعد بدقائق، أن أحدهم سينكره، وأن الباقين سيتركونه... «أنا أمضى لأعد لكم مكاناً»، لك يا يوحنا الحبيب، لك يا بطرس الذي سوف تتكرنى، لك يا توما ولو كثرت لديك الشكوك والظنون، لا يا فيلبس ولو كنت طلبت أن أريك الآب، سوف لا أتغافل عن أى واحد فيكم، سوف لا يضيع نصيب أى واحد فيكم... «لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب.» لا شك في

أننا نتشجع إن كنا نثق فيه وفى نعمته المبررة. إنه لابد أن يأخذنا هناك رغم خطايانا وسقطاتنا، رغم أحزاننا وتجاربنا. الذين دعاهم فهؤلاء برّهم أيضا، والذين برّهم فهؤلاء مجّدهم أيضا... «فماذا تقول لهذا؟ إن كان الله معنا، فمن علينا؟» أنا أعلم بمن آمنتم.

﴿٣﴾ «لا تضطرب قلوبكم»، «أخذكم إلى»

وهنا نعود بالذاكرة مرة أخرى إلى ما فعله التلميذان قبيل الفصح. فإنهما، بعد الانتهاء من كل الإعدادات اللازمة، خرجا إلى باب المدينة، أو إلى نهاية الزقاق، أو على الأقل إلى باب البيت، لاستقبال [١] الضيوف. بهذا المعنى يجب فهم كلمات المسيح، التى قد أيدتها كلمات استفانوس، الذى رأى ابن الإنسان قائما عن يمين الله، كأنه قد صعد إلى السماء لاستقباله والترحيب به.

وكأن المسيح قد ميّز كل واحد من تلاميذه وهو يتحدث إليهم: يعقوب، أنت ستكون أول صفوف الشهداء النبلاء، سوف يقتلك هيرودس بالسيف، ولكنك سوف تُستقبل استقبالا ملائكيا. توما، سوف تُنشر بالمنشار، ولكنى سوف أستقبلك استقبالا رائعا. يوحنا، سوف تبقى حتى ينتهى كل جيلك، ولكنى سوف أنتظرك، وسوف تتظر مرة أخرى تلك الشخصيات العزيزة التى أحببتها والتى فقدتها إلى حين. بطرس، سوف تبسط يديك وتُرفع على الصليب، ولكن كما يقبل أبى روحى فى يديه، هكذا تقبل يدي روحك أنت أيضا... كل منكم سوف يجدنى منتظرا إياه على عتبة بيت أبى.

أنتم أعزاء جدا لدىّ، ولهذا لن أسمح بأن تتخدع قلوبكم بأى شىء من الضلالات والأوهام. لو كانت الحياة الأبدية أو الخلود مجرد أوهام أو سراب، لكنت قد دفعت عنكم كل ضلال يخدعكم. أنتم تؤمنون بأنكم أولاد الله، وأنكم سوف تدخلون إلى حضرته، وأنكم سوف تجلسون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، فاستمروا فى إيمانكم... لو كان الأمر غير هذا لكنت قد قلت لكم... فلا تضطرب قلوبكم، ولا تهرب.

﴿١﴾ وهو نفس التعبير المستعمل لكلمة «أخذكم».

الفصل الرابع عشر

«ولبطرس»

مت ٢٨ : ١ - ٨ : ١٦ ; لو ١ : ٢٤ - ٨ : ١٠ ; يو ٢٠ : ١ - ١٠ : ٢٢

❖ «انتهت العاصفة، فاصغ إلى الصوت الهادي»

الخفيف يهمس في الأذن ليقول: إن نعمة

الرب دواما مع النفس الوديدة المتواضعة، وإنه

يريد دائماً أن يجذب الخاطئ المتزعج

المتحير بطرقه الهادئة الرقيقة، هنا، نجد الله

أكثر مما نجده في صوت الرعد القاصف..

«كبل»

يقرر لنا متى في إنجيله إن الملاك قال للمرأتين: «اذهبا

سريعا قولاً لتلاميذه». أما مرقس، وقد كان أقرب الإنجيليين إلى

بطرس، ولعله استقى منه الكثير من المعلومات التي وصلت إليه، فإنه

يضيف هذه الكلمة: «ولبطرس». قد تكون هذه الكلمة زالت من ذاكرة

باقي التلاميذ بمرور الزمن، ولكنها نُقِشت في ذاكرة بطرس بحروف من

نور ونار.

في سفر نشيد الأنشاد، نرى أن للمحبة الكاملة ثلاث مميزات،

كانت كل منها ظاهرة وملموسة في معاملة الرب لتلميذه وصديقه، الذي

حُذِر ثلاث مرات، وأنكر ثلاث مرات، وأعيد إلى الأحضان الأبوية في

ثلاث مناسبات.

﴿١﴾ المحبة قوية كالموت

حدثت أحداث كثيرة للمخلص منذ تلك الساعة التى فيها التفت ونظر إلى بطرس فى قاعة المحاكمة. فقد شرب الكأس التى أعطاه الرب إياها حتى الثمالة حسب التدبير الموضوع منذ الأزل.

إنه، باختياره، صار خطية من أجل الإنسان، لكى يكون الله باراً ويبرّر الذين يؤمنون (٢ كو ٥ : ٢١ ؛ رو ٣ : ٢٦).

وأبطل الخطية بذبيحة نفسه بين تشقق الصخور وتلبد السماء بالغيوم (عب ٩ : ٢٦).

وأخلى رأسه للموت وأسلم الروح، وبالموت أباد ذلك الذى له سلطان الموت (عب ٢ : ١٤).

والتقى برئيس هذا العالم فى أمتع حصونه، وانتزع من يده مفاتيح الهاوية والموت (١ كو ١٥ : ٥٥).

وجاز وسط مناطق الهاوية السرية العجيبة، التى أشير إليها فيما بعد بـ «أقسام الأرض السفلى»، وأعلن أنه أتم عمله للأرواح التى عصت قديماً (أف ٤ : ٩ ؛ ١ بط ٣ : ١٩ و ٢٠).

وقام من القبر محطّماً كل قيود العبودية، ومنتزعا من الموت شوكته، ومن القبر قوته.

وسرت الأنبياء بأقصى سرعة إلى كل أطراف المسكونة بأنه بدم صليبه قد صارت السموات نفسها أقرب إلى الله، بل إن موسيقى العالم الأبدى لابد أن تكون قد توقفت، إذ اشتهد الملائكة أن تخترق الحجب وتطلع على إعلانات تلك الساعة.

ولكن محبته لم تتوقف، ولم تنقص، لم يصبها تغيير ولا ظل دوران، ولذاته كانت لا تزال مع بنى آدم (أم ٨ : ٣١)؛ لقد عجز الموت والقبر عن أن يحدثا أى تغيير فيها، كما

عجزا عن أن يؤثرًا على محبة أولئك الذين أحببناهم وفقدناهم إلى أجل معيّن. كانت حالة بطرس في فكره حين أغمض عينيه ومات، وكانت ماثلة أمامه حين وقف برهة للتحدث مع الملاك الحارس الذى كلفه بهذه الرسالة.

إنه وضع بطرس «كخاتم على قلبه» على حد تعبير نشيد الأنشاد، إذ القلب هو مركز المحبة، «وكخاتم على ساعده»، والساعد مركز القوة. وإذ حمل هذا الخاتم، حفظه سالما وسط الأحداث الكثيرة والخطيرة التى أتمت فداء جنسنا؛ وكانت أولى كلمات المخلص بعد القيامة برهانا على أن محبته قوية كالموت، فإنه إذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم، أحبهم إلى المنتهى. محبته «قوية». قد تكون المحبة فى الآخرين مجرد محبة العواطف، تظهر فى الابتسامة، أو الدموع، أو رقة المعاملة. أما محبة المسيح، فإنها قوية كما أنها رقيقة... هو المحبة الخالدة... وهو ابن الله القوى.

وكما عجز الموت والقبر عن الحد من محبته، هكذا أيضا لم ينقضها مرور الأجيال الطويلة الماضية... هو لا يزال يحبنا كما أحب بطرس ومريم، يوحنا وتوما، فى أيام جسده... هو يذكرنا بأسمائنا، يعرف سقطاتنا، ويدعونا من الكورة البعيدة التى ضللنا فيها، وكأنه يبدو أن يقول ما قاله بطرس له: «وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا».

﴿٢﴾ «مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة»

إن محبة المسيح تزيدها المياه اشتعالا، كثيران اليونان التى تحدثوا عنها فى أساطيرهم، فإنها فى حالة بطرس، كما فى حالة الملايين وربوات البشر، كانت محاطة بلجج كثيرة من الجحود، وعدم المبالاة، والعناد، والإنكار، والخطية.

﴿١﴾ لقد تخلى عنه بطرس فى البستان، أما هو فأرسل إليه تلك الرسالة. نزل المسيح من العلّية، وسار فى الطريق هو وتلاميذه حتى وصلوا وادى قدرون، ثم جازوه وصعدوا إلى جبل الزيتون، وساروا حتى البستان. ولشد ما كانت دهشتهم حين أمر ثمانية منهم أن ينتظروا عند مدخل البستان، وأخذ الثلاثة الباقين ودخل

معهم. وحتى هؤلاء الثلاثة أمرهم أن ينظروا فى مكان معيّن ويصلّوا، أما هو فابتعد عنهم نحو رمية حجر؛ فإنه يجب أن يدوس المعصرة وحده، ولا يكون معه أحد من الشعوب (إش ٦٣: ٣)، بل حتى يوحنا الحبيب لم يكن ممكنا أن يكون معه حين أخذ الكأس من يد الآب.

وإذ غادرهم، قال لهم: «اسهروا معى». قدّم هذا الطلب بحسب ناسوته، لأنه من ذا الذى ينكر قيمة عطف ومعونة الأصدقاء فى الساعات الخطيرة؟ عندما نكون محاطين بجماعة القديسين، نستطيع أن نُصيّر وادى البكاء ينبوعا (مز ٨٤: ٦)، «فإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم، اشترك هو أيضا كذلك فيهما» (عب ٢: ١٤)، ولكنه علم أيضا أن هذه ساعة سلطان الظلمة. كانت عملية الغريلة قد أوشكت أن تبدأ، فإن يهوذا كان قد حشد أعوانه. ولم يكن ممكنا للتلاميذ أن يثبتوا فى ذلك اليوم الشرير، ما لم يكونوا قد تسلحوا بسلاح الله الكامل. ولكنه، إذ أتى إليهم ثلاث مرات، وجد أنهم قد خيّبوا أمله فيهم، لأن أعينهم كانت قد تثقلت بالنوم. وأخيرا، أتى ملاك ليقدم المعونة التى كان يجب أن يقدمها الإنسان الذى فشل فى تقديمها. لم ينس بطرس قط لهجة العتاب الذى وجهه المسيح إليهم، وبنوع خاص إليه: «أما قدرت أن تسهر معى ساعة واحدة؟» ولكن، رغم أن بطرس خيّب آماله، مع تحذيراته الكثيرة، فإن المسيح أرسل إليه تلك الرسالة.

﴿٢﴾ ويطرس أساء فهم روح المسيح ومقاصده، وعرضه للخطر. كل التلاميذ لم يدركوا الموقف. لم يكن لديهم أقل شك فى أنه هو ابن العلى ومملك إسرائيل. ولقد كانوا يتنازعون، حتى اليوم الأخير، حول المراكز العليا فى الملكوت. وهم لم تأخذهم الدهشة إذ رأوا الجنود المدججة بالسلاح تقترب، لأن يسوع أنبأهم بأنهم يجب أن يتوقعوا هذا. وفضلا عن هذا، فإنهم احتاطوا لذلك الموقف بإحضار سيفين كان أحدهما مع بطرس. ولعلمهم فكروا معا بأنهم، إن اقتضى الأمر، يجب أن يموتوا حول شخصه، ولو أنهم لم يتوقعوا بأن الموقف سوف يتطلب هذا؛ لأن الله لا بد أن يتدخل عندما يتحرّج الموقف، وتظهر الملائكة على المسرح، فيتفرق أعداؤهم كما فى يوم مديان (إش ٩: ٤).

ومع أن بطرس خارت عزيمته أمام الجارية، إلا أنه لم يخف ولم يضعف قلبه، فقد كان مستعداً أن يحارب كالأسد، لو أن الرب سمح له بذلك. وعندما أدرك الباقيون الموقف، طلبوا من السيد أن يأذن لهم بأن يضربوا بالسيف، ولم ينتظر بطرس كلمة المسيح، بل قذف بنفسه وسط الجند، وأشهر سيفه وضرب به ضربة شديدة، فقطعت أذن ملخس اليمنى. ورغم توفر حسن النية فى هذا التصرف، فإنه لم يرق فى عينى السيد، لأن استخدام القوة يقتضى مقابلتها بالقوة، فالذين يأخذون بالسيف يهلكون بالسيف. ثم إن هذا يشوه من جمال تضحية المسيح الاختيارية وقبوله الصليب بمحض إرادته. وفضلاً عن هذا، فإن الفريسيين ربما كانوا يؤولون مقاومة التلاميذ بأنها بدء الثورة ضد الاحتلال الرومانى.

ولطالما ردد المسيح أنه ليس أحد يأخذ نفسه منه، ولكنه هو يضعها من ذاته، وبمقتضى الوصية الصريحة التى قبلها من الأب، هو يضعها ثم يأخذها (يو ١٠: ١٨). ولو كان قد قابل القوة بالعنف - الأمر الذى لا يليق به - لاختفى عنصر الرغبة الاختيارية فى تحمل الآلام. لذلك تدخل ليسكن تلك الثورة، وصد تابعيه، وطلب الإذن بفك القيود عن إحدى يديه، حتى يستطيع أن يلمس بها أذن ملخس. وبعد عتاب قصير، سمح لهم بأن يقتادوه كشاة تساق إلى الذبح. كان فى هذا التصرف السريع إنقاذ للموقف الصاخب الذى أثارته حركة بطرس العنيفة المتسارعة، التى بيّنت كيف أنه هو وباقى رفاقه لم يدركوا الموقف مطلقاً. ولكن، رغم كل ذلك، فإن المسيح ذكر بطرس بنوع خاص، وأرسل إليه تلك الدعوة الخاصة، وهو عالم أن قصر إدراكه لا يزال عالقا به.

﴿٣﴾ وبطرس نكت بعهدته، وأنكر المسيح بقسم ثلاث مرات، ولكنه أرسل إليه هذه الرسالة. عاد الجميع إلى المدينة، وفى وسطهم المسيح الذى ألقوا القبض عليه. أفاق يوحنا أولاً من صدمة الذعر الذى استولى عليه هو وسائر رفاقه، والذى دفعهم إلى الهرب والتشجى عن معلّمهم، ويبدو أنه بعد ذلك رافق المشهد سائراً فى مؤخرته، أما بطرس فتبع المسيح من بعيد. ولدى فتح أبواب قصر حنانيا، الذى عُقدت فيه المحاكمة الأولى، غير الرسمية، لمحاولة اقتناص كلمة من بين

شفتى المسيح كدليل جديد على إدانته، دخل يوحنا مع الجمع. ولكنه إذ لم يعثر على بطرس، خرج إلى الخادمة التى كانت تحرس الباب، وتوسل إليها لإدخال بطرس، حيث كان واثقا من وقوفه خارجا. وإذ ظنت الخادمة أن يوحنا واحد من أتباع رئيس الكهنة، سمحت لبطرس بالدخول، وتفرست فى وجهه إذا جاز تحت المشعل الذى كان يضىء مدخل القصر.

كان هذا المدخل يؤدى إلى ساحة مربعة مكشوفة. ولأن الطقس كان باردا فى تلك الليلة، أشعل الخدم نارا فى الموقد الكبير. اصطف حول النار للاستدفاء الجند الرومانيون، ورجال الشرطة العبرانيون، وخدم رئيس الكهنة، والجواسيس، وشهود الزور الذين كانوا منتظرين لتأدية الشهادة.

دخل يوحنا مع المسيح إلى غرفة المحاكمة التى كانت تطل على تلك الساحة، أما بطرس فانضم إلى الجماعة «وكان واقفا يصطلى» معهم حول النار. لقد استولى عليه اليأس، وانتفى عنه كل رجاء. وإذ وجد أن معلّمه قد رفض المساعدة، التى خيّل إليه أنه يقدمها له (باستخدام وسائل العنف) بلبل فكره وارتبك، ولعل ذلك أيضا قد أسدل عليه حجابا كثيفا من سوء الفهم، كما سبب له الكثير من مرارة الفشل. على أنه ظل يرغب فى أن يعرف النتيجة، ولذلك فكر فى أن يتسلل إلى الجند والخدم وسائر المشهد الخارجى، وينضم إليهم كأنه واحد منهم... «جلس بين الخدم لينظر النهاية».

أما الخادمة الواقفة على الباب، والتى سمحت له بالدخول، فإنها تركت مكانها، وأتت إلى موضع النار، وعرفت بطرس، وصرخت أمام كل الجماعة قائلة: «وأنت كنت مع يسوع الجليلي». كان هذا التصريح مباغته له، فرد عن نفسه هذا الاتهام، واعترف بأنه لا يدري ماذا قالت... «لست أدري ما تقولين».

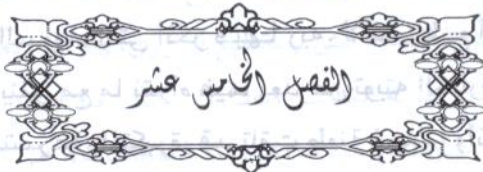
ولعله غافل الجماعة فانسحب من بينهم، واتجه ناحية «الدھليز» (مدخل القصر)، وعند وصوله إليه، صاح الديك فى مطلع الفجر. من ثم، رآته جارية أخرى وعرفته، ولعلها سمعت كلمات زميلتها السابقة، فقالت لبعض الواقفين:

«وهذا كان مع يسوع الناصرى..» ولكنه أنكر أيضا، وكان الإنكار هذه المرة مصحوبا «بَقَسَمٍ»، وقال: «إنى لست أعرف «الرجل». وبعد ساعة، عاد مرة أخرى إلى النار، ولعله كان يحاول بذلك أن يصحح الموقف من تلقاء نفسه؛ ففكر فى أن يدافع عن معلّمه، ولو دون أن يبيّن أنه من أتباعه. ولكنه، إذ فتح فمه، دلت لهجة كلامه - كجليلي - على كذبه فى ادعاءاته التى كان يحاول أن يبرّئ نفسه بها من علاقته بيسوع. فقد فضحته أكثر من جارية، واللباس الذى كان يرتديه دلّ على حقيقة، وأحد أقارب ملخس اعترف به. تحرّج الموقف جدا، وابتدأ المسكين يلعن ويحلف، قائلا: «إئننى لا أعرف الرجل..» ولكنه كلما ازداد صياحا، قويّت ضده الحجج التى تكشف عن حقيقة.

وإذ كان يتكلم، صاح الديك للمرة الثانية، «فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له...» وللمرة الثانية أيضا سمع يسوع نفس الصوت، كما سمع صوت بطرس حيث كان واقفا. وحينئذ، تفاضى عن أحزانه الشخصية، والتفت ونظر إلى بطرس، لا بغضب أو لوم، بل للتذكير. ورغم كل هذا، فقد أرسل إليه تلك الرسالة... مياه كثيرة لم تستطع أن تطفىء محبته.

ونحن أيضا قد نتخلى عنه، وننكره، ونصلبه لأنفسنا ثانية. ولكن، عندما نرجع إلى أنفسنا بحزن، ونأسف، يجددنا ثانية للتوبة. فاسمح اللهم أن تتظر إلينا عندما ننكرك، فنُشَفَى من ارتدادنا، وننال المغفرة، ونعود إلى أحضانك الأبوية.





﴿ وظهر لبطرس ﴾

﴿ لو ٢٤ : ١٣ - ٣٥ : ١ كو ١٥ : ٥ ﴾

﴿ عندما أتذكر خطيئتي، ويموت قلبي في

داخلي، فليتك تأتي يا روح الله القدوس،

وتبعث إلى الحياة تلك المحبة الأولى.﴾

﴿ كبل ﴾



إن الذين يشعرون بمرارة الحزن إذ يذكرون أنهم قد ارتكبوا

زلة - حقيقية أو وهمية - في حق أحد أولئك الذين ارتحلوا، هم الذين

يذكرون مقدار الحزن الشديد الذي دفع بطرس للهروب من ذلك المنظر

الكريه - منظر خطية الإنكار. وتلك النظرة الممتلئة محبة عذبة، والممتلئة

عطفًا وإشفاقًا، ظلت ملازمة له، بل ظلت تتابعه. أكانت هذه هي آخر

مرة يرى فيها وجه الحبيب، أو يسمع ذلك الصوت الذي ألفه؟ ألا يمكن

أن تحين الفرصة التي فيها يكشف كل ما في قلبه من هموم وآلام،

ويسمع التأكيد بالغفران؟ أكان ذلك المنظر خاتمة المطاف؟ ألا يمكن أن

تعود إليه السعادة الأولى؟ وحتى إذا صفح عنه الله، فهل يمكن أن يصفح

هو عن نفسه؟ كيف أمكن أن يسقط في تجربة تافهة كهذه؟ لماذا لم

يبتعد عن النار، أو لماذا لم يهرب من ذلك الموقف حينما عُرِّفت شخصيته

لأول مرة؟



يخبرنا التقليد إنه فى السنوات التالية تعود أن يجثو على ركبتيه، ويكى، كلما سمع الديك يصيح. وأنه تعود أن يستيقظ كل يوم عند صياح الديك، ويقضى فى الصلاة تلك الساعة السوداء التى أنكر فيها ربه. لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا التقليد. ولكن، لعله لا يتفق مع ما نقرأه فيما بعد عن توبته الحارة الصادقة... والأرجح أن طبيعته القديمة، المتسرعة، المتكبرة، قد تلقت طعنة نجلاء، وأنه أصبح يرثى ويعطف كل العطف على الساقطين. وأنه آمن، إيماناً لم يعهده من قبل، بمحبة المخلص، التى اشتعلت نيرانها فى قلبه، فأذابته، وأسالت ينابيع الدموع من عينيه؛ يقينا أن الرب هو الذى أضرم تلك النيران.

«١» إن منظر حزنه المرير لم يكشف لنا

أين ذهب حين غادر قصر قيافا؟ يقينا أنه قصد جثسيماني لكى يرتقى طويلاً فى نفس المكان الذى تألم فيه معلّمه، وبيل بدموعه نفس المكان الذى تخضبّ بدماء الحبيب التى قطرت من جبينه. وحينما أشرقت الشمس، وبدأت أورشليم تتحرك، قصد بيت يوحنا، حيث يكون فى مأمن من عيون باقى رفاقه الذين أربكتهم تلك الحوادث التى انتزعت المعلّم من وسطهم، والتى قضت على كل آمالهم فى هذا العالم والعالم الآخر؛ على أنهم كانوا يشكرون الله لأنهم، على الأقل، إن كانوا قد تركوا ربهم، فإنهم لم ينكروه.

انقضت ساعات الصباح بكل بطء، وأحس بأن كل المدينة قد تحركت. ولكن، لعله لم تصله سوى أخبار ضئيلة جداً من الكوة المفتوحة. رنّت فى أذنيه تلك الكلمة المنبثة من عشرة آلاف حنجرة «أصلبه»، ثم دوى فى أذنيه صوت تلك الكلمة الغريبة «باراباس». كان يوحنا قد تألم كل الألم مما حدث، حتى كان يخيّل للآخرين بأنه لا يمكن أن يكون قد عاد إلى المسيح ليشهد الصليب.

وقرب الظهر، سمع صوت أقدام متناقلة بالباب، وإذ خرج ليرى جلية الأمر، وجد يوحنا يسند، بل يكاد يحمل، مريم العذراء، الأم المثقلة بالحزن. وعندما وجد علامات الحزن الشديد بادية على وجهيهما، أدرك أن الأعداء أتوا آخر ما عندهم، ولعله حجم عن سؤالهما عما حدث. ولعل كليهما لم يدرك، فى ذلك الوقت، أن بطرس كان مثقلاً بحزن أشد منهما.

مما ورد فى رسالة بطرس الأولى، نعلم أنه كان شاهداً لآلام المسيح. فإن كانت هذه العبارة تشمل آلام الصليب، كما هو المرجح، فلعله قد تسلسل فى الطرقات التى بدأ يغطئها الظلام فى وسط النهار، لكى يستطيع أن يرى، ولو عن بعد، الصليب الذى حمل من أحبته نفسه من كل قلبه التائب. وعلى أى حال، فقد كان لابد له أن يرجع على عجل، لأن يوحنا ترقّب عودته لثناء مريم، ريثما يذهب هو إلى قدميّ الصليب ليسمع الصرخة الأخيرة التى أعلن بها إتمام فداء البشرية، ثم النسمة الأخيرة التى بها استودع بها الفادى روحه فى يدى الآب.

عاد يوحنا بهذه الذكريات وغيرها. وفى الساعات الأليمة التالية، أسر إليه بطرس بتفاصيل سقطته المخزية. طوبى لأولئك الذين يجدون صديقاً كهذا فى ظرف كهذا. وطوبى أيضاً لأولئك الذين، إذ يذكرون سقطاتهم وضعفهم، يستطيعون أن يشفوا القلوب المنسحقة... «إن انسبق إنسان فأخذ فى زلة ما، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظرًا إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً. احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمموا ناموس المسيح» (غل ٦: ١ و ٢).

﴿٢﴾ وأشرق فى قلبه نور حقيقة القيامة تدريجياً

لو كان كل ذلك المجد الباهر، وكل تلك الحقائق العجيبة، قد أشرقت على التلاميذ دفعة واحدة، وبغته، لكانت قد بهرت عيونهم، فالنور الزائد عن الحد يعمى البصر، لذلك رتبت العناية بحكمتها أن يعلن لهم النور تدريجياً «بأنواع وطرق كثيرة».

﴿١﴾ القبر فارغاً:

فى فجر يوم القيامة، أقبلت مريم المجدلية، وهى تلهث من سرعة الركض، إلى بيت يوحنا الذى لم تفارقه الكآبة والحزن. وأعلنت إليهم ذلك الخبر الذى خلع قلبها، الذى يتضمن سرقة الجسد من مثواه بأيدٍ مجهولة «أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم (نحن النسوة اللاتى حضرن إلى القبر لندهن جسده بالحنوط) أين وضعوه».

وللحال، خرج بطرس مسرعا، وتبعه يوحنا، وقصدا إلى البستان راكضين بأقصى سرعتهما. وصل يوحنا إلى القبر أولا، لأنه أصغر من بطرس وأخف حركة، وانحنى ليتفرّس في القبر، واكتفى بهذا، إذ منعه من الدخول خوفه المقدس، واحترامه التام للقبر ولن وضع فيه، وشدة تعجّبه ودهشته، ومحافظة على تقاليد الناموس الطقسي. أما بطرس، فإنه تخطى هذه الحواجز، ولم يحتمل أى إبطاء، بل اندفع، بطبعه المتسرع، داخل القبر الذى خرج منه سيده منذ ساعة أو اثنتين. واضح جدا أن الجسد لم يسرقه صديق أو عدو، فإن كيفية وضع الألفان بترتيب تام تدحض هذا الزعم الباطل، لأنها سقطت معا بترتيب طبيعى، كأن الجسد الذى كان ملفوفا بها انسحب منها بخفة دون أن يحركها؛ أما المنديل الذى كان على رأسه، فوجد ملفوفا كأن يدا قد لفته بعناية. تأثر يوحنا جدا بما رأى «فآمن»، أما بطرس فبدأ يفكر ويتعجب. ولكنهما كانا يحتاجان إلى تأييد آخر «لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغى أن يقوم من الأموات، فمضى التلميذان إلى موضعهما» (يو ٢٠: ١-١٠).

﴿٢﴾ وظهر الرب لمريم المجدلية:

كانت هذه هى الخطوة الثانية فى كشف النقاب عن تلك العجيبة العظمى، قيامة الرب من بين الأموات. وللحال، أحدثت هذه الخطوة تأثيرا عميقا فى بطرس، لأن مرقس يخبرنا بأنه عندما قام المسيح باكرا جدا فى أول الأسبوع، ظهر أولا لمريم المجدلية «التي كان قد أخرج منها سبعة شياطين». ولعل هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا سر التعزية التى بعثها إلى نفسه المضطربة حديث يسوع مع مريم. فإنه كان يعرف حق المعرفة تاريخ حياتها الماضية التى خلّصها منها السيد. ولهذا، استنتج بأنه إن كان يسوع قد أعلن نفسه إليها، ونطق باسمها بالنعمة السابقة، وأمرها بالذهاب إلى إخوته برسالة القيامة والصعود، فإن هذا يحمله على الاعتقاد بأنه هو أيضا؛ ولو إنه غير مستحق، سيستأنف معه الرب صداقته القديمة.

أرشدته مريم للذهاب إلى القبر الفارغ. والآن، وقد أتت إلى البيت للمرة الثانية، بأخبارها الجديدة عما اختبرته مع المسيح الذى ظننته البستاني، ازداد رجاء بطرس قوة و يقينا. وكما عبّر هو فى السنوات التالية «ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامه يسوع المسيح من الأموات» (١ بط ١: ٣)، واستعد للدعوة الشخصية التى كان مزمعا أن يوجهها إليه السيد. قوبلت هذه الرسالة الرقيقة بتقدير أكثر، لأنها لم تكن النبأ الأول عن تلك الحادثة العظمى التى ذاع خبرها توا.

﴿٢﴾ رسالة المرأتين:

لقد غادرتا القبر بسرعة، وركضتا لإخبار التلاميذ... ولكنهما توقفتا عن المسير لدى ظهور السيد الذى التقى بهما، وقال: «سلام لكما». فتقدمتا، وأمسكتا بقدميه، وسجدتا له. أما هو، فكرر أمر الملاك لهما، وقال لهما: «لا تخافا أنتما، اذهبا سريعا قولا لتلاميذى». كل هذا أخرهما، ويظهر أيضا أنه بينما كانت المجدلية ذاهبة ليوحنا وبطرس، كانت هاتين المرأتين ذاهبتين إلى الثمانية رسل الآخرين الذين كانوا مجتمعين فى العليّة. وبينما كانت المجدلية مسرعة إلى الثمانية رسل عقب انصرافها من عند بطرس ويوحنا، كانت المرأتان مسرعتين إليهما عقب انصرافهما من عند الثمانية، حيث كان التلميذان يتناقشان فى حوادث الصباح، بل كانت الأم قد كفكت الدموع لتتصت بإصغاء تام.

أقبلت المرأتان عليهما، وسط أشعة الشمس فى يوم ملبد بالغيوم القاتمة... لقد رأتا الرب... لقد تحدث إليهما... لقد أمرتا بأن تحملا إليهم أخبارا سارة منبئة بفرح عظيم، ولكنهما، قبل التقائهما بالسيد، أمرهما الملاك أن يقولا لتلاميذه «ولبطرس» إنه قام، وإنه يسبقهم إلى الجليل، حيث يرونها هناك. لم تدرك المرأتان كل معانى هذه الكلمات. لقد كانتا تنظران إلى بطرس كمقدم الرسل، ولهذا كان أمرا طبيعيا أن يخصص هو بالذات فى رسالة الملاك. أما بطرس، فوجد فى تخصيص اسمه حياة من بين الأموات؛ ألم يقيم على الفور إذ سمع المرأتين تذكran اسمه؟ ألم يسألهما بتدقيق عما إذا كان ذكر اسمه ليس من

اختراعهما؟ ألم يُصِرَّ على أن يطلب منهما أن تكرر كل تفاصيل الرواية ودقائقها؟ وعندما غادرتاه لإخبار باقى الرسل، ألم يمجّد هو تلك المحبة التى لم تسمح بأن يضل هو أيضا عن حظيرة الخراف؟ المحبة التى احتملت كل شىء، وصدقت كل شىء، ورجت كل شىء، وصبرت على كل شىء، المحبة التى لم تسقط أبدا، حتى وجدت الخروف الضال وأعادته!

﴿٣﴾ وأخيرا، ظهر الرب له

يذكر لنا بولس فى (١ كو ١٥) شهود قيامة الرب، ثم يدوّن لنا هذه الكلمة: «وأنه ظهر لصفا». وعندما دخل كليوباس وصديقه العليّة مساء يوم القيامة، حيثهما الجماعة بصوت البهجة والفرح، قائلين: «إن الرب قام بالحقيقة وظهر لسمعان» (لو ٢٤: ٣٤). هذا كل ما تعرفه. أين تقابلا، ومتى، وما هو الحديث الذى دار بينهما؟ كل هذا محفوظ فى قلب المسيح وقلب بطرس، ولعله سوف يبقى محفوظا دون أن يُكشَف عنه الحجاب مطلقا. حتى ولو «سَلَّمَ البحر الأموات الذين فيه» (رؤ ٢٠: ١٣)؛ ونحن لا نود أن يُكشَف عنه الحجاب، لأننا نحن أيضا لنا أسرار مع المسيح، ائتمناه عليها، واثقين تماما من أنها سوف لا تُفَشَى قط.

لم يدوّن الحديث الذى دار فى تلك المقابلة، ولكننا نستطيع أن نسطر تلك الصحيفة البيضاء من اختباراتنا. نحن نعلم أنه لا بد وأن تكون دموع حارة قد دُرِفَتْ، وصدرت كلمات متقطعة، وتقصّص فترات سكون طويلة عند عدم المقدرة على الكلام. ولا بد وأن يكون بطرس قد صرّح بما يكنه قلبه من محبة حقيقية، رغم ما بدا منه من أقوال أو أفعال تخالف هذا. وهل ردد المزمور الحادى والخمسين، أم كرر ما تذكّره من اعتراف الابن الضال؟ وإن كان قد حصل ذلك، ألم يوقفه المسيح قبل أن يكمل تلاوة هذا أو ذاك؟ ألم يسمع ذلك الصوت الرقيق يأمر بإحضار الحلة الأولى، والخاتم، وإعداد الوليمة والموسيقى والأناشيد؟ نعم، إننا نعلم أن كل ذلك قد حصل؛ فإننا قد جزنا أيضا هذا الاختبار... نحن أيضا قد رُفِعنا من المذبة للجلوس على مائدة الملك، ولو كنا عُرِج القدمين كمفبوشث.

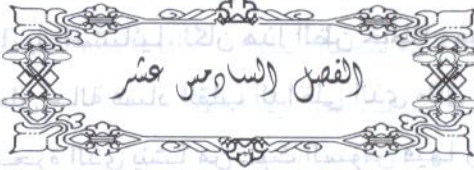
يا له من تدبير فائق الحكمة والجمال، ذلك الذى صنعه السيد، إذ رتب هذه المقابلة الشخصية، قبل أن يعلن ذاته لكل الجماعة فيما بعد فى نفس الوقت. لم يكن ممكنا أن يكشف بطرس كل قلبه فى حضورهم، أو يعترف اعترافا كاملا، أو يُقبَلَ قدميَّ السيد. لقد كانت تلك الساعة الأولى، التى قضاهـا بطرس منفردا مع المسيح، مصدر إشـعاع للنور والبهاء والمجد على حياته باقى ساعات ذلك اليوم الخالد. فإنه إذ كان قد اغتسل فى مرحلة المغفرة، كانت له جرأة للدخول إلى الأقداس. وعندما أظهر الرب يديه وجنبه للتلاميذ، علامة على إتمام عمله، ونفخ فيهم نفخة الروح القدس، استطاع بطرس أن ينتفع بهذه البركات إلى أقصى حدود الانتفاع.

أى لسان بشرى أو قلم يستطيع أن يصف عمق، ورقة، وقوة محبة يسوع؟
 أتستطيع البشرية الخاطئة أن تقدّر نعمة المسيح الغافرة؟ أرمى أحدهم أن تُكْتَبَ على
 الحجر الذى يصنم رحمة وورعك - روضة هذه العبارات - «الثلثة» «فقد الحبيب، ابنك لخب، ابنك»
 سوف نحب.» أما محبة يسوع، فإن الأجيال الدهرية وحدها هى التى سوف تعلنها فى
 ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

ولكن، لماذا نتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل إذ نتحدث عن محبة الله؟ إنها أزلية، أبدية، لا تحدها الأجيال والدهور؛ هي كائنة قبل أن يبدأ الزمن، وإلى أن ينتهي الزمن. يجوز أن نشبه الشمس بالبحاب^[١]، ولكن كلاهما كانت له بدايته، وسوف تكون له نهايته. أما محبة يسوع فليست لها بداية ولا نهاية... فلا تخف... إنها لا تسقط أبدا، ولن تتخلى عنك قط.



﴿١﴾ نوع من أنواع الذباب يطير ليلاً، ويضئ ذنبه. ﴿مكتبة المحبة﴾



﴿ المهمة الجديدة ﴾

﴿ يو ٢١ ﴾

❖ «قد يكون صفح الإنسان صادقا وخالصا،

ولكنه يخس بأن الصفح معناه التنازل. أما

محبة يسوع، فإنها لا حد لكمالها، وهي تضع

الصفح تحت قدميك، وترجوك أن تقبله، بل

تتوسل إليك. وعندما تعلن لك السماء:

مغفورة لك خطاياك، فليس ذلك معناه

الضعف، بل القوة.»

﴿ بروكثر ﴾



المرجح جدا أن الإصحاح الأخير من بشارة يوحنا، الذي

يعتبر تذييلا لها، قد أضيف إليها إحياء لذكرى صديقه الحميم بطرس،

الذي يذكر عنه التقليد في كل الكنائس، بأنه ختم خدمته الطويلة

المجيدة بالاستشهاد فوق الصليب. فإن يوحنا، إذ كان أمينا لذكره، أراد

أن يبين كيف أن الرب نفسه أعاد المفاتيح في يديه، ورد إليه سيفه، رغم

إنكاره المثلث له. لقد اعتبرته الكنيسة الأولى فعلا أحد أعمدتها. ولكن

أخبار إعادته الفعلية إلى رتبته الأولى لم تكن قد دُوِّنت بعد على

صفحات التاريخ. لهذا، نرى الرسول الحبيب يأخذ على عاتقه، بإرشاد

الوحي الإلهي، أن يصور لنا هذا المنظر المنقطع النظير، الذي يشهد على

صدق جماله الرائع وتسلسله الطبيعي.



هل يوجد بيننا من لم يعثر فى كلمة أو عمل معين، لو نُظِرَ إليه فى حد ذاته، قد يُظَنُّ بأنه لابد أن يعوقنا عن رعاية شعب المسيح؟ ولكننا إذا كنا واثقين أن هذه العثرة لم تكن أمرا طبيعيا أو عاديا، بل استثنائيا، لكان هذا الظن خاطئا وغير عادل. طبيعى أنه توجد سقطات مفاجئة تعلن حالة فساد القلب الداخلى الذى طال عليه العهد فى الشر والنجاسة، كسقوط الشجرة الذى ينشأ من عبث السوس فيها زمنا طويلا. يجب ألا ننسى الاعتراف بهذه الحقيقة الخطيرة. ولكنه صحيح أيضا أن الإنسان قد يقع تحت ضغط ظروف مفاجئة قوية، فتصدر عنه بعض الأقوال أو الأفعال التى لا تتفق مع طبيعته الحقيقية، كأقسام بطرس فى بيت قيافا، التى لا تتفق مطلقا مع صلته الوثيقة بشخص ربه.

«كل شيء عريان ومكشوف لعينى ذلك الذى معه أمرنا» (عب ٤ : ١٣). كان يسوع يدرك أن بطرس العاثر ليس هو بطرس الحقيقى. ونظرا لأن حياته الرعوية المستقبلية تتوقف على رضا إخوته، فقد دبرَّ المسيح، بحكمته، أن يعلن حقيقة نفسه الداخلية، حتى يزول الأثر السئ الذى أحدثه سقوطه، وحتى يقدم الدليل الأكيد على أنه حائز للصفات التى تؤهله لقيادة الكنيسة. لقد عرف مهندس الكنيسة الأعظم تلك الصفات التى يجب توفرها فى الإنسان الذى سيكون بناءً فيها، فحرص على أن يقدم الفصل الذى يظهر فيه أنها متوفرة فى بطرس، وأن إجماع الآراء على صلاحيته للقيادة يبرهن على الحكمة التى لا حد لها، التى بدت فى تصرف الرب إذ التقى به للمرة الأخيرة على شاطئ بحر الجليل.

المنظر

عاد الرسل إلى الجليل، وإلى البحيرة، إطلاعة للأمر الصادر إليهم. ويا للذكريات المباركة التى وجدوها فى كل بقعة من تلك البحيرة؛ فى هذا المكان صنع تلك المعجزة، وفى ذاك كان جالسا حين تحدث بتلك الكلمات. على أن ظروفهم الحالية قد تغيرت تغييرا كلياً، فالموارد (المالية) التى كان يشترك فيها الرب معهم قد بطلت، ونظرا لأن

وقت التقائهم التالى بالسيد لم يكن معلوما بالتحديد، وقد تنقضى مدة طويلة قبل أن يتلقوا تعليمات أخرى، فقد كانوا مستعدين لتنفيذ خطة بطرس نحو استئناف مهنتهم السابقة، لأنه حالما قال لهم سمعان بطرس : «أنا أذهب لأتصيد»، وافقوا هم أيضا على هذا الاقتراح، وأجابوا: «نذهب نحن أيضا معك».

كان نسيم المساء معطرا برائحة زهور الربيع، وكانت المراعى التى اكتست بحلّة سندسية بهية رصعتها زنايق الحقل بألوانها المنقطعة النظير. أما البحيرة، فقد تكسّرت على مياهها أشعة الشمس عند غروبها، فزادتها روعة وجمالا. وإذ كانت السفن والشباك ميسورة، قفز سبعة منهم فى إحدى سفن الصيد، مدفوعين بعاداتهم القديمة، ومهنتهم التى نشأوا فيها منذ صباهم، ثم ربطوا إلى السفينة قاربا صغيرا، وبدأوا يتصيدون. بدأ الظلام يتكاثف، فلا يرون حتى قمم الجبال، وصارت النجوم تتلألأ فى كبد السماء، وساد الجو سكون رهيب. وإذ بدأ نور الصباح يظهر، وجدوا أنفسهم بأنهم «لم يمسكوا شيئا».

كانت مرارة الفشل أعظم من أن تُحتمل. ولكن الذين قد اختبروا معاملات الله، هم وحدهم الذين يدركون بأنه إن أغلق باب فتح الآخر، وبأنه إن تعطلت مشروعاتنا من ناحية معينة، فإنما ذلك لأن الله أعد ناحية أخرى أفضل وأحكم. فلو أن الصيادين وُفّقوا فى مهمتهم فى تلك الليلة، لتعذّر إعادتهم إلى حياتهم الأولى، حياة الاتكال على عناية السيد الشخصية؛ لأنه أرادهم أن يدركوا بأن حياتهم لا تتوقف على ما يتصيدونه، بل على النار التى يوقدها هو والطعام الذى يهيئه بيديه. والدرس هو لنا أجمعين... فلو أننا قضينا أيامنا فى خدمته، أُتيح لنا أن ننام فى سلام... «باطل هو لكم أن تبكروا إلى القيام، مؤخرين الجلوس، آكلين خبز الأتعاب، لكنه يعطى حبيبى نوما» (مز ١٢٧: ٢).

لقد عجزوا عن أن يميزوا شخصية ذاك الواقف على الشاطئ متدثرا بثياب بيضاء كالنور. ظنوا فى بادئ الأمر إنه لابد أن يكون أحد تجار الأسماك، وكان

السؤالان اللذان وجههما إليهم من عبر البحيرة سببا في هذا الظن الخاطيء، فقد كان طبيعيا أن يسأل الصيادون عقب عودتهم من الصيد عما إذا كان عندهم سمك للبيع، أو يُطلب منهم إلقاء الشبكة في مكان آخر أقل عمقا. ولكن يوحنا، بدافع المحبة التي لا تخطئ قط، أدرك أنه في حضرة الرب، وأسر إلى صديقه بطرس اكتشافه لهذه الحقيقة المفرحة. لم يستطع باقى التلاميذ أن يدركوا، في تلك اللحظة، لماذا أسرع بطرس في ائثار ثوبه الخارجى الذى كان قد خلعه لتيسير مهمة الصيد، وألقى بنفسه فى الماء، غير مبال ببرودة الجو فى ذلك الصباح المبكر. ولكن هذه الحركة السريعة مكنته، على أى حال، من أن تتاح له فرصة أخرى قصيرة يتحدث فيها حديثا فرديا مع يسوع، ويجدد فيها بهجة حديث البستان.

لا حاجة بنا لإطالة التفكير فى جمال تلك الفكرة التى أوحى بإشعال نار لتدفئة هؤلاء الصيادين المنهكى القوى، وتجفيف ملابسهم، وإعداد الخبز والسمك. ولا داعى كذلك لإطالة التأمل فى معجزة صيد السمك الكثير، ويكفى أن نتعلم من سياق الحادثة كلها أن شبكة الإنجيل - منذ قيامة الرب فصاعدا - يجب أن تُطرح فى بحر العالم، وإنه لا يمكن أن يُضمّن لنا النجاح فى هذه المهمة دون رفقة الله لنا وإرشاده، وإن حاجيات الصيادين من راحة وطعام لا يمكن أن يتغافل الرب عنها، وأننا عندما يشترك الرب معنا فى انتشار النفوس من بحر العالم، فإنه يرحب بنا إذ نقترّب من الشاطئ السماوى فى الفجر، ويتعشى معنا ونتعشى معه. وعندئذ «لا يجسر أحد أن يسأله من أنت؟» لأننا سنعرف «إنه هو الرب»، إذ لا يكون هنالك جهل أو ظلام أو ضباب، والأشياء الأولى تكون قد مضت وولت.

إن هنالك ثلاثة مؤهلات رئيسية للقيادة الروحية: الولاء الكامل للمسيح، والتواضع الذى بلا تكلف، والشجاعة التى لا تلين. ولقد برهن بطرس، ليلة إنكاره للمسيح، على أنه كان خَلُوءاً من كل هذه الصفات، ولكنها كانت كامنة فى قلبه، كما تتوارى البذور فى باطن الأرض منتظرة الظروف المناسبة التى تُظهرها؛ ولقد قدم الرب لبطرس هذه الظروف المناسبة.

﴿١﴾ الولاء الكامل للمسيح

لو لم تكن حادثة الإنكار، لَمَا خطر ببال أحد من جماعة الرسل أن يسأل بطرس عن وجهة نظره نحو المسيح. ولعل باقى الجماعة ظلت تتطلع طويلا إلى غيرة ابنى الرعد (يعقوب ويوحنا)، ثم إلى غيرة سمعان بطرس بنوع أخص. على أن الجو كان قاتما جدا، لأن سحابة كثيفة من الشك كانت تظله، ولا بد أنهم حين كانوا يتحدثون معا قد تساءلوا بكل جد واهتمام عن مقدار ولائه للمسيح. أدرك الرب هذا، وعرف إنه قبل أن يأتّمه على رعاية خرافه وغنمه، يجب أن يأخذ منه تصريحاً حاسماً وواضحاً عن محبته التى كان واثقاً من أنها متوفرة فى عبده.

لهذا، فإنه بعد الفجر، كرر المسيح نفس السؤال ثلاث مرات: «أتحبنى؟» وفى كل مرة كان يدعو «يا سمعان بن يونا»، أى يا سمعان بن يوحنا. قال أحد الكتاب (الدكتور ترانش): «نحن نقرأ عن سيرة القائد الأعظم الذى أطلق على كل من قاداته الرئيسيين لقباً كريماً يتفق مع صفاته. فإذا ما أراد أن يظهر عدم رضائه، تغافل عن هذا اللقب ودعاه باسمه فقط، وهذا كان يسبب لهم انزعاجاً شديداً. وإذا ما عاد إلى ذكر اللقب، كان هذا دليل الرضى». وهذا يساعدنا على فهم السبب الذى من أجله يعود المخلص إلى ذكر الاسم السابق لعبده، ويضع تأكيداً خاصاً عليه... فإنه أراد أن يعطيه فرصة جديدة للحصول على لقب «الصخرة».

إن محبتنا للمسيح هى الصفة التى لا غنى عنها، التى تؤهلنا للخدمة. فالذين يحبون المسيح، هم فقط الذين يعرفون كيف يتممون مطالب الخدمة، هم وحدهم الذين يستطيعون أن يتحملوا المتاعب الناشئة عن الأشخاص العنيدى الإرادة والفاترى العزم. المحبة لازمة لجمع شتات الخراف المتعبة والمريضة، وضمها إلى أحضان الراعى، لازمة للأممات المنهكات القوى اللاتى يسلكن طريق الجبل الوعر وغير المعبد. لازمة للخراف الضالة التى يتسلط عليها دوما الميل للهرب إلى المراعى المحرمة أو الإفلات من الحظيرة. إن الصفة الأولى والثانية والثالثة اللازمة للراعى الصالح هى المحبة. لهذا كرر السيد هذا السؤال: «أتحبنى؟». وفى كل المرات الثلاث، كانت إجابته واحدة:

«أنت تعرف أنى أحبك.» على أنه أضاف فى المرة الثالثة: «أنت تعلم كل شىء»، ليس فقط باعتبارك إلهًا، له المعرفة المطلقة، بل أيضا باعتبارك صديقا تعرف شعورى وعواطفى من نحوك.

لقد أظهر بطرس مهارة فائقة فى اعتبار صمت المسيح دليلا على تأييده التصريح الذى صرّح به بأنه يحبه. ففى كل مرة، كان يفترض بأنه لو كان المسيح يعرف أنه لا يحبه، لمّا وقف موقف الصمت هذا، لأنه لو وجد لديه أقل شك فى محبة بطرس المتهبة نحوه، وولائه التام لخدمته، لمّا طاق صبرا؛ ويظهر أن هذا كان بيت القصيد فى إجابة بطرس، فإنه قد أوكّل كل شىء لمعرفة المسيح وعلمه المطلق بأفكار ونوايا قلبه، وطلب منه أن يفتّد دعواه المثلى، المتضمنة محبته إياه، لو كانت لا تطابق الواقع. ولعل الرسل، عندما تناقشوا معا فى هذه الحادثة بالذات فى الأيام التالية، اعترفوا بمحبة بطرس للمسيح، ليس فقط من إقرار بطرس، بل أيضا من مصادقة السيد عليها، ومن تكليفه المتكرر بمهمة رعاية غنمه. يقينا أن السيد لم يكن لديه أقل شك فى إخلاص عبده، وإلا لما عهد إليه مطلقا بتلك المسئوليات الخطيرة.

وهنا، نجد تعزية جزيلة. فإن الرب يعرف كل شىء، هو متطلع إلى الحشائش الدنيئة، والحشرات الحقيرة، والمخلوقات التى تدق عن أبصارنا. وهو يعرف أيضا محبتنا، ولو لم نعرف كيف نعبر عنها، ولو خجلنا من الاعتراف به.

﴿٢﴾ التواضع الذى بلا تكلف

يعبر عن «المحبة» فى اللغة اليونانية كلمتان: الأولى تعبر عن «محبة» الولاء والاحترام والعبادة التى بها نحب الله القدّوس، والثانية تعبر عن «المحبة» فى عواطفها البشرية. وفى السّؤالين: الأول والثانى، أجاب بطرس بكل وقار: «كلا يا سيد، بل إننى أحبك محبة شخصية من كل قلبى.» وأخيرا، نزل الرب إلى مستواه، وسأله عما إذا كان يحبه هكذا (محبة النوع الثانى)، فأجابه على الفور: «يقينا يا سيد، وإنك تعلم كل العلم أننى أحبك، سواء كابن الله أو كابن الإنسان.»

وعندما سأله يسوع عما إذا كان يحبه أكثر من الباقين، كانت الإشارة فى ذلك واضحة إلى افتخار بطرس وقت العشاء، إذ أعلن أنه لن ينكر المسيح ولو أنكره الجميع. على أنه إذ قد خلص من كبريائه - اعترف بصمته وبحزنه - بأنه لن يتجاسر على ادعاء الأفضلية فى المحبة. فقد كان مستعدا أن يأخذ المقعد الأخير، ويعترف بأنه أصغر الجميع. وكان يكفيه أن يشغل أحقر وظيفة. لقد رجع وصار مثل ولد صغير، ولهذا لم يتردد الرب عن أن يمسه بيده - بموافقة جميع الإخوة الواقفين حوله - ويرفعه إلى مركزه الرفيع السابق الذى خُيِّلَ إليه بأنه قد خسره إلى الأبد.

﴿٣﴾ الشجاعة التى لا تلين

لقد كان الرب يرى الصليب منذ البداية أمامه. ففى بدء ظهوره، أخبر نيقوديموس - وسط اضطراب اليهود إذ ذاك - أن «ابن الإنسان ينبغي أن يُرْفَعَ». هل نستطيع تقدير شجاعته التى تجلت فى سيره بعزم ثابت فى ذلك الطريق الذى يؤدى حتما إلى وادى ظل الموت؟ لن يخطر ببالنا لحظة أن نقلل من قيمة تلك الشجاعة الفائقة التى تدفع الجندى لمواجهة العدو فى ساحة الوَعَى عند اشتداد وطيس نيران الحرب. على أننا نقرر بحق أن تلك الشجاعة لا تقاس بجانب شجاعة أخرى من نوع أسمى، تلك التى، مع وثوقها من موت أشنع ينتظرها، فإنها لا تتقهقر، ولا تخور عزيمتها، ولا تلين، بل تتابع السير فى الطريق الذى يؤدى حتما إلى النهاية التى، إزاء مجرد التفكير فيها، يتجمد الدم فى عروق الجسم.

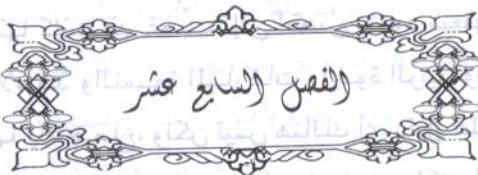
تجلت تلك الشجاعة بأكمل معانيها فى حياة المسيح «لى صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتى تكمل» (لو ١٢: ٥٠).

وكان يجب أن يتحلى بطرس أيضا بالشجاعة منذ ذلك الوقت فصاعدا «متى شخت، فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيرا إلى أية مية كان مزمعا أن يمجد الله بها» (يو ١٨: ٢١ و ١٩). قال بطرس مرة بزهو وكبرياء وغرور: «يا رب إني مستعد أن أمضى معك حتى إلى السجن وإلى الموت» (لو ٢٢: ٢٣). أما المخلص فأجابه: «لا تقدر الآن أن تتبعنى، ولكنك ستتبعنى أخيرا» (يو ١٣: ٣٦).

وهو ذا الآن قد بدأ يتبعه أخيرا . ليس هذا التلميذ أفضل من معلمه . كان يجب أن يتبعه إلى السجن في (أع ١٢)، وإلى الموت في النهاية، موت الصليب، كما يخبرنا بالتقليد، وكما تبئنا هذه النبوة . إنه يشير إلى كلمات يسوع هذه في رسالته الثانية: «عالمنا أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح» (٢ بط ١: ١٤) . يقينا أنه هو أيضا كان يحسب الصليب غايته الأخيرة، ولكنه لم يجد قيد شعرة عن طريق الخدمة بسبب أخطارها . فقد كان ثابتا لا يتزعزع، كثيرا في عمل الرب على الدوام، وكان مستعدا أن يتحمل الصليب من أجل السرور الموضوع أمامه، مستهينا بالخزي، وأخيرا وُضع له أيضا إكليل البر . لقد كانت الشجاعة التي احتملت كل تلك الآلام شجاعة نادرة، وبرهنت على أنه جدير بالقيادة .

كان توفر هذه الصفات الثلاث ممهدا الطريق أمامه ليحتل مركزا ممتازا بين الرسل، كما سنرى فيما بعد . لقد كان يتمنى أن ينعم برفقة ومساعدة يوحنا، وهذا ما بعثه على السؤال: «وهذا ما له؟» (يو ٢١: ٢١)، ولكن هذا الرسول المحبوب كان ينتظره عمل آخر في جهة أخرى . لهذا، أجابه الرب قائلا: كلا، فإن يوحنا لا يمكن أن يتفرغ لرفقتك، ولكنني سأكون معينا لك إلى الأبد . وفي رسالتيه، يتضح لنا تقديره لرفقة الله هذه، خصوصا الآية التي يقرر فيها أنه سما إلى أقصى درجات المحبة، إلى الدرجة التي لم يتجاسر على طلبها «الذي وإن لم تروه تحبونه»، لا محبة العواطف فحسب، بل محبة في أقصى حدود السمو، محبة الله نفسه .





﴿ شاهد القيامة ﴾

﴿ أع ١: ١ - ٢: ٢٦ - ١١ ﴾

﴿ لقد أعلن سره لجماعة قليلة من أضعف البشر، وهم بدورهم نقلوا الموهبة إلى غيرهم من أنقياء القلب. أما الذين هم من الخارج، فإنهم، إذ سمعوا الصوت، تعجبوا، وجعلوا هذا السر العجيب. »

﴿ نيومان ﴾



رجع بطرس مع إخوته بعد منظر الصعود إلى المدينة، ممتلئين فرحا عظيما. ورغم أن أنه تحقق من أن تلك الرفقة المباركة، التي تمتعوا بها نحو ستة أسابيع قد انتهت، وأن السيد قد صعد إلى الآب فعلا، إلا أن الدليل الأكيد على قوته العظيمة ومجده الخالد، وذكرات اليمين اللتين بُسِطتا لمنحهم البركة عند صعوده، والتأكيد الذي مُنح لهم بأن يلبسوا قوة الروح القدس بعد أيام قليلة، والثقة التي ملأت قلوبهم بأن يسوع، متى جاء ثانية، وهو سيأتى يقينا، سوف يبقى كما هو ربا وصديقا كما عرفوه - كل ذلك كان كافيا بأن يملأ قلوبهم فرحا وبهجة وغبطة أنستهم كل شعور بالحرمان، ولقد تحقق كل ما قاله لهم المعلم، ولم بتركهم يتامى.



وكان طبيعيا أن يعودوا إلى العليّة التي طالما عقدوا فيها اجتماعات مباركة كثيرة، ولعلها كانت جزءا من بيت أم يوحنا مرقس، الذي صار فيما بعد مقرا للجماعة المضطهدة. والأرجح أنها كانت قد غصّت، إلى أقصى حدود سعتها، حين اجتمع فيها كل جماعة الرسل والتلاميذ والنسوة المباركات وإخوة الرب. ويظهر أن بطرس تزعم الجماعة، وبموافقتها بالإجماع، ولكن ليس هنالك أى دليل على أنه كانت له السلطة الأتوقراطية [١] التي يحاول البعض أن يخلعوها عليه. ولكنه إنما كان مجرد قائد للاجتماع، بصفة مؤكدة، لأن الجميع كانوا يعتبرون الرب نفسه حاضرا معهم فعلا، ولو كان غير منظور، فهو الذى لجأوا إليه لاختيار أحد الأخوين اللذين قدموهما إليه لإشغال وظيفة الرسول الشاغرة «أيها الرب العارف قلوب الجميع، عين أنت من هذين الاثنين أيا اخترته».

لابد أن يكون بطرس قد تأثر تأثرا عميقا جدا، إذ قارن حالته ومركزه كقائد مكرم للجماعة، بنصيب يهوذا الذى يعرفه معرفة وثيقة. ولابد أنه قد عجب كل العجب، وخر خاشعا أمام نعمة الله التى حفظت حياته من أن تؤخذ فى ساعة تلك التجربة الأليمة التى قد خان فيها ربه هو أيضا خيانة مزرية. كان الفرق [٢] بين هذين التلميذين هو هذا: إن الواحد كان تصرفه عن عمد وإصرار؛ أما الآخر، فقد انسحب وأخذ فى تجربة مفاجئة، لم يستعد لها الاستعداد الكافى.

ويكفى هنا أن نقصر تأملنا فى طريقة انتقاء الألفاظ التى يعبر بها بطرس عن المهمة الخاصة التى كانت أمامه، هو وسائر رفقائه، كما رسمها الرب لهم فى الأيام السالفة، المتضمنة بأنهم يجب أن يكونوا شهودا لحقيقة قيامته. تأمل فى كلمات بطرس الواضحة كل الوضوح: «ينبغى أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذى فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج منذ معمودية يوحنا إلى اليوم الذى ارتفع فيه عنا يصير واحدا منهم شاهدا معنا بقيامته» (أع ١: ٢١ و ٢٢). عندما قال السيد بأنهم يجب أن يكونوا شهودا له، أدرك بطرس أن الحقيقة الوحيدة البارزة، التى يجب أن تتركز فيها شهادتهم، هى قيامته التى تتطوى تحتها سائر الحقائق الأخرى.

﴿١﴾ حكم الفرد أو الحكم المطلق أو الاستبدادى، وخاصة من الناحية الدينية. ﴿مكتبة المحبة﴾

﴿٢﴾ فوارق أخرى لا يتسع المجال لبحثها.

«١» الناحية الرئيسية في خدمة بطرس

هى الشهادة للقيامة. إن النص الأسمى لكلمة «شهادة» فى اللغة اليونانية ملئ بالمناسبات الخطيرة والمقدسة. إنه يتضمن معنى «الاستشهاد»، فكم من القديسين فى العصور الأولى ختموا شهادتهم بالدم؟ وهكذا ظلت «الشهادة» مرادفة لتسليم الحياة وسط مخاطر السيف، والنيران، والسجون. فلنقرأ هذه الكلمة بكل خشوع ورهبة، ولا نستخف بها. فهى تعبر عن الدموع، والدماء، وآلام الموت، والنور الساطع من وجه يسوع على وجوه المؤمنين الشاخصة إلى فوق فى ساعة الاحتضار.

يجب ألا ننظر لقيامه المسيح كعقيدة لاهوتية فحسب، بل كحقيقة الأمر الواقع. صحيح أنها بشاره، فلسفة لاهوتية، فيها يلخص عمل المسيح. وهى تريح القلب، وتحقق أعمق رغباتنا، وتتفق مع مظاهر الطبيعة الصامتة المماثلة، وتتفق مع نبوات الأنبياء التى أذيعت منذ بدء العالم. ولكنها، مبدئياً، حقيقة تاريخية نقلها إلينا وأكدها عدد عظيم جداً من الشهود النزيهين المخلصين.

إذن، فهناك فرق عظيم جداً بين الحجج التى يدعم بها أفلاطون وأمثاله عقيدتهم فى خلود النفس، وبين عقيدتنا فى قيامة المسيح. كانوا يعتقدون أن النفس سوف تحيا ثانية بعد فرصة العمر القصيرة هذه، كما يتقل العصفور بين غرفة مظلمة وغرفة منيرة، وأنه سوف تكون هنالك دينونة ينتصب فيها الميزان، وعندها تُردّ المظالم التى حلت بالبشر. كانت هذه وأمثالها هى الحجج التى يدعم بها المصريون واليونانيون والأنجلو سكسونيون عقيدتهم فى ترجيح الحياة الأخرى. أما فى قيامة المسيح، فقد واجهت البشر حقيقة لا تُدحر، هى أن جسد المسيح المقام من بين الأموات «ظهر أياماً كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل إلى أورشليم، الذين هم شهوده عند الشعب» (أع ١٣: ٣١).

إذن، فهناك فرق واضح بين فلسفة أفلاطون فى إثبات الخلود، وبين الإيمان المسيحى فى القيامة التى أنارت لنا الحياة والخلود كحقيقة ثابتة أشد الإثبات. قال بطرس ورفاقه: «إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة... ونحن شهود له بهذه الأمور» (أع ٥: ٣٠ و ٣٢).

هذه كانت شهادته يوم الخمسين. وعندما استخدمه الله لفتح باب الإيمان للأمم
فى بيت كرنيليوس، قال: «هذا أقامه الله فى اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهرا،
ليس لجميع الشعب، بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد
قيامته من الأموات» (أع ١٠: ٤٠ و ٤١).

﴿٢﴾ استعداد بطرس للخدمة

قبل أن يبدأ يسوع خدمته، مُسح بالروح القدس، وبعد أن قضى أربعين يوما فى
البرية «رجع بقوة الروح إلى الجليل». إن كان هذا ما صار مع المسيح (أى الممسوح)، فكم
يجب على أتباعه أن ينحنوا تحت مسحة الروح القدس، حتى يمكن أن يدعوا بالحق
مسيحيين أى ممسوحين؟

هذا ما وعدنا به بنفسه «إنى ماضٍ إلى أبى... وأنا أطلب من الآب فيعطيكُم
معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق» (يو ١٤: ١٢ و ١٦ و ١٧). وإذا ارتفع
إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، فإنه لم يخلف وعده الأكيد، ولكنه صار مستعدا
- كرأس الكنيسة - أن يسكب من ملء الروح القدس على جميع الذين يتحدون به
بإيمان حى.

انتظروا يوما بعد يوم، أحيانا فى العلنية، وأحيانا، بل معظم الأحيان كما أخبرنا
لوقا، فى الهيكل، مسبحين الله بفرح عظيم، ومتسائلين متى، وبأية كيفية، يُمنحون تلك
القوة الموعودة. ولا شك فى أنهم قد رددوا مرارا تلك الكلمات الوداعية، وتأملوا فيها
طويلا: «وتنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم..» على أنهم استمروا جميعا فى
الصلاة مع النساء، ومريم الأم المباركة... وإخوته كانوا كل يوم يتوقعون إتمام ذلك
الوعد، ولم تمض عشرة أيام حتى كان للصبر عمله التام.

كان أول الأسبوع، وفضلا عن هذا، فقد كان يوما من الأيام الرئيسية، لأن الكهنة
كانوا يقدمون فيه إلى الله، فى خدمة خاصة فى الهيكل، الأرغفة الأولى من الحصاد
الجديد. كانت وفرة المحصول وجمعه بأمان موضوع تهنئة بين جميع أفراد الشعب،
وموضوع شكر عام لله. ولذلك كانت المدينة (أورشليم) تغص بالجماهير الغفيرة

من جميع أطراف العالم. وفى ذلك اليوم كانت تُزَيَّن البيوت، وترتدى أفخر الملابس، وتقام الحفلات... «ما أجوده وما أجمله. الحنطة تنمى الفتیان، والمسطار العذارى» (زك ٩: ١٧).

كان الوقت فى الصباح المبكر، وكانت الكنيسة، وهى إذ ذاك لا تزال فى مهدها، مجمعة على الأرجح فى إحدى دور الهيكل، كانوا جميعا فى مكان واحد، وإذا بصوت من السماء، كما هبوب ریح عاصفة، أزعج المدينة كلها، وظهر منظر كأنه كرة نارية تفجرت إلى ألسنة من نار واستقرت على كل واحد منهم. تقرّس بطرس فى يوحنا، ورأى تلك العلامة الواضحة فوق رأسه المنحنية إلى أسفل، غير متحقق من أن نفس الحادث العجيب تم معه هو أيضا. وإذا تطلع حوله، ورأى كل واحد متوجا بنفس هذا التاج النارى، أدرك أنه هو أيضا صار له نصيب فى معمودية النار هذه. ولعله تذكر فى تلك اللحظة كلمات معلّمه الأول: «الذى يأتى بعدى هو أقوى منى، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣: ١١). وهكذا امتلأت كل الجماعة - بطرس وسائر الإخوة - من الروح القدس، «وابتدأوا يتكلمون بالسنة أخرى. كما أعطاهم الروح أن ينطقوا».

وللحال، لدى سماع ذلك الصوت غير العادى الذى انبعث من الهيكل، اجتمع جمهور غفير جدا من الرجال الأتقياء، يهود ودخلاء، الذين كانوا قد قدموا إلى أورشليم من كل أمة تحت السماء، من الشرق حتى حدود ميديا، ومن الشمال حتى حدود بحر قزوين، ومن الغرب حتى حدود مصر وليبيا وروما عاصمة العالم. وإذا تدفقت إلى ساحة الهيكل تلك الجموع الزاهرة المتعجبة، بل المنذهلة، اقترب منهم جماعة التلاميذ، الممثلين حديثا من الروح القدس، حاملين معهم اختبارهم الجديد، وبدأوا يشهدون لهم بالقيامة المجيدة لذاك الذى رفضه قادتهم حديثا، وسمّوه على الصليب. شهد أحدهم ليهودى من اليونان، بلغة يونانية فصيحة جدا، وأخبره بأن المسيح قام. والتقى آخر يهودى اكتسب الرعوية الرومانية بسبب إقامته فى روما، وقص عليه رواية المسيح بلغة دونها لغة شيشرون وهوراس. والتقى ثالث بجماعة، يبدو من لباسهم أنهم من أهل العرب، وبدأ يقص عليهم رواية الإنجيل بلغتهم، وهم يصفون متعجبين.

حينئذ وقف بطرس وبدأ يتحدث. كانت عظته مجرد سرد فقرات طويلة من العهد القديم، مع تعليق بسيط عليها، وتطبيقها على الساعة الراهنة. على أن تأثيرها كان عجيبا جدا. فإنه، إذ بدأ هذا الصياد الجليلي يتكلم، هدأت بغتة تلك الجموع الصاخبة، وصاروا فى سكون عجيب وإصغاء تام، وملك المتكلم بغيرته النارية عقول السامعين، وصارت الجماهير المتفرقة جماعة واحدة، وسادهم جميعا شعور واحد عجيب. وفجأة، انقطع حبل الصمت، إذ انبعث من أرجاء المكان صراخ كصراخ رجل على بكره، ثم تبعه بكاء كبكاء امرأة على وحيدها. وانفجر السامعون بالدموع، والتتهذات، والآلام النفسية الشديدة، وانبعث من كل الجماعة هذا السؤال: «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة؟»

امتلا بطرس بالروح القدس بعد ذلك مرتين على الأقل، لأن هذا ما يبينه لنا الكتاب المقدس. ولكن، لعله امتلا مرارا وتكرارا؛ فقد امتلا يوم الخميس، ومرة أخرى يوم كان يخاطب رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل (أع ٤: ٨)، ومرة ثالثة عند عودته مع يوحنا إلى رفقائهما بعد محاكمتهما أمام السنهدريم (أع ٤: ٢١). إذن، فلماذا تتقضى السنون تلو السنين، دون أن نطالب بحقنا فى هذه القوة الخمسينية؟ إن البشر فى جيلنا الحاضر لا يكتفون بالقوات الميكانيكية التى كان يقنع بها آبائهم، بل يحاولون دواما الوصول إلى الاختراعات الجديدة التى تمكّنهم من الانتفاع بقوى الطبيعة المخبوءة وعدم ضياعها هباء. فإنهم فى بداية الأمر، نبذوا القوة اليدوية واستخدموا قوة البخار، ثم استخدموا القوة الكهربائية بدل قوة البخار، ثم حلت قوة الأثير محل القوة الكهربائية. إنهم يحاولون الوصول إلى أعظم القوات الممكنة لإدارة ماكيناتهم. فلماذا نقصر نحن فى الانتفاع بتلك القوة الروحية الجبارة، التى تبينّت لنا عينة منها يوم الخميس، والتى نجد مفاتيحها فى يدى الرب يسوع المسيح، الذى ينتظر حتى يفتح ما لا يمكن لأحد أن يغلق، ولو أنه يغلق الباب فى وجه كل الذين يرفضون قبولها بالإيمان. إننا لسنا متضيّقين فى الله، بل فى أنفسنا، فإلهه يفتح الباب على مصراعيه أمامنا، أما نحن فنضيق على أنفسنا (كو ٦: ١١). إننا لسنا نمتلك لأننا لا نطلب، أو لأننا نطلب رديا (يع ٤: ٢ و ٣).

إن الوعد هو لنا، ولأولادنا، ولكل الذين على بُعد (وهذه إشارة إلى دعوة الأمم)، ولكل من يدعو الرب إلينا. وهكذا يمكن أن تصير البركة - التي كانت محصورة في اليهود أولا - ميراثا للأمم أيضا، الذين يؤمنون بالمسيح فإنهم هم أيضا يستطيعون أن ينالوا الروح القدس بالإيمان. لا يوجد مؤمن واحد، ممن يقرأون هذه السطور، ليس له حق المطالبة بهذه الموهبة... قد يكون الروح فينا مجددا، ولكن من الضروري أن يستقر علينا أيضا إن أردنا إتمام خدمتنا البشرية. كل علم، كل بلاغة، كل تعليم، كل هذه إن كانت تخلو من الروح القدس، لن تقيد في الكرازة بالإنجيل للمساكين، وشفاء المنكسرى القلوب، والمناداة للمأسورين بالإطلاق وللعمى بالبصر. يجب أن نتعلم القول: «روح الرب علىّ لأنه مسحني». لماذا لا نعترف هنا بأنه توجد هنا بركة لك الحق في المطالبة بها، ولكنك إلى الآن لم تمتلكها؟ لماذا لا تبحث عن الخطية أو الشكوك التي حرمتك من هذه العطية، ثم تعترف بها، وتطلب الخلاص منها؟ لماذا لا تفتح قلبك بكل تواضع لدخول ذلك الروح المبارك الذي يغير القلب الهزيل إلى قلب جرىء، ويخلق من أضعف مخلوق أقوى الأبطال كملاك الرب.

﴿٣﴾ مميزات خدمة الشهادة التي قام بها بطرس

﴿١﴾ كانت بمثابة:

فإننا نراه يؤدي الشهادة يوم الخميس (أع ٢)، وفي خطابه الثاني العظيم عند شفاء الأعرج (أع ٣)، وفي احتجاجه أمام الولاة والشيوخ والكهنة والكتبة (أع ٤: ١٠)، «وبقوة عظيمة كان يؤدي الشهادة بقيامة الرب يسوع» (أع ٤: ٣٣)، وفي صراعه الثاني مع المجمع (أع ٥: ٣٢)، وفي إجابته على الأسئلة التي قدمها إليه كرنيليوس وأصدقائه (أع ١٠: ٣٩ - ٤١). في كل هذه المناسبات كان بطرس يشهد بصفة مستمرة وثابتة لهذه الحقيقة الجوهرية الواحدة، وهي أنه إن كان يسوع قد «صلب من ضعف، لكنه حي بقوة الله» (٢ كو ١٣: ٤).

وهكذا، بعد انقضاء عدة سنوات، وعندما كان بطرس يدون رسائله الأخيرة إلى المتفرجين من شتات كل الأقطار التي كانت ممثلة في الهيكل عند حلول الروح القدس لأول مرة، لا ندهش إذ نجده يقول إن الله قد ولده ثانية - كما ولد غيره - لرجاء حي بقيامه يسوع المسيح من الأموات (١ بط ١: ٣)، وأن الخروج من ماء المعمودية رمز لقيامه جسد المسيح من القبر إلى «يمين الله إذ قد مضى إلى السماء، وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له» (١ بط ٣: ٢١ و ٢٢).

﴿٢﴾ وكانت مركزة على الأقوال الكتابية:

هذا ما نلاحظه في عظة يوم الخمسين المكونة من ٢٢ آية، حيث نجد ١٢ آية منها مقتبسة من الأنبياء والمزامير. هذا ما نلاحظه أيضا في الإصحاح التالي، حيث يشير مرتين إلى النبوات المتضمنة بأنه كان يليق بالمسيح أن يتألم، وأن يقوم من بين الأموات في اليوم الثالث. ويبدو كأن استنارة خاصة قد مُنحت له بالروح القدس، روح الإرشاد، لكي يستطيع فهم أسفار العهد القديم، ويدرك أنه لاق بيسوع كل ما هو مكتوب عنه في ناموس موسى والأنبياء والمزامير.

هذا ما يحصل دواما، فالروح يشهد «للكلمة»، وشهادة يسوع هي روح النبوة (رؤ ١٩: ١٩). وعندما تمتلئ النفس بالروح القدس، يصير روح الحكمة والفهم لمعرفة الكتاب المقدس، الذي يصبح في غاية الوضوح والجلال. فنتوسل إليك أيها الروح القدس أن تكشف عن عيوننا لكي نرى وجه يسوع ينعكس على كل سفر من أسفار الكتاب، كما في مرآة، إلى أن نراه يوما من الأيام وجها لوجه.

﴿٣﴾ وكانت مستمرة النمو في البصيرة والتمييز والإدراك:

كلما ارتفع المرء على الجبل، ازداد اتساع المراتب أمامه... فإنه يرى أولا كل المرتفعات، ثم يرى ما هو أقل ارتفاعا منها، ثم يرى المراعى الخضراء، ثم يرى البحار المترامية الأطراف. هكذا الحال مع الروح القدس، روح الإعلان، فإن بطرس بدأ بهذا: «يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَلِ الله» (أع ٢: ٢٢)، ثم تدرج إلى «ربا ومسيحا» (أع ٢: ٣٦)، ثم إلى «يسوع المسيح الناصري»

(أع ٣: ٦)، ثم إلى «فتاه (ابنه) يسوع» (أع ٣: ١٣)، ثم إلى «القدّوس البار» (أع ٣: ١٤)، وأخيرا يسمو إلى قمة الإعلانات «رئيس [١] الحياة» (أع ٣: ١٥).

«رئيس الحياة»، إذن فهو «أمير» و «ملك»، ويستحق الإكرام والولاء من جميع الأحياء... «رئيس الحياة»... هناك عالم آخر لا نراه بعيوننا البشرية، فيه يحيا الجميع، ويحيون له... «رئيس الحياة»، أو حسب المعنى الحرفي «مبدئ الحياة»، ولهذا قال: «من آمن بى ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيا وآمن بى فلن يموت إلى الأبد» (يو ١١: ٢٥ و ٢٦) يا «رئيس الحياة»... السلام لك.

فلنحسب كل شيء نفاية لنريح ملء معرفة ابن الله بإرشاد القدس. لننس ما هو وراء كل ما عرفناه عنه، ولنسح إلى ما هو قدام لنعرفه وقوة قيامته. لنحسب كل شيء نفاية فى سبيل فضل معرفة المسيح يسوع ربنا. وحتى إن رأى المعلم الإلهى أن نجوز بوتقة الآلام أو الحرمان من أى شيء عزيز لكى يعطينا فرصا جديدة واختبارات جديدة لمعرفة ابن الله، فيجب ألا نتذمر، لأن القلب البشرى لا يمكن أن يصل إلى كامل معرفة المسيح إلا بعد أن يتعلم كيف يتشبه بموته. والتاجر حين يترك كل شيء لكى يحصل على اللؤلؤة الكثيرة الثمن، يجد أن ما ربحه أثمن بكثير من تضحيته.

✠ ٤ ✠ وكانت مؤسسة على اختباره الفعالية:

مما يلاحظ عن شهادة بطرس لقيامه المسيح، أنه لا يشير إلى منظر القبر الفارغ، أو الأكفان المرتبة، أو منظر البستان، أو رؤية يديه وجنبه، أو تناوله الطعام مع تلاميذه على شاطئ بحر الجليل، أو منظر الصعود على جبل الزيتون. ولكنه يقول: يمكنكم أن تحكموا مما ترونه «هذا الذى أنتم الآن تبصرونه وتسمعون» (أع ٢: ٣٣). وبعبارة أخرى، إنه لم يحس فقط بأن يسوع فى الجانب الآخر من الحجاب الرقيق الذى يحجب عنا غير المنظور، ولكنه

✠ ١ ✠ «مبدئ» حسب ترجمة اليسوعيين، «أمير» حسب الترجمة الإنجليزية.

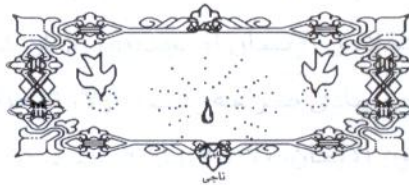
كان يحس أيضا بأنه لا يزال يعمل كل يوم، وأنه قد وصل إلى يمين الآب وأرسل الروح القدس كوعده، وأنه كان يقويهم بمنحهم جسارة، وبصيرة، وكلاما. وأنه كان يعمل معهم ويؤيد كلماتهم بالآيات التى تتبع المؤمنين. وأنه كان يجعل العرج يمشون، وأبواب السجن تفتح، والقلوب القاسية تذوب. لو أن أولاد يعقوب كانوا قد اكتفوا بمجرد إقناع أبيهم بالكلام بأنهم رأوا يوسف فى مصر، لَمَا كان قد صدّق كلماتهم مهما كان فيها من تأكيد، ولكنهم حين أخرجوه ليرى العربات التى أرسلها يوسف، والتى تبينّ منها أنها من صنع مصر، وأن الثيران هى من مواشى مصر، اقتنع، وصرخ قائلاً: «كفى. يوسف ابنى حى بعد. أذهب وأراه قبل أن أموت.» بنفس هذا المقياس، قال بطرس: «يسوع الذى أسلمتموه أنتم، وأنكرتموه أمام وجه پيلاطس... أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك» (أع ٣: ١٣ و ١٥)، ويشترك معنا فى هذه الشهادة «الروح القدس أيضا» (أع ٥: ٣٢). وهكذا، لم تكن شهادة هؤلاء الشهود الأولين قوية فقط، بل كانت عن يقين. وعندما كانوا يؤكّدون أن يسوع مات وقام وأنه حى، فإنما كان الروح القدس يؤيد تأكيده فيهم؛ «نعم، قال الروح»، فقد كان يقف بجانبهم، لا ليبتك الشر على خطية وعلى بر وعلى دينونة فقط، بل أيضا ليعطى عجائب السماء من فوق، وآيات على الأرض من أسفل، دما ونارا وبخار دخان (أع ٢: ١٩).

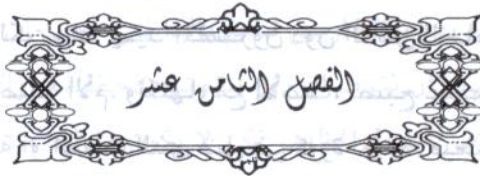
هكذا أيضا عندما تكون لنا الحياة الطاهرة النقية، فإنها تؤيد شهادتنا للمسيح الحى. عندما نتغيّر عن تصرفاتنا السابقة ونطلب ما هو فوق، وعندما نستمد من المصدر غير المنظور تلك القوة التى تغلب العالم، ويصير ذلك واضحا وجليا، عندما يكثر فرحنا فى الآلام والأحزان كينابيع المياه العذبة وسط المحيط، إن كنا ونحن فقراء نغنى الكثيرين، ونحب ولو كنا مبغضين، ونصلى ولو كنا مضطهدين، ونطلب المغفرة لمن شهّر بنا وأساء إلينا - فإننا نبرهن على أن المسيح حى. يجب أن نقول كإستفانوس: «ها أنا أنظر السموات مفتوحة، وابن الإنسان قائما عن يمين الله»، ويجب أن يكون المنظر الملائكى على وجوهنا مؤيدا لكلماتنا.

نحن نعلم أن يسوع تألم على عهد بيلاطس البنطى، وصلب، ودفن، ولكن مصدر حياتنا لا ينبع من تلك الحفرة التى نُقِرَّتْ فى الجلجثة لتتقبل صليبه. ونحن لم نُدع لكى نكتفى بالبقاء تحت ظلال الصليب وآلام المسيح وموته. كما أننا لسنا فى حاجة إلى شهادة الكنيسة لتحمل إلينا دمه الزكى الكريم الذى هو حياة حقا. ولكننا قد دُعينا لكى تكون لنا شركة مباشرة مع رئيس الحياة، والحياة التى وهبها لنا تنبض الآن فى شراييننا، وقد صار لنا فكر المسيح وأدركنا مقاصده. إننا نتحدث عما نعرفه، ونشهد لما رأيناه؛ الذى شاهدناه ولمسته أيدينا فى اختباراتنا، هذا هو الذى نشهد به.

إن كنا نحن الذين نعترف باسم المسيح، نتنظر على بابه، حتى يسمح لنا بالدخول، كما فعلت أستير فى قصر أحشويرش، لذهبنا إلى الآخرين بكلماته القوية فى أفواهنا... ونوره فى قلوبنا... حتى نلزمهم بالاعتراف. إن شهادة كهذه، لا يمكن إلا أن يكون الباعث لها شخصية أخرى من وراء الحجاب لا يعرفونها هم.

ولماذا نتباطأ؟ إننا قد دُعينا للدخول إلى الأقداس... من خلفنا ترى بقية الحجاب الممزق، وأمامنا مجد الله فى وجه المسيح؛ ونحن قد دُعينا لننظر هذا المجد بوجه مكشوف، فيجب ألا نتنازل عن ذلك الامتياز العظيم الذى لنا. يجب ألا تكون نظم العبادة، أو الطقوس، أو خدماتنا الروحية، بل نفس جهودنا نحو الحياة الطاهرة، حائلة بيننا وبين رؤية المسيح المقام من بين الأموات رؤية مباشرة. وعندئذ نخرج إلى العالم بحياة قوية، تلزم أقرب الناس إلينا بأن يتحولوا من النظر إلينا إلى النظر إلى شخص المسيح نفسه الحى إلى الأبد. إن الضوء الذى نراه على وجه القمر المعتم فى ذاته، يشهد بلا شك لوجود الشمس وإن كنا لا نراها. ونحن إذ نعيش فى دائرة المسيح، نصبح شهودا لقيامته، ونحمل فى حياتنا شهادة الروح القدس.





﴿ باسمه ﴾

﴿ أع ٣: ١٦ ﴾

❖ «ليتك تقوينى بقوتك المنية، حتى إذا ما

وقفت قويا على الصخر، قويا فيك، ومعتزا

بشدة قوتك، استطعت أن أمد يد المحبة

للذين يجاهدون وسط الأمواج المتلاطمة.»

﴿ ف. ر. هافر جال ﴾



«وبالإيمان باسمه شدد اسمه... إذن فاسمه يجب أن يقترن

بالإيمان باسمه. إن اسم يسوع، أى طبيعته، قد ينسكب كالرائحة

العطرية فى الهواء، أو كالنور من الشمس. ولكن، يجب أن يكون هنالك

عنصر آخر متوافرا، لإمكان الانتفاع بتلك الرائحة العطرية أو بهذا

النور، وإلا ضاعا هباء لعدم تقديرهما. قبل أن يوهب الشفاء التام لأى

مريض، يجب توفر الإرادة الإلهية، وهذه مضمونة فى المسيح؛

والاستعداد للقبول، وهذا هو الشرط اللازم من ناحيتنا. لا يمكن أن يتم

أى عمل عظيم كخلاص الإنسان أو تجديده، إلا إن كان الواعظ أو المعلم

أو الخادم المسيحى ينادى صراحة باسمه أولا، ثم بالإيمان باسمه، ليس

باسمه فقط دون الإيمان، ولا بالإيمان فقط دون اسمه، بل باسمه

وبالإيمان باسمه.



قد يكون المنظر مبسوطا أمامنا من قمم الجبال العالية، حتى مياه البحيرة التي تحت أقدامنا. ولكن، لكي نتمتع برؤيته، يجب أن تكون لنا عين سليمة. قد يفسر الحق بكل وضوح وبلاغة، ولكن ماذا يفيد المفسرون دون الذهن الحاضر والعقلية المتيقظة. قد تنبض المحبة في صدر الأم، ولكنها، مع الأسف، تصبح عديمة الجدوى، إن كانت لا تجد تقديرا من الشابة أو الشاب الذي ضل في كورة بعيدة. فيجب أن يتوفر على الدوام الاسم، ثم عنصر الإيمان بالاسم. تعلم بطرس هذا الدرس جيدا تحت إرشاد الروح القدس، وأعلن في خطابه الخطير الثانى أن اسم الرب المقام من بين الأموات، مقترنا بالإيمان الحى، يهبان الصحة الكاملة.

﴿ ١٥٦ : ٢١ ﴾

﴿ ١٥ ﴾ ماذا رأى بطرس؟

له أن يرى، فعيننا تلتفت بحقيقة دائمة

كان الهيكل يتضمن ثلاث دور رخامية، مرتفعة ارتفاعا تصاعديا. وكانت الدار الأولى بمستوى أرض المدينة، وهى الوحيدة التى كانت تفتح للأمام، ومنها يبتدىء درج إلى الدار الوسطى التى يجب ألا تتعدها النساء، ثم يرتفع درج آخر إلى الدار العلوية التى أقيم فيها المذبح وقدس الأقداس. على هذا الدرج الثانى، الذى لا يصعد إليه إلا الرجال اليهود، كان يوجد الباب الجميل بمستوى الهيكل. كان هذا الباب مصنوعا من النحاس الكورنغى المطعم بالمعادن النفيسة، والمغشّى برقائق ذهبية وأخرى فضية، إذا ما سطعت عليه الشمس، أكسبته روعة ومجدا وجلالا.

كان مدخل الهيكل يتجه ناحية الشرق، لكي تصوير عبادة الشمس مستحيلة. ولذا، فكان هذا الباب العظيم، المنقوش عليه نقوش تمثل الكرمة، أول ما يستقبل الشمس لدى إشراقها. ولقد كان من الضخامة بحيث يحتاج إلى عشرين رجلا لفتحه أو غلقه. وكان من اللائق بهيكل الله أن يكون الباب المؤدى إليه هو الباب الجميل. نحن نذكر أن المرئم تغنى «بالزينة المقدسة» (مز ١١٠ : ٣)؛ ولطالما أعن الله ذاته فى مظاهر الجمال فى الطبيعة، فأينما اتجهت أنظار الإنسان - فى السماء أو فى الأرض - رأى جمال الطبيعة المنقطع النظير. عندما تكون محبة فى قلوبنا، فإنها تفصح عن ذاتها فى تدوين الأشعار الرائعة، أو فى هندسة البناء الجميلة، أو فى الموسيقى الشجية. هذا حق،

طالما كنا لا نسمح للعوامل الخارجية أو للشهوات الجسدية بأن تفسد شركة الروح. قد يكون لدينا الباب الجميل، ولكن يجب ألا نلبث أمامه متفرسين في جماله، وإلا صار لنا فخا وعثرة، بل يجب أن نهجر الخارجى لننعم بالداخلى. يجب أن نترك الأمور الجسدية لنتمتع بالروحية... يجب أن نترك الرموز لنتمتع بالحقيقة، وإلا صار الأفضل لنا أن نهجر الجميل ونعبد فى أبسط المظاهر لكى لا يكون هنالك ما يحول أنظارنا عن الله الكلى القداسة الذى لا يسكن فى بيوت مصنوعة بالأيدى، فالجمال وحده لا يمكن أن يهب الصحة أو يمنح الحياة.

وهنا، نجد مثلاً بارزا يبين ضعفه متى كان بعيدا عن روح الحياة، لأن هذا الإنسان البائس، الذى قضى أكثر من أربعين عاما فى حالته التعبة، إذ كان مقعدا منذ ولادته، كان فى فقر مدقع حتى إنه كان يعيش على إحسان المحسنين. ولأجل هذه الغاية، كان يحمل من كوخه الحقيقى حتى الباب الجميل، الذى كان يجلس بجواره سنة بعد سنة يستعطى من الجماهير، لدى اجتيازها إياه إلى الهيكل، حتى أصبح شخصية معروفة لأهل المدينة الذين تعودوا الدخول إلى الأقداس. مما يشهد لقوة الحياة الدينية، أن يجتمع المساكين حول نارها ليستدفئوا من نبد العالم إياهم. ولكن، لا يجب أن نكتفى بمجرد الرثاء لحالهم، إذ نجوز مقابلهم، كمن يحاول التخلص من مسئولية مساعدتهم. والأجدى جدا أن نبحث عن أسباب هذا البؤس والفقر، وأن نسعى عن أن نقذف بعمله حقيرة فى تلك الأيدى المبسوطة ونعبر إلى حال سبيلنا، لأنه ليس هذا هو المطلوب منا عمله كحراس لإخوتنا.

صعد بطرس هو وشريكه فى الخدمة الرسولية إلى الهيكل لحضور الخدمة المسائية، فرأى ذلك البناء الضخم الذى كان يعتبره ثروة قائمة بذاتها، وكان من الجائز جدا أن يفتن بجمال ذلك الباب الذى كان مزمعا اجتيازه. ورأى أيضا ذلك المنظر المألوف، أى ذلك الأعرج البائس المسكين؛ على أنه رأى شيئا آخر لم يكن ممكنا للعين غير الطاهرة أن تراه. فإنه، إذ كان فى الروح، كانت أسرار العالم الروحى مكشوفة أمامه. ولهذا رأى ذلك الأعرج سليما، معافى، قويا، مملوءا من موسيقى الحياة البشرية المكتملة. رأى ذلك الإنسان المثالى يرفرف - كمنظر جميل - فوق ذلك الإنسان المسكين

الذى ليس لباس البؤس وقتيا . كان الإنسان المزمع أن يرافقهما فى الهيكل، مجتازا ذلك الباب الجميل، «وهو يمشى ويطفر ويسبح الله»... حقيقة رآها بطرس فى العالم الأبدى الروحى، ولكنها تنتظر أن تتحقق فى هذا العالم الزمنى المحدود.

ورأى أيضا رئيس الحياة، أقرب إليه من نسمة فيه، وألصق به من يديه ورجليه؛ رأى رب الهيكل بجانبه مستعدا للتعاون معه، فى يده قوة الحياة التى لا يتطرق إليها الوهن، مشتاقا أن يمنح تلك القوة التى يحتاجها ذلك المُقعد المسكين. هنا الضعف، وهنالك الحياة الخالدة... هنا اليأس، وهنالك الرجاء والملجأ الحصين... هنا الألم الممض بسبب المرض الطويل الأمد، وهنالك الفجر بضياؤه ومجده. كان المطلوب هو تقريب هاتين الناحيتين المتباعدتين وضمهما إلى بعضهما؛ فكان يجب أن يتوفر «اسمه». ولكن الأمر يتطلب شيئا آخر، كان يجب أن يتوفر «الإيمان باسمه»، حتى توهب لهذا الأعرج الصحة الكاملة المتوفرة فى رئيس الحياة.

﴿٢﴾ وماذا فعل بطرس؟

إن تلبية الأعرج السريعة لنداء بطرس، «باسم يسوع المسيح الناصرى»، تفترض أنها كانت نتيجة تفكير طويل من جانب الأعرج احتل قلبه من قبل.

لا شك فى أنه كان يعرف شخص يسوع الناصرى تمام المعرفة، فقد رآه مرارا يجتاز ذلك الباب. ولكنه كان يرى أنه لا منظر له ولا جمال، ولا مظهر الثراء، ولا ما يشجعه على أن يطلب منه صدقة؛ بل كان منظره يدل على أنه جليلى بسيط... فعندما قُسمت ثيابه، كان الشيء الوحيد الذى نال تقدير الجند هو قميصه الداخلى. على أن الإشاعات الغريبة كثرت أخيرا حول الناصرى، فكل أورشليم عرفت جميع ما يتعلق بالقبض عليه، ومحاكمته، وصلبه. وكان موضوع حديث الجميع وتفكيرهم، تلك الظلمة غير الطبيعية التى صحبت آلامه، والزلزلة التى اقترن بها موته. والأعرج نفسه كان مضطجعا فى نفس المكان الذى خرج إليه الكهنة واللاويون من الهيكل مذعورين، لأن الحجاب قد انشق من فوق إلى أسفل، كأن يدا غير منظورة قد مرزقته. ولعله أيضا سمع القوم يتجاذبون أطراف الحديث عن أمر القبر الفارغ، وضعود المسيح العجيب على جبل

الزيتون. أما حادثة يوم الخميس العجيبة، التي تمت أخيراً، ونتائجها الخطيرة، فقد كان له كل الإلمام بها، لأنها تمت فى الهيكل. كذلك سمع القوم يتحدثون معاً عند خروجهم عقب عظة بطرس. أما معمودية الثلاثة آلاف فى أجران الهيكل العظيمة، فقد كانت عجيبة جداً، حتى أنها لا يمكن إلا أن تكون قد وصلت إليه أخبارها. كانت هذه الأخبار وأمثالها موضوع تفكيره بضعة أيام، ولم تكن إلى ذلك الوقت قد خرجت إلى حيز العزم أو العمل، بل كانت تنتظر قوة إضافية لكى تدفعها إلى الإيمان الحى الكامل.

يخبرنا كاتب سفر الأعمال أن حادثاً مماثلاً تم مع بولس فى لسترا، فقد كان هنالك أيضاً رجل «عاجز الرجلين، مقعد من بطن أمه، ولم يمش قط. هذا كان يسمع بولس يتكلم». ويخبرنا الكتاب أن الرسول، عقب حديثه، ثبّت عينيه فى هذا المسكين، «وشخص إليه» [١]، «ورأى أن له إيماناً ليُشفَى» (أع ١٤ : ٨ و ٩).

إن وجه الشبه بين هذين الحادثين ظاهر جداً، فلا يجوز أن نمر عليه مرور الكرام. ولنا أن نستنتج بأن الرسول أدرك فى الحال أن للمقعد إيماناً للخلاص، وكان فى ذلك مسترشداً بوحى إلهى، وبما رآه من شعاعة الإيمان البسيطة الساطعة على وجهه. لذلك رأى من واجبه أن يزيد تلك الفتيلة المدخنة اشتعالاً ... لقد كان متوفراً النبات والسنبل، والقمح يملأ السنبل.

كانت إحدى وصايا المسيح للرسول، حين أرسلهم للكراسة فى بداية الأمر: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم، ولا مزوداً للطريق». ظل الرسل محافظين على هذه الوصية حرفياً بعد موته، وكانوا يأكلون على مائدة واحدة، مُعدّة من صندوق واحد. لهذا، فقد كان بطرس صادقاً حين قال: «ليس لى فضة ولا ذهب».

فى العالم أربعة أصناف من البشر:

﴿١﴾ أشخاص ليس لهم فضة ولا ذهب ولا شىء آخر يعطونه. هؤلاء يشبهون عود قش على مياه المحيط.

﴿٢﴾ هى نفس الكلمة المستعملة فى الأصل اليونانى فى حادث الأعرج الأول: «فتقرس فيه بطرس»

(أع ٣ : ٤).

﴿٢﴾ أشخاص لهم الفضة ولهم الذهب، ولكن ليست لهم ثروة أدبية أو روحية. هؤلاء عالة على البشرية.

﴿٣﴾ أشخاص ليس لهم فضة ولا ذهب، ولكنهم كبطرس لهم البصيرة، والإيمان، والرجاء، والمحبة. هؤلاء أغنياء فيما لله.

﴿٤﴾ أشخاص لهم الفضة ولهم الذهب، ولهم فوق ذلك «كل ما هو جليل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مسر، كل ما صيته حسن».

كان الرسل من الصنف الثالث، فقد كانوا فقراء، ولكنهم أغنوا الكثيرين... كان لا شيء لهم، مع أن لهم مفاتيح الكنوز الإلهية... لم يكن لهم فضة ولا ذهب؛ وفي هذه الناحية يختلف عنهم الكثيرون ممن يدعون أنهم خلفاؤهم، كما قال البابا لتوما الإكويني. ولكنهم - كما قال الإكويني للبابا - بعيدون كل البعد عن تلك القوة الروحية التي لا تُمنح إلا بواسطة الروح القدس.

ليست الثروة مقياس العظمة، ولا هي مقياس قيمة نفع الإنسان. فالبشرية مدينة أولا لأولئك الذين لم يمتلكوا إلا القليل من حطام الدنيا، ولكنهم ازدادوا «فى الإيمان، والكلام، والعلم، وكل اجتهاد، ومحبة». ويفقر المسيح قد استغنينا بكل الكنوز الروحية، وتأهلنا لميراث لا يفنى ولا يضمحل. هنالك خزائن فى السماء لا يتطرق إليها البلى، وكنوز لا تخيب لنا رجاء، إذ لا يدنو منها اللصوص ولا يفسدها السوس.

هو ذا فتاة صغيرة تبكى بحرقة على قبر أمها. أثر فى هذا المنظر تأثيرا بالغا، فدفعت إليها بقطعة ذهبية؛ أما هى، فخطفتها من يدي، وقذفت بها فى القبر المفتوح، واستمرت فى البكاء والنحيب. ماذا أستطيع أن أفعله أكثر من هذا؟ كان هذا كل ما عندى، ولكنه لم يكفكف دموعها، ولم يخفف آلامها. وللحال، اقتربت منها سيدة فقيرة جدا، وقبلتها، وربت على رأسها الصغيرة، وضمتها إلى حضنها، وبدأت تعزيبها بكلمات رقيقة، وتغنى لها أغنيات هادئة بصوتها الرخيم. وعلى إثر ذلك، هدا روح الفتاة، وطابت نفسها الثائرة، وغالب النعاس عينيها. لم يكن لتلك السيدة فضة ولا ذهب، بل كان لها ما هو أثمن بكثير، وهذا أعطته بلا تردد. هذا ما يحتاجه العالم

اليوم. لیت كل الرجال والسيدات، من كل الطبقات، يدركون هذه الحقيقة، ويقدمون إلى البشرية ما تحتاجه، عوضاً عن التكاليف على الثروة، والسعى وراء الملذات العالمية. هنا، نرى بطرس يعمل على توصيل إيمانه القوي بيسوع الناصري إلى ذلك الأعرج، فقد دعاه إلى التمثيل بإيمانه، كما دعاه إلى أن يرى الأشياء التي كان يظن أنها غير موجودة كأنها موجودة، وأزال من نفسه كل ضعف وكل شك. لقد أمسكه بيمينه، وأقامه، كما رأى معلّمه يقيم حماته منذ بضع سنوات. وللحال، تقوّى إيمان الرجل، واشتدت قدماه وعظام ساقيه، وسرت في جسده حياة الرب المقام من بين الأموات، وذهبت الحياة لجسده المائت، إذ دخلته حياة رئيس الحياة، الذي كان يعمل مع رسوله، تلك الحياة التي أعطيت على جبل الصعود «... وجلس عن يمين الله. أما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة» (مر ١٦: ١٩ و ٢٠).

أما الأعرج، فإنه دخل معهما إلى الهيكل الذي كان محروماً منه بسبب مرضه، حسب شريعة الناموس، «وهو يمشى ويطفر ويسبح الله. وأبصره جميع الشعب وهو يمشى ويسبح الله، وعرفوه إنه هو الذي كان يجلس لأجل الصدقة على باب الهيكل الجميل، فامتلاؤا دهشة وحيرة مما حدث له.»

﴿٣﴾ كيف وعظ بطرس

عندما انتهت خدمة الهيكل، وغادر بطرس ويوحنا الدار العليا، ونزلا على السلم حتى وصلا رواق سليمان، الذي اعتاد الرب أن يعلم فيه، والذي اعتادت الكنيسة الأولى أن تجتمع فيه في أول عهدها، تبعهما جمهور كثير من الشعب. وإزاء الأسئلة التي تدفقت عليه منهم، ألقى بطرس خطابه الثاني العظيم، حتى يزيل منهم كل دهشة وحيرة.

وهنا، نراه يحول أذهان سامعيه، من يوحنا ومن شخصه، إلى المسيح. فإن ذلك الإنسان، لم توهب له الصحة بقوتهم أو تقواهما، بل بقوة ذاك الذي أنكره أمام

بيلاطس البنطى، متغلبين على رغبته الأكيدة نحو إطلاقه. ثم اتهمهم بتفضيل رجل قاتل على القدوس البار، وأكد لهم بأن دليل قيامة المسيح، غير محصور فقط فى مجرد شهادة أولئك الذين اتصلوا به بعد مغادرة القبر، بل فى هذه المعجزة التى تمت مع هذا المريض، والتى كانت ماثلة أمامهم أجمعين، وصرّح لهم بأنهم وقادتهم لم يعرفوا رب المجد، وإلا ما صلبوه. ومن هذه الحقيقة، يُستخلص ذلك الرجاء الحار الذى يوجهه إليهم بأن يتوبوا ويرجعوا لكى تُمحى خطاياهم.

وهنا، نرى ما يلقي ضوءاً على تصرف اليهود ورؤسائهم، فإنهم كانوا قد طُمست بصيرتهم بسبب التعصب والكبرياء، إذ كانوا ينتظرون أن يأتى المسيا فى فخامة ملكية، ولم يخطر ببالهم قط أن ذلك الجلباب المتواضع، الذى ارتداه النجار القروى، يخفى تحته أمجاد عمانوئيل. هذا الجهل لم يبرر إثمهم، ولكنه خففه، وترك لهم المجال للتوبة والمغفرة. وهنا، نرى بطرس إنما يقتضى آثار يسوع الذى ميّز بين العبد الذى عرف إرادة سيده والعبد الذى لم يعرف، والذى، إذ ثقتب المسامير جسده المبارك، خرج قائلاً: «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.» لا شك فى أنه يوجد فرق بين خطايا الإصرار وخطايا الجهل. فالأولى لا تبقى لها ذبيحة عن الخطية، أما فى الثانية، فإننا ننتظر الرحمة إن كنا نرجع كبولس إلى ذاك الذى رفضناه بجهل، وصلبناه لأنفسنا ثانية.

لقد أكد لنا بطرس أن هذه الخطية يمكن أن تُمحى. كان التاجر الشرقى يسجل حساباته على ألواح شمعية بقلم معدنى أو رصاصى مدبب. وإذا ما سُويت هذه الحسابات، يمحوها بأن يسوى هذه الصحائف ويجعلها فى مستوى واحد أملس، فتمحى كل آثار الديون. إذا مُحى دين من دفاتر حساباتنا، ظل أثره باقياً، أما الصحائف الشمعية، فلا يبقى فيها أقل أثر، بل تُمحى منها ديون المدين كلية. يقول إشعياء أن الخطية تُمحى كما تُمحى سحابة الصيف من السماء (إش ٤٤: ٢٢). يا لها من رؤية عجيبة، تلك التى أعطيت لبطرس عن مغفرة الله للخطية مغفرة كاملة مطلقة. لقد تجاسر مرة أن يقترح حداً أقصى للصفح «سبع مرات»، أما الآن، فقد أدرك محبة الله

إدراكا أتم، فإنها لا تَغْفِرَ فقط، بل تَنْسَى، وتمحو خطايانا حين نَعْتَرِفُ بها ونطرحها في أعماق لجة محبته التي لا قرار لها، فلا يُعْتَرَلها على أثر قط، ولا تعود تُذَكِّرُ مطلقا.

لقد كانت الحجج التي أدلى بها بطرس قوية ومقنعة ومغرية، فإنه قرر بأن إسرائيل، إذا تاب عن خطاياهِ وعرف يسوع الناصري كقدّوس الله، لأتت أزمّة الفرج من وجه الرب (ع ١٩)، وهذه هي التي دعاها في (ع ٢١) «أزمّة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بضم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر». يا له من جمال منقطع النظر، ذلك الذي تراه في النبوات التي لا يعترها الوهن أو البهتان.

سنة آلاف عام في البلى والأحزان

كانت تنتهي من تمهيد طريقها الشائك الأليم في هذا العالم الخاطيء الأليم وإن ما تبقى من هذه الحالة البشرية النائرة إنما هو كمجرد فعل البحار أمام الهدوء الذي

يعقب العاصفة

لأن ذاك الذي يتخذ الريح مركبة والسحاب

اجنحة

سيفتقد الأرض برحمته وينزل إليها

ويصلح ما أفسدته الخطية

يا لها من مناظر تفوق الخرافة ولكنها صحيحة

يا لها من مناظر تحمل بركة أكيدة

من ذا الذي لا يراها ولو وقف منها بعيدا

ومن ذا الذي لا يحس بانتعاش روحه

إذا ما ذاق من أفراحها مقدما

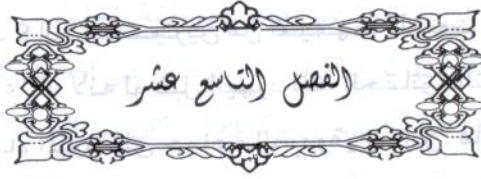
لاحظ الإشارتين اللتين يذكرهما بطرس عن إرسالية المسيح (ع ٢٠ و ٢٦)، فإنه أرسل - فى مجيئه الأول - ليبارك شعبه برد كل واحد عن شروره، وهو سيُرسل ثانية فى العصر الذهبى ليقم ملكوته، ويبطل كل رياسة وكل سلطان وكل قوة، كى يكون الله الكل فى الكل (١ كو ١٥ : ٢٤ و ٢٨)، وحتى يستقر عهد البركة الأبدى. يا لها من رؤى مجيدة تلك التى أضاءت على نفس بطرس، الذى كان يُعتبر جاهلا وأميا وعديم العلم فى نظر الرئاسة الدينية فى عصره، ولكنه كانت تُعلن له أمور مستقبلية بواسطة الروح القدس كوعد سيده.

وقبل أن نختم هذا الفصل، ألا يجدر بنا أن نطبق ما تعلمناه من دروس على أنفسنا؟ ألا يجمل بنا أن نحسب أنفسنا ضمن أولئك الذين قضوا السنوات الطويلة خارج باب الحياة المباركة عُرْج، بل مُقْعَدِين، ومحتاجين لمن يحملنا من الرعاية والمعلمين والأعوان، وعاجزين عن السير فى طريق وصايا المسيح، نسمع الموسيقى الشجية من وراء الباب، ولكننا عاجزون عن الاشتراك فى أمجادها، نحيا الحياة الهزيلة، أو لعلنا لم نبدأها بعد.

ليتنا جميعا نحصر كل تفكيرنا فى محبة المسيح، وفى دعوته المتكررة لنا، وفى الخلاص الذى يقدمه إلينا.

ليتنا لا نكتفى بمجرد سماع اسمه، بل لنؤمن فى ذلك الاسم، حتى نتمو إلى قياس قامة الحياة الكاملة، ونسلك فى طريقنا ونحن نمشى، ونطفر، ونسبح .





﴿أيها البناؤون﴾

﴿اع ٤﴾

❖ «لقد تكلم الله، وأعطانا كلمته لنحفظها،
وأمرنا بألا نعطي لأجفاننا نوما أو لعيوننا
نعاسا وسط هذا العالم الشرير، بل أن نسير
حتى يأذن لنا المسيح بالرحيل. لقد أقام لنا
الله عبده موسى نذيرا، رغم أننا لا نلنا نرى
في صياح الديك نذيرا..»

﴿براوننج﴾



كان بطرس لا يزال يخاطب الجماهير التي تجمعت بسبب
شفاء الأعرج. ولما صار المساء، إذا بقوم يندفعون فجأة، ويشقون طريقهم
وسط الجماهير المزدحمة، ويلقون القبض على الرجال الثلاثة الذين
سببوا هذا التجمهر. كان ضمن هؤلاء القوم الكهنة الذين نظروا لهؤلاء
الرجال العلمانيين كأخطر منافسين لهم. كان من بينهم أيضا
الصدوقيون، وكانوا لا يؤمنون في عالم الروح، ولا في الحياة بعد الموت.
كانوا شيعة قليلة العدد، ولكنهم كانوا أغنياء، أقوياء، ومحتلين للمراكز
الرئيسية في الدولة. وكان من بينهم أيضا «قائد جند الهيكل»، مع جنده
المكلفين بحفظ الأمن العام.



والأرجح أن جماعة الصدوقيين كانوا هم المسئولين بصفة خاصة عن تلك التصرفات الحمقاء. لقد كانت لديهم مبرراتهم الخاصة لاستكثار التعاليم التي ملأ بها الرسولان أورشليم، فقد كانوا «مضجرين من تعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من الأموات» (ع ٢)، لأنه لو قبل اليهود تلك الحقائق، التي شهد بها بطرس وأصدقائه، لَقُضِيَ القضاء المبرم على جماعة الصدوقيين. إذن، فالأرجح جدا أن إلقاء القبض على الرسولين تم بتحريض من حنانيا وقيافا وباقي زعماء هذه الشيعة القوية. وقبلما تدرى أورشليم بما حصل، كان الرسولان والأعرج قد رُجَّ بهم في ظلمات السجن، وكانت الدعوة قد أُرسِلت بسرعة لأعضاء السنهدريم للاجتماع في صباح اليوم التالي.

لا شك في أن تلك الليلة، التي قضاها الثلاثة في السجن، كان لها تأثير بالغ في نفوسهم. كانت هذه هي المعاملة التي علمهم السيد أن يتوقعوها. ولا شك في أنهم وقتذاك كانوا قد بدأوا الطريق التي سبق أن أنبأهم بها. ثم إنها أيضا كانت فرصة للتكفير عن تلك السقطة الشنيعة التي أنكر بها بطرس سيده. لقد تذكر تعهده السابق باستعداده لاتباع يسوع حتى إلى السجن، وهوذا قد حانت الفرصة التي يوفى بها بتعهده. أما الأعرج، الذي أدى شفاؤه إلى هذا التصادم مع الرؤساء، فقد تعلم ما تحمله هذه الأحداث من معانٍ، واشترك في الصلوات والتسابيح التي صرفوا فيها ليلتهم. أما محاكمة الصباح، فلم ينزعجوا لها، ولم يستعدوا بالدفاع الذي يقدمونه فيها، لأن الكلمات التي سبق أن سمعوها منذ ثلاث سنوات، رن صداها الآن في آذانهم «وتساقون أمام ولاية وملوك... فمتى أسلموكم فلا تعتوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا، لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به، لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم» (مت ١٠: ١٨ - ٢٠؛ مر ١٣: ١١).

كان مجلس السنهدريم أكثر المحاكم هيبة في العالم، وأعظم الهيئات نفوذا. كان يمثل السبعين شيخا الذين اختيروا لمساعدة موسى في إدارة شئون شعبه وقت ارتحالهم في البرية. كان رئيس الكهنة هو الذي يرأس المجلس، ويلتف حوله - في شبه نصف دائرة - رؤساء الطبقات الكهنوتية الأربعة والعشرون ومعلمو الناموس، ورؤساء أقدم عشائر اليهود. وهاك أسماء بعض هؤلاء (ع ٦): حنّان الماكر، وقيافا الخبيث زوج ابنته،

ويوحنا الذائع الصيت، والإسكندر أخو فيلو الفيلسوف. كان هذا هو نفس المجمع الذي سَلَّم يسوع الناصري للسلطة الرومانية للصلب. والآن، وفي نفس الغرفة، يتآمرون بكل ما لديهم من حيلة لكي يقضوا على هذه الهرطقة الجليلية (في نظرهم). لاحظ بدقة إجراءاتهم؛ كان من العيب أن يناقشوا الرسولين عن المعجزة، فقد كان الأعرج الذي شُفِيَ أمامهم، ولم يكن ممكناً لهم أن ينكروها. وكان من الخطر أن يتباحثوا عن موضوع القيامة، لأنه كان هنالك خلاف شديد بين الفريسيين والصدوقيين، وكان كل من الحزبين مُمثلاً في السنهدريم تمثيلاً قوياً. أما الموضوع الذي رأوا أنه تجوز فيه المناقشة، فهو مصدر شفاء الأعرج «بأية قوة وبأى اسم» (ع ٧). لو أن بطرس ورفاقه نسبوا المعجزة إلى قوة يهوه العظيمة، ذاكرين المعجزات التي قام بها إيليا وأليشع وغيرهما، لما تجرأ المجمع على أن يقول كلمة واحدة. على أنهم كانوا واثقين بأنهم إذا نسبوا المعجزة لاسم آخر، عرضوا أنفسهم لخطر الموت كمضلين كما كان يحدث للأنبيا في القديم. أما إذا نسبوها ليسوع، عرضوا أنفسهم لنفس الموت الذي لقيه المسيح.

ولكن بطرس لم يشأ قط أن يلجأ إلى سياسة اللف والدوران، بل قال بإرشاد الروح القدس: «يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل، إن كنا نفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان سقيم بماذا شُفِيَ هذا، فليكن معلوماً عند جميعكم، وجميع شعب إسرائيل، إنه باسم يسوع الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات؛ بذاك وقف هذا أمامكم صحيحاً. هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون الذي صار رأس الزاوية، وليس بأحد غيره الخلاص.»

١٦١ البناؤون المنافسون

تذكرنا الإشارة لهذا الحجر المرفوض (رأس الزاوية) بتقليد قديم نشأ حول المزمور (١١٨) الذي يعتبر أعرق تسبحة الفصح الشعبية (هاليل) [١]. يتضمن هذا التقليد بأنه عندما بنى سليمان الهيكل، أُعدَّت كل أدوات البناء عن بعد، لكي لا يُسمع صوت مطرقة أو أية آلة حديدية على البناء وقت إقامته. وفي أحد الأيام - أثناء

١٦١ وهي تتضمن المزامير ١١٢ - ١١٨.

الاستعدادات الأولية - وصل حجر ضخّم من الحجر، وكان شكله غير العادى يدل على أن عناية خاصة قد بُذلت نحوه. ولكن، لم يستطع أحد أن يعيّن بالضبط المكان الذى قصد أن يشغله هذا الحجر من البناء، لهذا ألقى جانباً لأنه لا موضع له، وأصبح متروكاً بين المهملات، فتراكمت عليه الأتربة والأقذار، وكاد أن يكون مهملاً من الجميع. ولكن، عندما بدأ البناء يرتفع فوق وجه الأرض، وصارت الحاجة ماسة إلى حجر بشكل معيّن ليكون رأساً للزاوية، تذكّر أحد العمال ذلك الحجر المرفوض، الذى عندما وُضع فى المكان المعيّن، وُجد أنه يناسبه كل المناسبة. فكان ذلك موضع تعجّب كل البنائين ودهشتهم، بل كان ورطة لهم. لذلك كانت هذه الكلمات تحمل ذكرى هذه الحادثة «الحجر الذى رفضه البنّاءون قد صار رأس الزاوية» (مز ١١٨: ٢٢).

وإشعياء أيضاً يشير إلى هذه الحادثة، قائلاً: «هكذا يقول السيد الرب هاأنذا أوّسس فى صهيون حجراً، حجر امتحان، حجر زاوية، كريماً أساساً مؤسساً. من آمن لا يهرب» (إش ٢٨: ١٦)، والرب نفسه اقتبس هذا القول وطبقه على نفسه عند التحدث عن مثل الكرامين الأردباء (مت ٢١: ٤٢). وبعد ذلك بسنوات طويلة، أشار رسول الأمم إلى نفس الأمر إذ كان يتحدث إلى كنيسة أفسس، إذ قال: «مبنيّين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح حجر الزاوية» (أف ٢: ٢٠).

وكان اختلاف وجهة النظر نحو حجر الزاوية هو السبب الحقيقى للخلاف فى المجمع، فقد كانت هناك فكرتان متناقضتان فيه، إذ كانت طائفة البنائين الأولى مكونة من جماعة علماء اليهود الذين يمثلون الجاه والسلطان فى الأمة اليهودية. أما الطائفة الثانية، فكان يمثلها هذان الرجلان العاميان والعديما العلم [أى بطرس ويوحنا] (ع ١٣). رفضت الطائفة الأولى ذلك الحجر، وغطّته بالإهمال. أما الثانية، فقد جعلته حجر الزاوية فى البناء الذى كان قد بدأ يرتفع وينتشر فى كل أرجاء العالم.

قالت الطائفة الأولى أنها تستطيع الاستغناء عن ذلك الحجر لأنه لا يجديهم نفعا. عندئذ، تذكّر بطرس ما سبق أن قاله السيد أنه إن رفضه إنسان سقط عليه ذلك الإنسان وترضض، أو سقط عليه الحجر وسحقه كما يسقط الصخر المزعزع على

الراعى الذى يرمى قطيعه أسفله. لذلك أكد لهم بأنه لا خلاص للإنسان أو للشعوب بعيدا عن المسيح.

كانت إشارة بطرس الأولية، بطبيعة الحال، تتعلق بشفاء ذلك الإنسان المريض الذى وقف أمام المجمع صحيحا معافى. ولكن، كان هنالك فكر أبعد يجول بخاطرهم... ألم يكن واضحا أن إسرائيل هو المقعد الحقيقى؟ فقد كانت الأمة ترزح تحت نير السلطة الرومانية موثقة، ضعيفة، فى غاية الذل والمهانة. كانت كسيحة، مشلولة من الناحية الأدبية ومن الناحية الروحية. فروح النبوة الملتهبة انطفأت، وروح إنشاد المزامير عفت آثارها، وحلت محلها روح الانقسام والشحناء. ولقد تحقق بطرس - بإرشاد الروح القدس - أنهم خسروا الفرصة الذهبية التى منحتهم إياها العناية الإلهية، لترد إليهم مركزهم السابق المجيد، ولو أن قادة الأمة اليهودية وبنائيا عرفوا الرب يسوع المسيح واعترفوا به، لعاد إليهم نفوذهم الوطنى، واحتلوا المركز السامى الرفيع الذى قصده لهم الله، وهو زعامة البشرية دينيا... لم يكن بأحد غيره الخلاص.

ويمكن تطبيق هذا من الناحية الوطنية، والناحية الكنسية، والناحية الفردية.

❖ ١ ❖ الناحية الوطنية :

إذا رفضت أية أمة أن تبنى، حسب المبادئ العظمى التى رسمها المسيح وعلم بها ومات من أجلها، فإنها لا يمكن أن تدوم، بل يكتب لها الزوال والفناء كأمم العالم العظمى، مثل الدولة الآشورية، والبابلية، والفارسية، واليونانية، والرومانية، ولا يبقى لها أى أثر. فالرجاء الوحيد للخلاص للدولة هو أن تبنى حسب مبادئ إنجيل المسيح، وبغير ذلك لن يوجد أى رجاء فى الخلاص الدائم.

❖ ٢ ❖ الناحية الكنسية :

والكنيسة التى تعنى فقط بالمظاهر، بالناحية التعليمية، أو المالية، أو الإدارية، بدلا من الشركة الحية، والصلة القوية بالمسيح المخلص الحى، قد تتعم بنجاح وقتى كازدياد الشهرة أو غيرها. ولكن هذا النجاح لا يمكن أن يدوم، وهذه

الكنيسة لا تثبت، بل تجد نفسها عاجزة عن أن تتماشى مع مطالب الجنس البشرى، وأنها قد أفلتت منها القيادة، وأنها على الدوام سائرة إلى الوراء لا إلى قدام. إن الخلاص الوحيد لأية كنيسة هو الشركة القوية مع المسيح، هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، حى دواما، ويقود الدهور لتجد كمالها فى الله، الذى هو الكل فى الكل.

﴿٣﴾ الناحية الفردية :

كل فرد فى الوجود يبنى منذ الطفولة. من منا لم يبن بيوتا خشبية فى الشتاء، وقصورا رملية على شاطئ البحر فى الصيف وهو طفل؟ وعندما تتقدم بنا الأيام، نبني المشاغل، والقصص، والروايات، والأشعار، والصور، والقواعد الفلسفية، والخطط السياسية. وكم من أشخاص يتجاهلون المسيح وهم يبنون، مدعين بأنهم يستطيعون الاستغناء عنه، وأنهم لا حاجة إليهم به؟ ولكنهم لا يستطيعون أن يستمروا على هذه الحال، فإنهم، إن كانوا يزهون ويزهرون، فإنما ذلك إلى لحظة، ثم تعصف بهم الرياح فيذوون ويذبلون، ثم لا يكونون. أما من يفعل إرادة الله فيبقى إلى الأبد. والحياة التى تركز على حجر الزاوية (المسيح)، وتتماشى مع تعاليمه، وتقتدى بمثاله، تضئ «كالكوكب إلى أبد الدهور»، أما الذين يرفضونه، فيكونون كالعصافاة التى تذرهبها الرياح.

فليرن الصوت عاليا بالبوق «يسوع المسيح وحده هو الذى يستطيع أن يخلص». فإنه بآلامه، وبقطرات الدم النازلة من جبينه، وبصليبه، وبقيامته المجيدة، وصعوده إلى السموات - بهذه كلها - قد فتح أبواب الخلاص على مصاريعها. كل الذين يقبلونه ويدخلون فى شركة معه، يصيرون مثل جبل صهيون الذى لا يتزعزع، ويثبتون إلى الأبد. يسوع هو الصخر، هو الحجر، الحى، هو يعطى حياة أبدية، ويهب ثباتا لا يتغير. قد تجد فى غيره فلسفة، نزاهة أدبية، فضيلة، ولكن «ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص».

﴿٢﴾ حياة المسيح التي لن تقاوم

حينما كان مجلس السنهدريم يصغى إلى هذه الكلمات، ويراقب الرسولين عن كثب، كانا يحاولان أن يذكراهم دواما بالمسيح، لأنهما كانا قوين بروحه، وينطقان كما أعطاهما أن يتكلما «فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع». إنهما لم يختلطا فقط مدة الثلاث سنوات السعيدة التي قضياها معه، ولم يتشبعوا بتعاليمه فحسب، ولكنه كان حيا فيهما، ويفيض بواسطتهما من روحه كرئيس الحياة.

وعندما انتهت المحاكمة، وخلا المجمع إلى نفسه ليتداول في الأمر، اعترفوا بعضهم لبعض إنهم لم يتجاسروا بأن يسمحوا لهذين الرجلين بالاستمرار في الكرازة والتعليم. إنهم لم يستطيعوا إنكار المعجزة، أو إقامة الدليل على دحض القيامة، ولكنهم يجب أن يفكروا في الأمر للدفاع عن مصلحتهم. وعندما أعيد الرسولان، أوصوهما مشددا «أن لا ينطقا البتة ولا يعلما باسم يسوع». كان قضائهم يودون لو أنه أتيح لهم قصاصهما، ولكنهم خشوا لئلا يحصل شغب في الشعب؛ لهذا أطلقوهما بعد أن هددوهما.

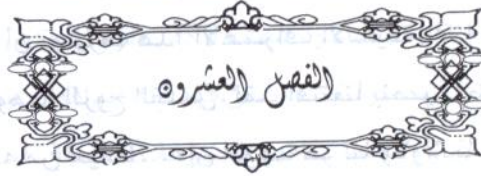
كان مستحيلا أن يفوزوا بإطاعة هذا الأمر، استحالة منع نور الصباح من أن ينشر ألويته على العالم، أو منع حياة الربيع من الظهور، أو صد مياه الجزر عن العودة إلى مستواها السابق. لم يكن ممكنا لهذين الرجلين إلا أن يشهدا لما رأيا وسمعا. وحتى لو أنهما اعتزما عدم النطق باسمه، لصار كلامه كالنار المحجوزة في عظامهما، واستحال عليهما أن يطبقا حالة كهذه. أليس هذا ما قصده الرسول عندما قال، إجابة لاحتجاجات ونقاش أصدقائه: «إن محبة المسيح تحضرنا؟» ليتنا ندرك أكثر فأكثر تلك القوة التي لا تُجْزَر، كالبخار الذي يملأ القزان، والذي، إما أن يحرك الماكينات البخارية، أو ينفجر القزان. ليتنا نمثل من تلك القوة الإلهية الدافعة التي تدفع كل شيء إلى المحيط كالتيار الجارف.

﴿٣﴾ شهادة الروح القدس

عاد الرسولان إلى رفاقهما الذين لابد أن يكونوا قد قضوا تلك الساعات فى الصلاة. ويا للترحيب الذى قوبلا به. ويا للإصغاء التام الذى قوبل به حديثهما. ثم يا لعمق الصلوات والابتهالات التى رُفعت. لابد أن تكون أمثال هذا الاجتماع قد عُقدت فيما بعد فى كل مرة خرجت فيها الكنيسة ظافرة من الاضطهادات العنيفة التى حلت بها فى كل العصور الماضية. لم تُرفع أية طلبة لكى يوقف الله الاضطهاد، أو ينقذ حياتهم، ولكن الطلبة الوحيدة التى قُدمت، هى أن يُمنحوا قوة لكى يتكلموا بكلام الله بكل مجاهرة، أو يمد الله يده للشفاء، لكى تجرى آيات وعجائب باسم يسوع. لقد كانوا مستعدين أن يتحملوا أقسى ما تستطيع الطبيعة البشرية تحمّله من الآلام، إن كان هذا يؤدى إلى تعظيم وتمجيد ذلك الاسم العزيز. ليتعظم يسوع المسيح، لير من تعب نفسه، «مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ الكرامة والمجد والبركة» (رؤ ٥: ١٢)، لتعطي النصر والغلبة لقضية المخلص الإلهي.

وهل نعجب إن رأينا السماء تستجيب الصلاة فى الحال؟ فإنها قد زعزعت المكان كما حصل من قبل، يوم الخمسين. وهنا، تم امتلاء آخر من الروح القدس، ليس للمائة والعشرين فقط، بل للجميع. وظهر الدليل على هذا فى المحبة الإلهية التى بعثتهم على أن يقتسموا جميعا أملاكهم ومقتنياتهم، والتى اتحدت قلوبهم برابطة قوية جدا.

لا بد أن يكون بطرس قد أخذ العجب إذ رأى ما حصل. لقد كان واثقا من أن تلك النتائج لم تتم بسبب قوته أو قداسيته. لا شك فى أن أخطاء الماضى وتقصيراته قد ذابت وتلاشت أمام بهاء وروعة تلك الساعة الرهيبة. كيف أتيح له أن يتكلم هكذا، أو يجرى كل هذا؟ ولكن، يا لعمق نعمة الله فى صبرها واحتمالها. ماذا يستطيع أن يقول سوى أن يسقط على وجهه، ويغوص فى تهدياته، ويعترف قائلا: «ليس لى، ليس لى، بل لاسمك أعط كل المجد، أنت قد فديتني وخلصتني، أنت قد عظمت رحمتك على كل اسم».



﴿ازدياد بطرس تعمقا﴾

﴿فى﴾

﴿اختبارات الروح القدس﴾

﴿اع ٤: ٣٢، ٥: ٣٢﴾

❖ «قف واصمت وتقو أيها الأخ الحبيب، واحفظ

نفسك من كل خطأ وعيب، لكى تبقى عينك

مستتيرة، فترى وقت غروب شمس الحياة.»

﴿براوننج﴾



من أقوى التأكيدات التى أعطيت للإنسان، تلك الحقيقة

الرائعة التى أعطيت له فى قانون الإيمان قديما «أؤمن بالروح القدس.»

كل معرفة، وقوة، ونجاح، ونصرة على العالم والجسد والشيطان، تتوقف

على مقدار إدراكنا لشركة الروح القدس وانتفاعنا منها. وكما قال

بطرس، فى خطابه الرائع يوم الخمسين، إن الرب إذ ارتفع إلى السموات

وجلس عن يمين العظمة، أخذ موعد الروح القدس من الآب ليسكبه على

كل عضو فى جسده الرمزي؛ إنه واحد مع الآب والروح القدس، وعندما

أخذ طبيعتنا، حِيلَ به من الروح القدس.



إنه صعد لكي يسكب مواهب الروح القدس على كنيسته؛ ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة.. حقا إنه قد أعطيت لكل واحد منا نعمة حسب قياس موهبة المسيح، ولو أننا يجب أن نعترف هذا الاعتراف الأسيف: إننا قد قصرنا عن أخذ نصيبنا الواجب من موهبة الروح القدس. لقد اقتنعنا بنصيب ضئيل جدا، بينما كان يجب أن يفيض نهر الله من حياتنا... «إن الموعد هو لنا ولأولادنا... كل من يدعوه الرب إلهنا.» على أن القليلين جدا هم الذين قبلوا الامتلاء بهذه الموهبة التي ينتظر الرب أن يسكبها على أضعف الضعفاء..

﴿١﴾ اختبارات بطرس السابقة

فى مساء يوم القيامة، نفخ الرب فى وجهه ووجوه الباقين إذ كانوا مجتمعين فى العليّة... «فقال لهم يسوع: سلام لكم. كما أرسلنى الأب أرسلكم أنا. ولما قال هذا، نفخ وقال لهم: اقبلوا الروح القدس.» من ذلك نستنتج إذن أن قبولهم الروح القدس، كان القصد المباشر منه أن يؤهلهم لإرساليتهم العظمى، إذ كان إعدادا خاصا للخدمة.

لبث بطرس عشرة أيام فى انتظار موعد الأب إطاعة لأمر سيده: «أقيموا فى مدينة اورشليم حتى تلبسوا قوة من الأعلى.»

ولما حل يوم الخمسين، امتلأ، كالباقين، من الروح القدس، وبدأ يتكلم كما أعطاه الروح أن ينطق. من ذلك نتعلم أن الامتلاء يؤهل للخدمة التى تُمنَح لنا. قد نولد من الروح القدس، وبذلك تبدأ فىنا بداية الحياة الجديدة. ولكن يجب أن تُمسَح بمسحة الروح القدس إن أردنا أن نستخدمنا السيد خدمة ناجحة موفقة فى حياتنا القصيرة.

عندما واجه بطرس مجلس السنهدريم فى الصباح، بعد معجزة شفاء المُقعَد، أخبرنا الكتاب بأنه عندما نهض ليحيب على متهميه، امتلأ ثانية من الروح القدس امتلاءً مباغتا ومجيدا. ومن ذلك، نتعلم بأنه لنا أن نطالب بالامتلاء مرارا، خصوصا فى الأوقات الحرجة.

ولدى رجوع بطرس ويوحنا إلى رفاقهما، «تزعزع المكان الذى كانوا مجتمعين فيه»، كأن موجة من القوة المقدسة قد حركته، «امتلاً الجميع من الروح القدس، وكانوا يتكلمون بكلام الله مجاهرة»، «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع». وواضح أن هذا الاختبار الجديد عن قوة الله الدافعة، وتياراته الجارفة، كان من نصيب بطرس، كما كان من نصيب باقى الجماعة المغتبطة المتهللة. لماذا لا نتمتع نحن أيضاً بهذه الاختبارات المتجددة؟ لسنا نمتلك لأننا لا نطلب، ولأننا نخشى أن نقدم أية تضحية من أجل يسوع المسيح.

وكانت لبطرس أيضاً اختبارات متجددة عن قوة روح الله المفعنة «فلما سمعوا، نخسوا فى قلوبهم». وكم من أشخاص قديسين كان لهم مثل هذا الاختبار فى كل تاريخ الكنيسة. وقال أحدهم لشقيقه: «عندما يشعر خدام الله بفعل الروح القدس فى قلوبهم، فإن هذا يساعدهم على أن يدخلوا إلى قلوب وضماير الآخرين ويمسكوا بها. وبغير هذا، فإننا لا نستطيع الوصول إلى أعماق قلوبهم، مهما استخدمنا من فصاحة أو منطق أو بلاغة». هذا ما اختبره بطرس.

ولكن، كانت هنالك اختبارات أخرى لابد أن تُمنح لهم، قبل أن يدرك هو ورفاقه تمام الإدراك، مركزهم كقادة الكنيسة الفتية. كان يجب أن يدركوا أن الروح القدس يخص الكنيسة كجماعة كما يخص الأفراد، وأنه هو قائد الكنيسة على الأرض، نائب المسيح، المرشد الأعلى للكنيسة ومعلمها «الشريك لهم فى الشهادة لقيامته»، المصدر الأسمى للحياة الأبدية.

قال أحدهم: حينما صعد المسيح إلى الآب، أرسل الروح القدس كنائب عنه فى الكنيسة. وحيث أن الملك يملك فى السماء، فإن نائبه الروحى يملك فى الأرواح البشرية. قال المخلص: «إن لم أنطلق لا يأتىكم المعزى». فإن غياب الواحد حضور للآخر، أو بالأحرى، دعنى أقول: إنه ليس هنالك غياب ولا حضور ولا انطلاق ولا انفصال، فالمسيح نفسه واحد من الروح القدس، وهما يسكنان فى قلب جسده الرمزى.

لعل الله كشف هذا السر العظيم خلال الأربعين يوما التى كان يعلم فيها تلاميذه عن الأمور المختصة بملكوت الله. على أن تطبيقها العملى كان يكشف لبطرس ورفاقه تدريجيا كلما استعادت الذاكرة ذكريات يوم الخمسين. لقد كان اختبار بطرس فى هذه الناحية لامعا ورائعا، فإنه كان فى كل خطوة يختبر رفقة الروح القدس للكنيسة.

﴿٢﴾ رئاسة الروح القدس للكنيسة

تجلت هذه الحقيقة فى الناحية المالية للكنيسة، فقد «كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول أن شيئا من أمواله له، بل كان عندهم كل شئ مشتركا.» لذلك لم يكن هنالك بينهم فقر أو عوز، «ولم يكن فيهم أحد محتاجا، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت، كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات، ويضعونها عند أرجل الرسل، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج.» من هذا الرصيد كان يخصص مبلغ معين لسد أعوازهم المشتركة كالسكن والطعام، ومبلغ آخر لإعالة الرسل وزملائهم فى الخدمة، ومبلغ آخر لإعالة الفقراء والمرضى والأرامل حسب احتياجات كل واحد. هنالك فرق بين هذا النظام ونظام الاشتراكية، لأن هذا النظام الأخير يلغى كل ملكية بالقوة، ويجرد كل فرد من أملاكه، ويحتم إشراك الآخرين فى الأرباح، ويلزم كل العمال أن يضعوا ممتلكاتهم وكل دخلهم فى صندوق عام. أما فى الكنيسة الأولى، فإنه عندما كان يبقى حقلا لصاحبه دون أن يبيعه، كان يظل ملكا له، وإذا بيع، صار لصاحبه كل الحرية فى التصرف بثمنه حسبما يشاء. كان هذا النظام إجراء بسبب ظروف كنيسة أورشليم الخاصة، ولم يحاول الرسل تطبيقه فى أية كنيسة أسست بين الأمم.

لقد قدم أعضاء كثيرون فى الكنيسة تضحيات جمة كبرنابا، ولذلك كانت لهم مراكز ممتازة من الولاء والإكرام والتقدير فى أعين شركائهم فى الإيمان. ولما ابتغى حنانيا وزوجته أن يحصلوا على نفس هذا المقام من التقدير والاحترام، دون دفع الثمن الذى يتطلبه هذا الأمر، كذبا كذبتهما المشهورة. فإنهما باعا حقلا، وادعيا بأنهما قد أتيا بكل الثمن، ووضعاه عند أقدام الرسل للإتفاق منه فى الأوجه العامة. لم يكن

هنالك أى إلزام لهما لبيع الحقل، ولم تكن هنالك أية خطية لو أنهما قدما جزءا من الثمن واعترفا بذلك. ولكنهما ادعيا بأن المبلغ الذى قدماه للجماعة هو كل الثمن؛ وهكذا أشبعا محبتهما للمال من جهة، ومحبتهما للظهور من جهة أخرى. كان تصرفهما كذبا صريحا.

لا داعى لتعداد أمثال هذه الخطية بيننا اليوم، فكثيرا ما نجرب بأن نتظاهر بالغيرة والصلاح والكرم، أكثر مما نحن فيه، ابتغاء الحصول على كرامة أوفر فى نظر الآخرين. شكرا لله، فإنه لا حاجة للخضوع لهذه التجربة المخاتلة. ولكن، من ذا الذى لم يتعرض لها بين الآونة والأخرى؟ وشكرا لله، لأنه إن جربنا بها الشيطان، فإن نعمة الروح القدس الساكن فينا كافية لدفعه عنا، وعدم السماح له بملء القلب... «لماذا ملأ الشيطان قلبك؟» عندما نمتلىء بالروح، لا يبقى أى مجال للامتلاء بالشيطان. والهواء الذى يملأ جهاز الغواصين، يمنع دخول الماء الذى يغمره... «اسلكوا فى الروح ولا تكملوا شهوة الجسد.» لم يحاول حنائيا وسفيرة الانتفاع بنعمة الروح، لقد استنارا، وذاقا الموهبة السماوية، وصارا ضمن شركاء الروح القدس، وذاقا كلمة الله الصالحة وقوات العهد الجديد، ولكنهما سقطا، وصارا كالأرض التى شربت المطر الآتى عليها مرارا كثيرة، ولكنها رغم ذلك تخرج شوكا وحسكا، فتصير قريبة من اللعنة. هذه اللعنة كان ممكنا ألا تحل بهما لو أنهما اعترفا بخطيتهما ولم يصلبا ابن الله ثانية. ولكنهما لم تبد على أحدهما أية علامة من علامات التوبة والندامة، فجلبت عليهما خطيتهما هذا الموت المروّع؛ فإنه قُضى عليهما فى الحال ثلثا تنفّس خطيتهما فى غيرهما من أعضاء الكنيسة.

ولنتأمل الآن فى كلمات بطرس الرائعة «لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس؟»، «ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب؟» أى دليل من هذا يمكن إعطاؤه على شخصية أو ألوهية الروح القدس؟ من المستحيل بطبيعة الحال تجربة أو الكذب على مجرد تأثير داخلى أو روح خيالى. ولكنك إذا كذبت، فإنك تكذب على شخصية معينة. وإذا جربت، فإنك تجرب شخصية معينة. وتهمة كل من حنائيا وسفيرة تتضمن الاعتراف بالشخصيات المختصة بهذه الرواية، أى تتضمن الاعتراف بشخصية

هذين الخاطئين. ولكن، كيف اعتُبر تصرفهما خطية ضد روح الرب؟ ألم تُرتكب هذه الخطية بالأحرى ضد الكنيسة الفتية، بل ضد فقرائها؟ لا شك في أنها كانت إساءة شنيعة للكنيسة وللفقراء معا، ولكنها كانت، في نفس الوقت، إساءة أشنع للروح القدس، تضاءلت أمامها الإساءة للكنيسة. الواقع أن الكنيسة تختلف عن سائر الهيئات في هذا، وهو أنها جسد المسيح، وكُرسى أو عرش الروح القدس، وهذا ما جعل خطيتهما شنيعة جدا.

إذا اجتمعت جماعة - مهما كانت ضعيفة - باسم المسيح، وبدأت تفكر في امتداد ملكوته، فإن الروح القدس لا يحضر فقط في وسطها، بل ويرأسها. إنه يحضر كنائب عن المسيح، وممثله. إنه يرى بأن اجتماعهم في صلاة متحدة تصوير لإرادة المسيح؛ وما يُربط أو يُحلّ على الأرض، يصبح متفقا مع ما يُربط أو يُحلّ في السماء.

تستخدم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هذا الاصطلاح «الكرسى الرسولى»، إشارة إلى استقرار الروح القدس على كل واحد منهم يوم الخمسين، وإشارة إلى أن الكنيسة هي كُرسى وعرش البارقليط. وأن يسوع، إذ جلس على عرشه عن يمين الآب، نزل الروح القدس على عرش الكنيسة، وأن كنيسة روما هي الوحيدة التي خلفت الكنيسة الأولى. كل هذا حق، إلا ما ورد في العبارة الأخيرة.

صحيح أن الرب إذ صعد إلى عرشه في السماء، نزل الروح القدس إلى عرشه في الكنيسة، وصحيح أن الكنيسة هي العرش الذي يُصدر منه الروح القدس أوامره، والذي ينفذ منه إرادته. ولكن ليس صحيحا أن روما هي هذا العرش أو الكُرسى. نعم، فإنه حيثما اجتمعت أية جماعة باسم المسيح لإتمام فرائضه المقدسة، ويقصد ببيان أحدهم الآخر، ونشر ملكوته، فهناك يتخذ الروح القدس كُرسياه وعرشه، وهنالك تضمن حضور سبعة أرواح الله «نعمة لكم وسلام من السبعة الأرواح التي أمام عرشه ومن يسوع المسيح» (رؤ ١: ٤ و ٥). سعيدة هي تلك الهيئة المسيحية التي تدرك هذه الحقيقة المباركة وتتممها، كما أدركها وتممها بطرس وباقي رفقته في ذلك اليوم الخطير الذي هددتهم فيه الحية بدخول جنتهم الجديدة، كما دخلت جنة عدن وأفسدتها.

كان الكذب الذى اتفق عليه هذان الخاطئان خطية ضد الله، وضد الروح القدس، وضد الرب يسوع، وكان القصاص الذى حل بهما عقابا مباشرا من الروح القدس، كإنذار للباقيين مستقبلا «وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك». ليت ذلك الخوف الناشئ من محبة الاحترام يشمل كل اجتماعات شعب الله؛ عندئذ تزداد كل عبادة تعمقا، وتزداد المحبة والإيمان، ويزداد الخشوع والولاء والتواضع، التى تتميز بها المقادس العلوية، حيث تحجب الملائكة وجوهها وهى تتشد ترنيمة القدوس. إذن، «فاحفظ قدمك حين تذهب إلى بيت الله» وقت الصلاة، لأن الله حال فيه بروحه... اعبد به بالروح والحق... حذار من أن تفكر فى شيء أو تضرر شيئا لا يتفق مع طبيعته، واجتهد بأن تحمل معك فى قلبك ما يجعل الجو أكثر رهبة وخشوعا، لكى يزداد تأثير الروح القدس انتشارا. وهكذا، حين نجتمع مع الكنيسة، لنثبت أنظارنا فى الروح القدس الذى يرأسها، ولنقترب فيه من محفل الملائكة وكنيسة الأبرار المكتوبين فى السموات، وإلى أرواح الأبرار والمكمّلين، وإلى الله ديان الجميع، وإلى وسيط العهد الجديد (عب ١٢: ٢٢ - ٢٤).

﴿٣﴾ شهادة الروح القدس المشتركة

كان الشعور العام فى أورشليم متجها بقوة فى مصلحة الكنيسة، وكان الباعث الأكبر لهذا آيات الشفاء التى كانت تجعل الجماهير تزدهم حول الرسل، كما كانت تزدهم حول شخص الرب يسوع من قبل، فقد كانت الجماهير تزدهم حوله محاولة أن تلمسه «وحيثما دخل إلى قرى أو مدن أو ضياع، وضعوا المرضى فى الأسواق، وطلبوا إليه أن يلمسوا ولو هذب ثوبه، وكل من لمسه شُفى» (مر ٦: ٥٦). تكررت هذه المناظر فى شوارع أورشليم الضيقة، حتى إذا جاء بطرس، يخيم ولو ظله على بعض المرضى المضجعين على الفرش والأسرة الموضوع فى طريقه (أع ٥: ١٥). ذاعت أخبار آيات الشفاء فى المدن والقرى المحيطة، فجذبت الجماهير الكثيرة، لكى يأتوا ويروا ويسمعوا ويُشفوا؛ وامتألت كل البلاد بأخبار آيات الشفاء العجيبة التى كانت تتم باسم يسوع.

بقى الشيوخ والقادة واقفين عن بعد وقتيا، كأنهم فى موقف المتفرجين؛ «وأما الآخرون [أى الذين لم يكونوا من عامة الشعب]، فلم يكن أحد منهم يجسر أن يلتصق بهم» (أع ٥: ١٣). ولكن نيران الغيرة المحتبسة انفجرت أخيرا، فألقى القبض على كل جماعة الرسل، ووُضعوا فى حبس العامة (ع ١٨). وفى صباح اليوم التالى، إذ اجتمع مجلس السنهدريم - بتحريض من شيوخ إسرائيل - لبحث الأمر، وُجد السجن خاليا، ووصلت الأنباء بأن المسجونين واقفون فى الهيكل يعلمون الشعب. وبالرغم من حادث إخراجهم العجيب من السجن، فإن المحاكمة بدأت. وحينئذ، انتهز بطرس - وهو لسان الجماعة الناطق - الفرصة، وبدأ يبشر قادة الشعب بقيامة الرب وصعوده إلى السماء.

لقد سبق أن أعلن إليهم بطرس، فى ذلك الاجتماع الرهيب، أن إله آبائهم رفع يسوع الذى قتلوه، وأنه جلس عن يمينه، وأنه هو الرئيس، وأنه هو المخلص، وأن التوبة ومغفرة الخطايا مقدمتان فيه إلى إسرائيل. أما الآن، فإنه يزيد على هذا تلك الحقيقة الرائعة، وهى شهادة الروح القدس المؤيدة لشهادتهم «ونحن شهود له بهذه الأمور، والروح القدس أيضا الذى أعطاه الله للذين يطيعونه».

لقد سبق أن وعدهم السيد بأن هذا ما سيختبرونه «ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الأب، روح الحق الذى من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لى، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء» (يو ١٥: ٢٦ و ٢٧). فى هذه الكلمات، نجد وعد المخلص نفسه للكنيسة بأن تنتظر تأييد روح الحق لشهادتها. عندما يُسمع الصوت من السماء معلنا غبطة الذين ماتوا فى المسيح، فإن الروح يؤمّن على هذا، «ويقول: نعم» فى قلوب البشر (رؤ ١٤: ١٣).

يخبرنا الكتاب إنه فى رحلة بولس التبشيرية الأولى، شهد الرب لكلمة نعمته. وفى الإصحاحات الأولى من رسالة العبرانيين، نرى أن الله شهد للمبشرين بالصليب الأولين «بآيات وعجائب وقوات متنوعة، ومواهب الروح القدس» (عب ٢: ٤)؛ ودواما «الروح والعروس يقولان: تعال»، والعروس تقول بصوت مسموع: «تعال أيها الرب يسوع. تعال سريعا»، والروح يؤيد أقوالها بأناات لا يُنطق بها، رغم أنها تسود النفس وتملأها.

كان إعلانا جديدا، بل كشفا جديدا، ذلك الذى أعلنه بطرس فى ذلك اليوم؛ وهو فى غاية الأهمية والخطورة لنا أجمعين، إذ عندما تتزعج نفس الواعظ أو المعلم، وتتمرر بسبب قسوة القلب البشرى، وعناده، وإصراره على الخطية، فإنه مما يعزیه أن يذكر بأنه إنما هو شريك مع الروح القدس. كل ما يستطيعه الطفل إذا جلس إلى «البيانو»، أن يعبث بنغماته بإصبعه، ولكن إذا جلس إلى جانبه أستاذ قدير جدا فى الموسيقى، واستطاع بآلته الموسيقية المرافقة ليد الطفل أن يحوّل عبثه إلى نغمات شجية جدا؛ فمن ذا الذى يتأذى من لهُو الطفل؟ فعلينا ألا يبرح من بالنا قط أن الروح القدس يشترك معنا دوما فى الشهادة للحق. وبالتالي، يجب أن يكون معلوما بأننا إنما ننطق بالحقائق التى يجد أنه من الممكن أن يشترك فى تأييدها. وكما أعلن بطرس فى هذا الخطاب، أننا عندما نبشّر بموت يسوع وقيامته، وارتفاعه إلى السماء، ونبشّر به مخلصا ورئيسا، وكمصدر ورب للحياة، فإننا عندئذ قد يكون لنا الحق أن نعتمد على تأييد الروح القدس وشهادته للحق، كأن لسان حاله يقول: هذا حق، لقد كنت هنالك حينما قدم يسوع نفسه إلى الآب بلا تردد، كنت هنالك حينما مات، إن دمه يُكفّر، أنا واحد معه، فى النهر الجارى من عرش الخروف، نحن واحد فى تياره ومنبعه.

﴿٣﴾ رياسة الروح القدس الممتازة

كان فيلبس الشماس واسطة فى نهضة روحية قوية فى السامرة. وهنالك اكتشف فى سيمون رجلا ماكرا وطماعا. وكان سيمون هذا بارعا فى علوم السحر والعرافة التى كانت منتشرة إذ ذاك، وكان يصنع المعجزات بتواطئه مع الأرواح الشريرة. وما أكثر الذين يتبعون هذا الروح المضل اليوم تحت اسم «علم الاتصال بالأرواح». [١] وُصف هذا العلم الحديث بأنه محاولة الحصول على قوة ومعونة بمساعدة عوامل روحية غير معلومة، دون أى اعتبار لتلك الشروط الأدبية والدينية للطهارة والتقوى والفضيلة، التى بها وحدها يعلن الله نفسه للإنسان.

﴿١﴾ علم الاتصال بالأرواح «Spiritualism».

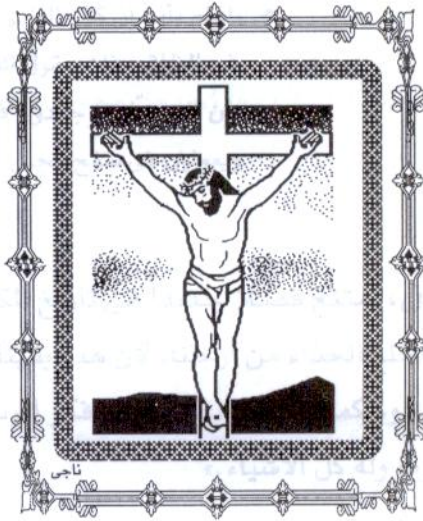
وكما قاوم ينيس ويمبريس موسى فى مصر، هكذا حاول سيمون أن يعرقل جهود فيلبس الموفقة مستعملا فقط اسم يسوع. ثم «... أن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج منهم صارخة بصوت عظيم، وكثيرون من المفلوجين والعرج شُفوا» على إثر كرازة فيلبس. على أنه لم يقنع بهذه المظاهر التى للقوة الروحية... فكان فيلبس «يكرز لهم بالمسيح، وكان الجميع يصغون بنفس واحدة»، ويؤمنون، «فكان فرح عظيم فى تلك المدينة» (أع ٨: ٥ - ٨).

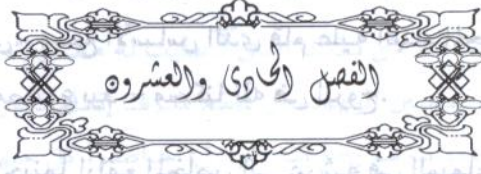
وللحال، أُبديت رغبة بطلب معونة أغزر مما يستطيع تقديمه فيلبس. أما الرسل الذين كانوا - رغم الاضطهاد الذى حل بالكنيسة عقب موت اسطفانوس - لا يزالون باقين فى اورشليم لكى يرعوا الحركة المسيحية العامة ويغذوها، فإنهم أرسلوا لهذه المدينة بطرس ويوحنا حاملين معها اعترافا رسميا بهذه الكنيسة المسيحية الفتية التى تكونت عقب تلك النهضة المباركة. وحينما كان بطرس ويوحنا يقومان بخدمة خشوعية، يطلبان فيها نعمة أغزر من نعم الروح القدس، يظهر أنه قد بدت مظاهر غير عادية للقوة الروحية أدهشت الناظرين، وخاصة سيمون. فإنه لاحظ، باندھاش عظيم، مقدار التغيير العجيب الذى شمل نفوس المتجددين وأرواحهم وأجسادهم، وسما بهم إلى حالة مجيدة من الفرح الروحى. فإذا أتيح له الحصول على تعويذة فى مثل هذه القوة، لكانت له بمثابة منجم ذهب. لهذا، فقد تجاسر بأن يقدم ثمننا لهذه القوة، الأمر الذى صار له خزيا أبديا، وطبع اسمه بطابع من القبح والبشاعة، وصارت «السيمونية» تطلق على كل من يحاول اقتناء موهبة الله بدراهم. فالتفت بطرس إلى ذلك الإنسان التعس، ووبخه بصرامة، قائلا: «لكن فضتك معك للهلاك، لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم. ليس لك نصيب ولا قرعة فى هذا الأمر، لأن قلبك ليس مستقيما أمام الله.»

وإذ نطق بطرس بهذه الكلمات المرعبة، ألم ترسم أمامه صورة رائعة، ليس فقط عن قوة الروح القدس الممتازة، بل أيضا عن الطهارة التى يتممها، وعن الشرط الحتمى الذى يجب توفره فيمن يشترك ويتعاون معهم، وهو أنهم يجب أن يكونوا قديسين

وطاهرين، وخالين من رذيلة الطمع، وقادرين على قبول معونته المباركة، منكرين لذواتهم، بلا مطامع شخصية، وأن يكونوا أوانٍ مقدسة متواضعة لإتمام إرادته... «تطهروا يا حاملى آنية الرب.»

إن درس عزة فى العهد القديم، وحنانيا فى العهد الجديد، يلزم كل واحد منا بفحص نفسه لئلا نخطئ نحن أيضا ضد قداسة الله. إن كانت طبيعته هى المحبة، وفى نفس الوقت تشبه النار، فلنذكر بأن النار تتلاشى. ورغم علمنا بأنه هو أبونا، فلنطلب منه، وقت الصلاة بنوع خاص، نعمة تعييننا على تقديم خدمة مقبولة بخوف ورعدة... «اخلع حذاءك من رجلك، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.»





﴿ باب الإيمان للأهم ﴾

﴿ أع ٦: ١ - ٧، ٨: ١٤ - ٢٥، ٩: ٣١، ١٠: ١٦ ﴾

❖ «هل تتوهم وأنت جالس في البطالة والكسل

أن الله يبقى أيضا بدون عمل؟»

❖ «وإن كنت تعيش في ظلام دامس، فهل تظن

أن نور الفجر سوف لا يتغلب على ظلمة

الليل؟

❖ «اعلم بأنه إن كان الوادي الذي تقطنه غارقا

في الظلام، فإن حقول الله تسعد بنور النهار،

وأن الحصاديين جادون في عملهم، نشطون،

ويعملون في سفح الجبل جزلين وفرحين.»

﴿ لوبل ﴾



والآن، نفتتح فصلا جديدا في تاريخ الكشف عن القصد

الإلهي لجنسنا. لنخلع الحذاء من أرجلنا، لأن هذه يقينا أرض مقدسة...

«يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. من عرف فكر الرب، أو من صار له

مشيرا؟ لأن منه وبه وله كل الأشياء.»

هنالك حقائق معينة يجب أن نلخصها ونحن نحاول أن نعرف

السر الذي في أجيال أخرى لم يعرف به بنو البشر، كما قد أعلن الآن العالم

بالروح القدس الذي يفحص كل شيء، حتى أعماق الله.



نحن نعلم أن الكنيسة وُلدت يوم قيامة الرب، فإنه كان دواما يشير إليها بصيغة المستقبل «وعلى هذه الصخرة أبني [وفى الأصل «سأبنى»] كنيسة». وحينما نزل «إلى أقسام الأرض السفلى»، وضع الأساس الذى قام عليه البناء المجيد، الذى كان يجب أن يُبنى معا - بيتا غير مصنوع بيد - مسكنا لله فى الروح.

ونحن نعلم أنه حينما ارتفع المخلص إلى عرشه فى السماء، نزل الروح المعزى إلى عرشه أو كرسيه فى الكنيسة، ليكون معلما لها وملهما ومرشدا، «واستقر [أو جلس] على كل واحد منهم»، إن الله لا يزال حالا بين البشر. وكما تجسد الرب يسوع المسيح من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، هكذا حلّ الروح القدس فى الكنيسة التى هى جسده ملء الذى يملأ الكل فى الكل.

ونحن نعلم أيضا أن القصد الإلهى من البدء هو أن تضم الكنيسة الواحدة، لا اليهود فقط، بل الأمم الذين لم يقبلوا ختم وعلامة العهد الإبراهيمى، بل دخلوا مباشرة من العالم الوثنى بمجرد الإيمان. كان هذا قصد الله الخفى (كما يخبرنا بولس فى ختام رسالة رومية) «الذى كان مكتوما فى الأزمنة الأزلية»، والذى لم يؤتمن على كشفه سوى بولس بصفة خاصة، الذى، ولو كان قد دُعِيَ بعد جميع الرسل، إلا أنه أُعطي له امتياز خاص أن يُدعى رسول الأمم. لم يكن أمرا هينا قط - حتى قبول كرنيليوس فى الكنيسة - أن يخطر ببال الرسل، أو جماعة التلاميذ، بأن الأمم يجب أن يكونوا شركاء اليهود فى الميراث وعضوية الجسد ومواعيد المسيح. وكانت الفكرة السائدة بأنه لا يجوز دخول الأمم باب الكنيسة المسيحية إلا بعد أن يصيروا يهودا أولا. أما الكتاب المقدس، فقد سبق أن أنبأ بأن الله يبرر الأمم بالإيمان، وبالإيمان فقط. أُعلنت هذه الحقيقة مقدما إلى إبراهيم فى فجر حياته باعتباره أب المؤمنين، وأُعلن إليه بأن «اليهودى فى الظاهر ليس هو يهوديا، ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم خтана. بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى، وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان. الذى مدّحه ليس من الناس بل من الله.» والأرجح جدا أن الرسل، عندما أرسلهم الرب إلى كل العالم ليكرزوا ويتخذوا تلاميذ من كل الأمم، ظنوا بأن طقس الختان يجب أن يسبق خدمة المعمودية. ولم يمكنهم أن يصلوا إلى كل الحق إلا بالتدريج، ويدركوا أنه فى

المسيح ليس يهودى ويونانى، أو ختان وغرلة، أو عبد وحر، أو ذكر وأنثى، بل الجميع واحد فيه.

ونحن نعلم أيضا أنه لاق بذاك الذى أعطيت له مفاتيح ملكوت السموات، والذى فتح باب بركة يوم الخمسين لليهود، أن يُمنح شرف إتمام نفس الخدمة للأمم أيضا. قضى بطرس ثمان سنوات مع رفقاءه الرسل، حاصرا كل جهده فى تثبيت وتدعيم الكنيسة الرئيسية. أما الآن، فقد حان الوقت ليتعلم أن بنيتها يجب أن يُجمعوا من جمهور كبير ليس له عدد من كل أمة وشعب ولسان.

فلنتأمل إذن فى الخطوات التى سارت به العناية فيها لتعلن له فكرة أوسع عن القصد الإلهى، مظلة إياه بتلك السحابة المرشدة التى أخرجته من أورشليم المستعبدة إلى أورشليم العليا التى هى بالحقيقة حرة روحيا.

كان بطرس يهوديا صميما. فكان يتشكك حتى فى اليهود الناطقين باليونانية، الذين كانوا مبعثرين فى كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية. وهو لم يعرف الأمم منذ الطفولة، إلا على قدر ما رآه فيهم من مدنية براقة حوّلت بحيرة الجليل إلى جنة رومانية. وكان قد تعرّف شخصا ببعض الضباط الرومانيين، ومحصى الضرائب وقواد المئات، والجنود، ولكنه لم يدخل بيتا أمميا قط، ولم يجلس إلى مائدة أممية قطعا، ولم يتعد وصايا الناموس الدقيقة على الإطلاق من ناحية الأطعمة. وكان يحجم عن معاشرة الأمم، كما يفعل البراهمى اليوم مع أطح الطبقات فى الهند. لهذا نراه، حينما دُعى لياكل من محتويات الملاءة العظيمة، التى كانت تحوى مختلف الحيوانات والطيور، يصرخ قائلا: «كلا يا رب، لأننى لم أكل قط شيئا دنسا أو نجسا».

إن المعلم الإلهى مستعد أن يطيل أناته علينا، قبل أن يأمرنا بالتنازل عن رغباتنا واتخاذ خطوة لا محيص عنها. هو يشع علينا بنور روحه القدوس المضى، قبل أن يدعونا لفك خيامنا والسير فى رحلة مجهولة. وهو يسمح بأن يعطينا «فرضا على فرض، وأمرنا على أمر، هنا قليل وهناك قليل» بكميات منوّعة، وأشكال مختلفة، لكى يكشف لنا عن مفعولية وضرورة وأهمية الطريق الذى يدعونا إليه.

لنتتبع الخطوات التى اتُخذت فى الحالة التى أمامنا:

﴿١﴾ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين

كان اليونانى (أى اليهودى اليونانى) ينظر دواما إلى اورشليم والهيكل نظرة المحبة والولاء، لذلك كان يجعلها قبلته أينما صلى، وإليها كان يأتى بكل أفراد أسرته، حسبما كانت تسمح نفقات السفر لحضور الأعياد السنوية. وفى المدينة المقدسة، كان يرغب أن يموت، ويُدفن فى تخومها. كان حاضرا يوم الخمسين عدد عظيم من هؤلاء اليهود الذين كانوا فى الشتات، فانضم الكثيرون منهم فى ذلك اليوم، كما فى الأيام التالية، إلى المسيح. وتنازل الكثيرون منهم عن ممتلكاتهم، كبرنابا الصالح، وأثوا بثمانها إلى الصندوق العام، وكان فقراؤهم يتناولون المساعدات من هذا الصندوق لإعالتهم. ولكن روح المحبة والسلام، الذى كان يسود كل الجماعة، سرعان ما تعكر صفوه بسبب ما ساد البعض من روح التذمر. فإن أراملمه اشتكين من أن روح المحابة ظهرت فى التوزيع اليوم، لأن أرامل اليهود المواطنين كن ينعمن بقسط أوفر منهن.

رأى بطرس ورفاقه أن موجة التذمر تعالت، وأن خطر الانشقاق محقق، فاعتزموا اتخاذ إجراء سريع لصد هذا التيار. وبعد تفكير طويل، وصلوا أخيرا إلى هذه النتيجة، وهى أن دعوتهم العليا هى للصلاة وخدمة الكلمة، أما خدمة الموائد هذه، فيجب أن توكل إلى سبعة رجال مشهودا لهم ومملوئين من الروح القدس وحكمة. لهذا تقدموا إلى الكنيسة لاستشارتها - باعتبارها السلطة العليا - واختيار هذا العدد من بينها... «انتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال من بينكم فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة.»

وهنا، نلاحظ ضمنا، أهمية هذا التصرف، وما يلقيه من ضوء على المركز الحقيقى الذى كان يشغله بطرس فى الكنيسة الأولى. فلو أنه كانت له السلطة التى يحاول خلفاؤه أن يخلعوها عليه، لما كان قد ترك التصرف فى هذا الأمر الخطير للكنيسة، بل كان قد تصرف حسبما تخوَّله له هذه السلطة المزعومة، واختار أولئك الشمامسة السبعة. ولكن هذا لم يحصل، فقد رُؤي بأن الاختيار يجب أن يُترك للكنيسة. أما الرسل، فإنهم إنما يصادقون على الاختيار بالصلاة ووضع الأيدي.

ومما يلاحظ أن جميع الشمامسة الذين اختيروا كانوا من اليونانيين اليهود، عدا الأخير الذى كان أمميا متصّراً. أما وحدة الكنيسة، واتفاق كلمتها فى هذا الإجراء الخطير، فيعزيان إلى حضور وإرشاد الروح القدس، الذى تبينّت سلطته العليا فى أمر حنائياً وسقيّرة، حتى أن بطرس لم يجسر أن يتفوّه بكلمة ضد القصاص الذى نالهما مهما بدا غريباً فى نظره.

﴿٢﴾ الاحتجاج القوى الذى قدمه استفانوس، ثم استشهاده

فى الخطاب الرائع الذى تدفق من بين شفّتى ذلك الشاب اليونانى، الذى طالما كان وجهه يلمع «كأنه وجه ملاك»، لابد أن يكون بطرس قد بُهر إزاء فصاحته التى لا حد لها، وطلاقة لسانه، وقوة حجته. ولعله ردد مراراً تلك الكلمات النارية التى نطق بها استفانوس، مؤكداً بأن ذلك الشعب المختار، فى كل أيامهم السالفة، كانوا يقاومون الروح القدس كلما دعاهم إلى خطوة جديدة (أع ٧: ٥١). رنت هذه الكلمات فى آذانهم، فكان لها أسوأ الأثر فى نفوسهم، فدبروا المؤامرات السرية، وعقدوا الاجتماعات العلنية. ولعل بطرس، وهو يصغى إليها، تذكر كلمات السيد المتضمنة بأنه من المستحيل وضع خمر جديدة فى زقاق عتيقة. ولابد أن يكون عقله قد تهيأ - وهو لا يدري - لفهم قصد سيده بتفسير أوسع مدى، وأدرك بأن الباب ينفّث ببطء لقبول الأمم.

﴿٣﴾ ثم تبع ذلك إرسالية السامرة

بسبب كرازة فيلبس، استطاع جمع غفير من السامريين أن يتحرروا من ضلالة سيمون الساحر، التى هى أشبه ما تكون بما نسميه نحن اليوم «علم الاتصال بالأرواح»، واعتمدوا باسم يسوع. كانت هذه النهضة تحتاج إلى تنظيم أدق، فاعتزم الرسل - الذين تجاسروا على البقاء فى أورشليم، رغم اضطهاد شاول العنيف - إيفاد بطرس ويوحنا لتفقد هذه الحركة، واقتياد المتصرين الجدد إلى التمتع الكامل بمواهب الروح القدس. لقد كان قلب الكنيسة ينبض بقوة، رغم أن الكثيرين من أبنائها وبناتها اضطروا لأن يهربوا بحياتهم.

وهنا، نرى بطرس مرة أخرى يلجأ للتعليم والصلاة ووضع الأيدي، فتتكرر معجزة يوم الخمسين «فقبلوا الروح القدس.» ورغم أن أهل السامرة كانوا يحرضون على ممارسة الختان، فإنهم كانوا معتبرين جنسا غريبا، وكان اسمهم يستعمل كعلامة للتحقير «أنت سامرى»، وكانوا معتبرين جنسا ملعونا، حتى إنه لم يكن متوقفاً أن يصدر عمل صالح من أى واحد منهم، كالعمل الذى أتاه السامرى الصالح. ولكن، كم كانت دهشة الرسولين حينما رأيا أنه، نتيجة صلواتهما، حلّ الروح القدس على الذين آمنوا من السامريين دون محاباة. والواقع أن بطرس تأثر جدا بما رأى، حتى إنه لم يكن فى وسعه إلا أن يسير مع تيار القصد الإلهى، ولذلك فإنه، لدى عودته إلى اورشليم، كرّز هو ويوحنا فى قرى السامرة التى جازا فيها (ع ٢٥). وهنا، نرى أيضا إعلانا آخر يكشف قصد الله.

﴿٤﴾ على أن العملية تقدمت تقدما محسوسا جدا بتجديد شاول الطرسوسى

كانت أخبارا فى غاية الغرابة والإدهاش، تلك التى وصلت اورشليم، بأن المضطهد الأعظم للكنيسة قد قطع الرب عليه الطريق، فصار خادمه المطيع. على أنه لم تكد تصل إلى المؤمنين أخبار أخرى عن تفاصيل هذا الحادث العجيب، حتى علموا أن شاول اضطر للهرب من دمشق، واتجه ناحية بلاد العرب. وبعد انقضاء فترة معينة، دهش بطرس إذ رأى أن شاول أقبل إليه فى مسكنه المتواضع فى اورشليم، ومكث فى ضيافته خمسة عشر يوما. لا شك فى أننا جميعا نتملكنا رغبة قوية للوقوف على تفاصيل ذلك الحديث الذى دار بين هاتين الشخصيتين المختلفتين فى السن والثقافة والعقلية، ولكنهما، رغم ذلك، متحدان عند أقدام المسيح. ألم يطلب شاول - الذى رأى الرب توا - من صديقه الأماكن التى ارتادها المسيح فى أيامه الأخيرة؟ ألم يفكرا فى الخروج خارج أسوار المدينة والذهاب إلى چشيمانى، والجلجثة، وبستان يوسف؟ لابد أن يكون بطرس قد حدث بولس بهذا الحديث وهو يصغى بكل انتباه: هناك، على تلك الخضرة، كان يسوع جاثيا، وأنا أتيت بعد ذلك فى الفجر وقلبي يكاد يتمزق. هنا، فى هذه البقعة، أشهرت سيفى، لأنى لم أحتمل بأن أرى القوم القساة القلوب يربطون يديه بقسوة

وعنف. نعم، تعال بنا إلى الجلجثة، هنا رفع صليبه؛ استطعت بالجهد أن أتبين المنظر وأنا واقف عن بُعد، لأن الظلمة كانت حائلة. لم أستطع الانتظار حتى النهاية، لأن القديسة مريم كانت في أشد حالات الحزن، وكان ينبغي أن يبقى معها أحدا، ولهذا عدت أنا لكي يمكن إخلاء يوحنا الذي ظل ملازما لها حتى عودتي. والآن، تعال بنا إلى القبر؛ هنا وضعوه مساء الجمعة، على أن النسوة أتين إلينا في فجر أول الأسبوع، وحملن إلينا رسالة بأنه حي، وبأنه يريد أن يرانى. فى ذلك المكان القصي التقينا، على أننى لا أستطيع أن أفضى إليك بكل ما حصل هناك، فإنه مغلق عليه فى قلبه وقلبي.

لم يكد الأسبوعان ينتهيان، حتى تقدم شاول فجأة إلى صديقه ووجهه يشرق بضياء غريب، كأنه رأى - كما رأى إشعياء من قبل - السيد جالسا على كرسي عال ومرتفع، وأذياله تملأ الهيكل، والسيرافيم يحيطون به وينشدون نشيد القداسة الدائم. وعلى الفور، وجه إلى بطرس هذا الحديث: أيها الصديق العزيز، ماذا تظن؟ بينما كنت أصلى الآن فى الهيكل، شعرت كأننى اختطف من الأرض، ثم رأيت السيد الذى قال لى: عجل فى الخروج من اورشليم، لأن أهلها لن يقبلوا منك شهادة عنى. فقلت: أيها الرب، إنهم يعلمون أننى كنت أسجن وأجلد، فى كل مجمع، كل من يؤمن بك. أما هو، فقال لى: لهذا فانت ترى أنه لا مناص من الذهاب.

لا بد أن يكون بطرس قد انزعج جدا بسبب ما علمه من الخطر المهدق بصديقه. ولهذا، اتُخذت خطوات سريعة نحو تدبير أمر إخراجه من منطقة الخطر، وارتحاله إلى قيصرية، وأخيرا إلى طرسوس (أع ٩: ٣٠). وعندما وصل خارج المدينة، ونجا بحياته، لابد أن تكون كلمات الوداع هذه «ها أنا ذاهب إلى الأمم» قد مزقت أحشاءه. لم يكن ممكنا عصيان هذه الدعوة، فقد أقته من الرب نفسه، ولكنها أعدته لتلبية الدعوة الجديدة التى كانت ستوجه إليه عن قريب.

٥٥ وتمت العملية فى يافا

بعد ارتحال بولس، رأينا أن «الكنايس فى جميع اليهودية والجليل والسامرة كان لها سلام، وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر» (أع ٩: ٣١). انتهز بطرس أيام الهدوء

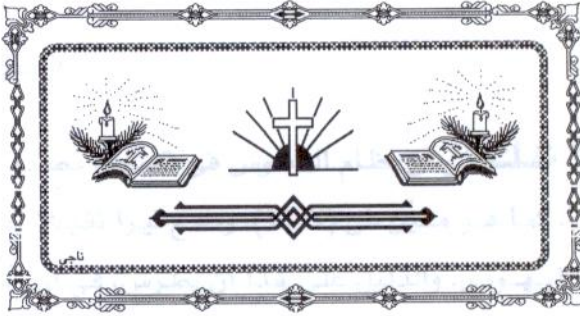
هذه، واعتزم القيام بجولة صغيرة لافتقاد الإخوة فى اليهودية. وبعد فترة قصيرة، وصل إلى لدة حيث شفى إينياس الذى كان مفلوجا منذ ثمانى سنين، وكانت هذه المعجزة ممهدة لكلمة المسيح الشافية. من ثم، استُدعى برسالة معجلة إلى يافا التى تبعد ستة أميال ونصف عن لدة، حيث كانت هنالك تلميذة محبوبة اسمها طابيثا قد ماتت. اقتدرت صلاة بطرس من أجلها، وحينما مد يده إليها، قامت لتستأنف خدمتها لكل القديسين والأرامل فى تلك المدينة الصغيرة.

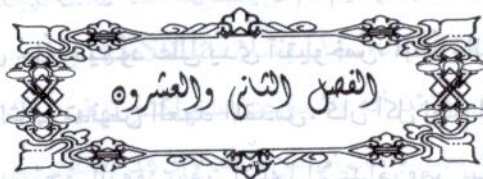
بعد ذلك، خيّل إليه أن مهمته هناك قد تمت، فإنه لم يكن أمامه سوى بحر الأمم، الذى ترمز مياهه المضطربة إلى اضطراب العالم، طالما كان بعيدا عن المسيح. أما المنزل الذى كان مقيما فيه - وهو بيت سمعان الدباغ - فقد كان حافلا بذكرى الموت، وما يتطلبه من تطهير حسب أمر الناموس. ولهذا، فقد كان البقاء فيه بغیضا جدا على نفسه كشخص يتمسك كل التمسك بالناموس. ثم إن كنيسة أورشليم قد نقص عددها جدا بسبب ما حل بها من اضطهاد وتشتيت، ولهذا، فقد أصبح مجال الخدمة فيها ضيقا ومحصورا جدا، ولا يكفى هذه النفس الطموحة، الواسعة الآمال، التى تعودت على الخدمة فى مجال متسع فى السنوات الثمانية الماضية. إذن، فما هى الخطوة التالية فى خدمته؟ أكان متوقعا ازدياد صنع الآيات على يديه، وأيدى رفاقه، كذلك الآية التى تمت على يديه فى يافا؟

فى وقت التفكير العميق فى هذا، صعد ظهر أحد الأيام إلى السطح ليصلى، ولعله قصد بصلاته أن يعلن الله له نورا جديدا... «وبينما هم يهيئون له» طعام الظهر، «وقعت عليه غيبة»، فرأى من السماء المفتوحة عالما مفديا كملاءة بيضاء. وحينما أبصر محتويات هذه الملاءة المتعددة الأصناف: الوحوش، الزحافات، والطيور، طاهرة ونجسة، انزعجت نفسه. على أنها ازدادت دهشة وانزعاجا، حينما سمع هذا التصريح الخطير، إن الله طهرها جميعا، وأن كل الحواجز الناموسية قد تحطمت، وأن فى استطاعته أن يأكل أيا شاء منها... «قم يا بطرس، اذبح وكل».

وإذ كان بطرس يرتاب فى نفسه، ماذا عسى أن تكون الرؤيا التى رآها، إذا به يسمع قرعا على الباب، وصوت رجال ينبعث وسط هدوء الظهيرة وهم ينادونه باسمه، ثم يؤكد له الروح أنه لا داعى للخوف أو التردد. كل هذا يدل على أن الساعة قد اقتربت، وأن هنالك عصرا جديدا ينتظر الكنيسة، وأنه سوف يتقدمها إلى أعظم نهضة عرفتھا منذ صعود الرب.

يا له من درس رائع الجمال لقلوبنا الحائرة المضطربة. كثيرا ما نجد إنه من العسير على أنفسنا الانتظار حتى تحين الفرصة السانحة، التى حددها الرب، ونخبط رأسنا فى أسلاك القفص كالعصفور المحبوس، وتخامرنا الشكوك، رغم أننا قد نكون مواظبين على الصلاة؛ ونجد إنه من العسير إطاعة وصية المرنم بأن نلقى كل همنا وكل طرقتنا وكل أنفسنا على الله. فلنصمت أمامه، ولنثق بأن الرسل مسرعين فى الطريق، حاملين الآن دعوة الله، أو إرشاده، أو المعونة التى نحتاجها... «على مرصدى أقف، وعلى الحصن أنتصب، وأراقب لأرى ماذا يقول... لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد، وفى النهاية تتكلم ولا تكذب. إن توانت فانتظرها، لأنها ستأتى إتيانا ولا تتأخر... والبار بإيمانه يحيا» (حب ٢ : ١ - ٤).





﴿ تحطيم النير ﴾

﴿ أع ١٠: ١٧، ١١: ١٨ ﴾

❖ «ذاك الذي في الساعة السادسة طلب

الاعتزال على السطح ليصلي، رأى منظرا

بعيدا عن دائرة تفكيره، رأى فجر دخول الأمم

الإيمان. إذن، فإن رأيت السحب قاتمة،

والأخطار جاثمة، فلا تنوهمن بأن الوقت

الذي قضيته في الصلاة ضاع هباء، بل ثق أن

أنقذ الفرص أو أحقر الأمكنة حاملة إليك

رسالة السماء.»

﴿ نيومان ﴾



لا شك في أن نظام الناموس في قسوته بصدد تحريم

أطعمة معينة، كما هو مبين في (لا ١١)، وضع نيرا ثقيلًا جدًا على

عنق الشعب اليهودي. والدليل على هذا أن بطرس، في أول مجمع

للكنيسة، وصفه بأنه نير لم يستطيعوا هم ولا أبائهم تحمله

(أع ١٥: ١٠)، وقد كان القصد منه ضمان اعتزالهم عن بقية الشعوب

لكي يكونوا له «خاصة من بين جميع الشعوب مملكة كهنة، وأمة مقدسة»

مكرّسة لله (خر ١٩: ٥ و ٦). لهذا، أقيم حاجز يتوسط بين اليهود



والأمم، لكى لا يتدنس مستودع الحق المقدس الذى أوْتَمَن عليه إبراهيم ونسله. ولكن، مهما بلغت هذه الحواجز من القسوة، فإنهم لم يترددوا لحظة فى إبقائها. ففى الاضطهاد المروّع الذى حلّ باليهود على يدى أنتيوخس، فضّل القوم الموت عن تدنيس أنفسهم بالأطعمة، وبالتالى تدنيس العهد المقدس. كان أكل لحم الخنزير معدودا ضمن قائمة المحرمات التى يستحق اليهودى من أجلها الإعدام، ومن بينها أيضا عدم الختان وعدم تقديس السبت.

«بيننا أجيال»

ونتيجة لهذه الحواجز الخاصة بالأطعمة، كان يُنظر للأمم بأنهم غرباء وأجنيبين وبعيدين «أجنيبين عن رعوية إسرائيل، وغرباء عن عهود الموعد» (أف ٢: ١٢)، وكانوا أيضا «بلا رجاء وبلا إله فى العالم». وإذا ما رغبوا فى الدخول إلى الإيمان، كان عليهم أن يدوروا حول خيام إبراهيم، ويجوبوا برية سيناء. هذا يتفق مع ما تقرأه من أن جماعة من الكنيسة الرئيسية تقدمت إلى الكنيسة الفرعية الجديدة التى تكونت من الأمم بهذه الرسالة «إن لم تختتوا حسب عادة موسى، لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥: ١).

طبيعى أن الأمر بتحطيم الحواجز الناموسية، كان ينبغى أن يكون واضحا كل الوضوح كالأمر بإقامتها. لهذا، فقد كانت رؤية بطرس، ورسالة كرنيليوس إليه، وتأييد الروح القدس الذى أُعلن إليه بكل جلاء - كانت كل هذه وافية بالغرض المطلوب. اتحد معا، بطرس وكرنيليوس، وصارا واحدا فى المسيح، وهكذا فتح لنا الرب «طريقا كرسه لنا حديثا حيا بالحجاب أى جسده» (عب ١٠: ٢٠)، ونحن الأمم قد صرنا قريبين بدم المسيح، لأنه صالحنا لله فى جسد واحد بالصليب.

لقد استغرق كشف القناع عن السر ثلاثة أيام.

﴿١﴾ قيصرية - الساعة الثالثة بعد الظهر

تحدّر كرنيليوس من عائلة تعد من أشرف العائلات الرومانية، وكان ينتمى إلى نفس عشيرة سكيبيوس «Scipios» [١] وسُلا «Sulla» [٢] وأمه جراتشى «Gracchi». كان المتداول بين الناس وقتئذ أنه «لا يوجد اسم أكثر توقيرا وكرامة فى روما من بيت كرنيليوس». كان يبحث بجد واهتمام عن الله. وإذ قد تثقلت نفسه من طقوس العبادة الوثنية، وخرافات عصره، طلب أن يجد راحة فى الإيمان الواحد الذى يقدم للبشرية فكرة وحدة الله وروحانيته، كما يبين الطريق إلى الطهارة والبر والرحمة؛ ففى وسط العالم الذى اكتظ بالعبادة الوثنية، وتعب من تطاحن الآراء الفلسفية المختلفة الدائمة، وتثقل جدا بفساد الأخلاق، وقفت المثل العليا لأسفار العهد القديم كقمة جبل مشرقة، محاولة أن تعكس أشعتها على الأرض من تحتها، لتبديد ظلمة الليل الذى قُضى عليه بالزوال، وكان ينجذب إليها جماهير غفيرة من العالم الوثنى «قومى استيرى لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك، لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض، والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليك يُرى، فتسير الأمم فى نورك، والملوك فى ضياء إشراقك» (إش ٦٠: ١ - ٣).

عندما استقر كرنيليوس فى المدينة [١] الفخمة التى شيدها هيرودس، والتى تبعد عن يافا بنحو ثلاثين ميلا إلى الشمال، ازداد اتصاله بديانة وثقافة العهد القديم. وكلما تعمق فى درسه، ازداد تأثرا، ونشأت فى نفسه رغبة ملحّة لِيُسْتَعْلَن له نور أوضح عن تلك الشخصية الإلهية التى طالما شهد لها الرأثون والأنبياء والملوك والكهنة بلا انقطاع. لقد كان رجلا تقيا، كريما فى إحسانه للفقراء، حريصا على اشتراك بيته معه فى العبادة، حارا فى الصلاة... وصفه خدمه وأتباعه بأنه «بار وخائف الله، ومشهود له من كل أمة اليهود». لعله كان فى طريق الاهتداء إلى اليهودية، وكان يدقق

﴿١﴾ هو «بيليوس كرنيليوس سكيبيوس»، قائد عظيم (٢٣٢ - ١٨٣ ق.م.)، برز فى حرب قرطاجنة الثانية.

﴿٢﴾ الدكاتاتور الرومانى، وكان قائدا عظيما أيضا (١٣٨ - ٧٨ ق.م.).

﴿٣﴾ قيصرية.

فى المحافظة على ساعات الصلاة اليومية. ولكنه رغم كل ذلك، لم يشعر بشيء من الراحة؛ وكان فى ذلك الوقت يجوز تدريباً روحياً عميقاً. لقد كان يبحث عن اللآلئ الثمينة، أما اللؤلؤة الواحدة الغالية الثمن، التى كان مستعداً أن يضحي بكل شيء فى سبيلها، فلم يحصل عليها.

لقد كان يدرك أنه لا يزال خارج حظيرة اليهود. فهل كان يجب عليه أن يخضع لتقاليدهم، ويقبل إتمام الطقس الأول (الختان)، فيقبل فى المجمع كواحد منهم؟ ثم إنه كان قد سمع عن يسوع الناصرى، عن حياته الطاهرة، عن معجزاته، وعن تعاليمه. فهل من الحكمة أن يندمج ضمن أتباعه؟ لعله بسبب هذه الأفكار وأمثالها، كرّس يوماً للصلاة والصوم، للتحقق من إرادة الله بصدها. لقد سبق له أن رفع صلوات كثيرة مماثلة «صلواتك وصدقاتك صعدت تذكراً أمام الله». أما هذه الصلاة، فقد كانت ممتازة وقوية «يا كرنيليوس، سمعت صلواتك»، لأن نفسه كانت قد وصلت إلى حالة لا تُحتمل، فصرخ من أعماق قلبه طالباً النجدة والمعونة. قال المرنم: «أما أنا فصلاة»، وقال يعقوب: «لا أطلقك إن لم تباركنى. أخبرنى باسمك. وباركه هناك» (تك ٣٢: ٢٦ - ٢٩).

مهما اشتد الصراع فلن أطلقك

حتى أعرف اسمك وشخصيتك

وبفته، وقف بجواره ملاك، وصفه أتباعه، حينما قصوا الرواية لبطرس، بأنه «ملاك مقدس»، ووصفه كرنيليوس نفسه بأنه «رجل بلباس لامع»... «طيب هو الرب للذين يترحمونه، للنفس التى تطلبه» (مراثى ٣: ٢٥)، «يعمل رضى خائفية» (مز ١٤٥: ١٩) [١]، من يريد أن يعمل مشيئته يعرف (يو ٧: ١٧)، «فلنتبع لنعرف الرب، خروجه يقين كالنجم» (هو ٦: ٣).

انزعج كرنيليوس جداً - رغم أنه قائد ومتعود على مواجهة الأخطار - فى بداية الأمر، لدى هذا الاتصال المفاجئ بعالم الروح. وإذ أفاق من تلك الصدمة، سأل: «ماذا

❶ «يفعل مرضاة الذين يتقونه» حسب ترجمة اليسوعيين، أو «يتم شهوة متقيه» حسب الترجمة الإنجليزية.

يا سيد^٥ فأجيبَ على هذا السؤال بأن صلاته، التى طلب فيها نورا وإرشادا، ستتحقق بواسطة رجل اسمه سمعان بطرس، مقيم عند رجل دباغ فى يافا، بيته عند البحر.

مما هو جدير بالملاحظة، أن الله لا يرسل ملائكته لتبشير العالم، أو إرشاد قديسيه عن أسرار الملكوت. يا له من معنى عميق فى هذه الكلمات: «لأنه حقا ليس يمسك الملائكة، بل يمسك نسل إبراهيم» (عب ٢: ١٦). [١] فى كل يوم من أيام الأحد، يستطيع أن يفتح أبواب السماء، ويرسل زمرات من الملائكة لإرشادنا وتعليمنا، ولكن هذا لا يحصل، فإن الكنز يودع فى أوانٍ خزفية، والله يختار رجالا ونساءً، خطاة، محاطين بالضعف، كسفراء عنه لإخوتهم... «وقال لى: يا بن آدم، كل الكلام الذى أكلّمك به أودعه فى قلبك واسمعه بأذنيك، وامض اذهب إلى المسيحيين إلى بنى شعبك وكلمهم» (حز ٣: ١٠ و ١١). كان ميسورا للملاك أن يقول عظة بطرس وأكثر منها، ولكن، كل المهمة التى انتدب إليها، هى أن يخبر كرنيليوس بأن يستدعى الرسول الصياد. لم يأمره باستدعاء فيلبس المبشر، مع أنه كان فى نفس المدينة، ذلك لأنه لم يكن قد جاز نفس التدريب الروحى الذى جازه بطرس، ولا وصل إلى الدرجة التى يرى فيها الرؤية التى رآها بطرس. يجب ألا ننسى قط أن التدريب الروحى الذى نجوزه، لا يقصد منه إلا أن يجعلنا نافعين لخدمة السيد، وبعدها لتوصيل رسالة معينة مقرونة بالعواطف الرقيقة، وإدراك الحاجات الشخصية... «الذى أقوله لكم فى الظلمة، قولوه فى النور. والذى تسمعونه فى الأذن، نادوا به على السطوح» (مت ١٠: ٢٧)؛ إن الله يعلم دواما أين يجد آنيته المختارة، وعنواناتهم مسجلة فى السماء.

﴿٢﴾ يافا - الساعة الثانية عشرة ظهرا

لم يتوان كرنيليوس مطلقا فى تنفيذ ما أُعلن إليه فى الرؤيا. فإنه حالما تورأى الملاك عن العيان، استدعى اثنين من خدامه وعسكريا تقيا، وكانوا جميعا يشاركونه آراءه الدينية، وأرسلهم إلى يافا. قطعوا جزءا من الطريق فى الساعات الباقية من النهار، وأنتموا رحلتهم ظهر اليوم التالى.

﴿١﴾ ورد النص فى ترجمة اليسوعيين: «فإنه لم يتخذ الملائكة قط، بل إنما اتخذ نسل إبراهيم»، أى لم يتخذ طبيعة الملائكة، بل طبيعة البشر.

كان بطرس قد أفاق توا - كما رأينا فى الفصل السالف - من غيبته التى رأى فيها عالما مفديا، والذى أخبره فيها الله ألا يقول عن أى إنسان أنه نجس أو دنس. ولقد تحقق بطبيعة الحال أنه، إن كانت التفرقة بين الحيوانات النجسة والطاهرة قد أبطلت، فإن هذا يتضمن حتما إبطال التفرقة بين اليهود والأمم، فإن حاجز السياج المتوسط قد تحطم، ونعمة الله قد فاضت جدا وعلت كل الحواجز والسدود التى كانت تحجزها، وصار الخلاص كالندى أو المطر لا يعرف تحيزا، وليست له حواجز أو حدود، بل يروى بمحبة متساوية كل القلوب المتعطشة التى للأبرار والأشرار، العبيد والأحرار، السامريين والأمم واليهود.

وفى اختباراتنا الشخصية، يجب - قبل أن نخطو خطوة واحدة فى الطريق الذى نجهله - أن ننتظر حتى تثبت من الرؤى التى نراها، وتتأيد بقرع الباب، وأمر الروح القدس الصريح؛ فإن الذى شجع بطرس، هو تتابع هذه العلامات الثلاثة المميزة: الرؤيا، أمر الروح القدس، إرسالية الرجال الثلاثة... «وبينما بطرس متفكر فى الرؤيا، قال له الروح: هوذا ثلاثة رجال يطلبونك.» فعلينا ألا نغض الطرف أبدا عن الرابطة التى تربط الرؤى بالواجبات والمسئوليات. نحن واقفون على الدوام بين الاثنين، فكل منا له رؤى، قد تكون أوضح أو أعلم، قد يراها فى نور الشمس أو فى ضوء النجوم، قد تكون منيرة وجميلة، أو غامضة تحجبها السحب. وكل رؤيا مقرونة بهاتين العلامتين: قرع الباب ونداء إخوتنا، وهاتان قد تكونان واضحتين كل الوضوح، أو خفيتين جدا. يجب ألا نعتد على الرؤى وحدها دون نداء الواجب، لئلا نكون واهمين، مخدوعين، نجرى وراء أضغاث أحلام؛ ويجب ألا نعتد على نداء الواجب فقط دون الرؤى، لئلا نكون كالبهائم العجمى التى تساق. حينما تشك فى الرؤيا، ولا تتبين تماما إنها من الله، انتظر حتى يبين لك علامة أخرى عن إرادته من خلال الظروف، أصغ إلى الرجال الثلاثة يقرعون وينادون. وحينما تتبين هذا تماما، انتظر أيضا حتى تسمع الصوت الخفيف للروح القدس يقول: «قم وانزل واذهب معهم غير مرتاب فى شيء، لأنى أنا قد أرسلتهم.»

تبددت كل شكوك بطرس، وزال تردده. فدعا الرجال إلى المنزل، وأضافهم، واشترك معهم فى تناول الطعام المعد، وأبقاهم تلك الليلة. وفى صباح اليوم التالى، ذهب معهم إلى قيصرية. ولابد أنهم قد ساروا فى الطريق الرئيسى المحاذى للبحر الأبيض المتوسط. كان يرافق بطرس فى هذه الرحلة - عدا رجال كرنيليوس الثلاثة - ستة من مؤمنى اليهود، حرص بطرس على إبقائهم معه تحت تأثير أن المهمة، التى هو مزعم أن يقوم بها، لابد أن تكون موضع بحث دقيق من الرسل وزعماء أورشليم. استغرقت رحلة هؤلاء الرجال العشرة أكثر من يوم. وفى صباح اليوم الثالث لرؤيا بطرس، دخلوا قيصرية، تلك المدينة ذات القصور الرخامية، مقر الحاكم الرومانى. لو أن نبأ جاء إلى أهل تلك المدينة المتغطرة بأن الشهرة، التى سوف تنالها فى السنوات التالية، تنشأ من زيارة هذه الجماعة المتواضعة، التى دخلت أبوابها صباح أحد الأيام عام ٤٣ أو ٤٤م، وشقت طريقها إلى الثكنات الرومانية - لمقابلة أحد القواد - لما صدقوا هذا النبأ؛ فإن هذه المدينة لم يبق منها اليوم إلا أطلال دارسة. أما زيارة بطرس ورفاقه، فقد كانت بداية نهضة عظيمة جدا، أثرت على العالم كله.

﴿٣﴾ قيصرية - الساعة الثالثة مساءً

يبدو أن كرنيليوس كان يلتف حوله جماعة من الأقارب والأصدقاء الذين اتصلوا به اتصالا روحيا. وهؤلاء، بينَ لهم كرنيليوس اختباراتهِ الجديدة، ودعاهم ليشاركوه تلك البركة التى أكدها له الملاك. عمل كرنيليوس حسابا دقيقا لموعد عودة رسله مع الضيف المرتقب، وفى الساعة المعيّنة قدم الكثيرون. وهكذا اجتمع الجميع، وكانوا - كما قال المضيف - حاضرين أمام الله ليسمعوا جميع ما أمر به الله عبده بطرس من جهتهم.

عندما أُعلن بأن الركب وصل، إستقبله كرنيليوس على الباب الخارجى، وبكل وقار وإجلال وتعظيم، سجد أمام ذلك الرجل الذى قدم برسالة من لدن غير المنظور. وللحال، انحنى بطرس، وأقامه قائلا: «قم. أنا أيضا إنسان». لبت كل خلفائه يقتادون ببساطته ووداعته وتواضعه... وإذا سارا معا إلى غرفة الاجتماع، التى كانت الجماعة

تنتظر فيها على أحر من الجمر، تحدث بطرس حديثاً ينم عن روح المحبة الأخوية، مما فتح قلب كرنيليوس، وجعله يشرح كل الظروف التى أدت إلى ذلك الاجتماع. وفى ختام حديثه القصير، قال: «وأنت فعلت حسناً إذ جئت»، وكان مشتركاً معه فى هذا الإحساس كل المجتمعين حوله. حينئذ، فتح بطرس فمه وتحدث، وسط إصغاء الجميع إصغاءً تاماً، وفى جو روحى عميق، وفى اقتناع تام بأنه إنما يتم قصد الله.

كان حديثه مقسماً إلى ثلاثة أقسام، فإنه روى أولاً سيرة يسوع المشهورة الذى «هو رب الكل»، رغم أنه جاء فى صورة متواضعة. ثم إنه قدّم شهادته الشخصية عن قيامته من بين الأموات «نحن أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات». وأخيراً، نراه ينادى بغفران الخطايا بالإيمان باسمه. لم ينطق بطرس بكلمة واحدة عن الختان... ولم يشر بضرورة اجتياز المجمع قبل دخول الكنيسة. ولم يذكر حتى مجرد اسم إبراهيم أو موسى، وكان الشرط الوحيد الذى قدّمه لغفران الخطايا، هو الإيمان بذلك الذى قتله اليهود، معلقين إياه على خشبة، ولكن الله أقامه من الأموات. وذكر أن هذه الهبة مقدمة لجميع البشر فى كل أمة، لكل من يتقيه ويصنع البر، يهودياً كان أو أممياً، فالجميع يرحّب بهم الله للتمتع بالمغفرة والسلام كأعظم عطية من عطاياه، ليكونوا مقبولين فى المحبوب.

• كان حديث بطرس فى غاية البساطة، لا فصاحة ولا بلاغة ولا فلسفة فيه. ولم يكذب بطرس يبدأ حديثه، حتى اكتسح الجميع شعور قوى وتأثير عميق؛ وكأن الروح القدس كان منتظراً بفارغ الصبر حتى يعمل ويدع بطرس جانباً بكل رقة. فى يوم الخمسين، صرف بطرس وقتاً طويلاً حتى يدلى بحججه، ويقدم براهينه. أما فى هذه الحالة، فلم يكن الأمر فى حاجة لهذه أو تلك، فإن الروح القدس حل على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة. لم يُسمع صوت شديد من السماء، ولم تنزل لُهُبٌ نارية، وإنما أُعطيت موهبة التكلم بالسنة. واندھش الرجال الستة الذين كانوا يرافقون بطرس، حينما سمعوههم يتكلمون بالسنة ويعظمون الله.

حينما شاهد بطرس هذا المنظر، تذكر يوم الخمسين كما ذكر فيما بعد «فلما ابتدأت أتكلم، حلّ الروح القدس عليهم كما حلّ علينا أيضا فى البداية. فتذكرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمّد بماء، وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس. فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضا بالسوية مؤمنين بالرب يسوع المسيح...» وهنا أيضا - كما فى يوم الخمسين - شَخَّصَ الجميع بأبصارهم إلى فوق، وتطلعوا إلى وجه يسوع فرحين، وتحدثوا عن جماله، وعما اختبروه من قوة خارقة للعادة. وفجأة، اندمج الجميع معا، وصاروا وحدة واحدة، بعد أن كانوا جماعات متفرقة.

أليس هذا المنظر مليئا بالمشجعات؟ لا شك أن حلول الروح القدس أولا على اليهود فى يوم الخمسين، وثانيا على الأمم فى بيت كرنيليوس، لم يُقصد به إلا أن يتكرر على مر الأجيال. على أنه قد قُصد به أيضا أن كل نفس من الأمم يحق لها أن تتوقع نفس الامتلاء، فإن بركة إبراهيم قد صارت للأمم فى المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح (غل ٣: ١٤). وكما أننا بالإيمان ننال نعمة الخلاص، كذلك بالإيمان ننال موعد الروح ونمتلئ يوما فيوما.

على أن مثل هذا الإيمان، يتوقف على الدوام على إخضاع الإرادة لله، والشركة الكاملة مع الله بواسطة كتابه. لماذا لا يدرس كل قارئ الإصحاح الثالث من رسالة غلاطية مرة أخرى، وحينما يصل إلى العدد (١٤)، يطالب بميراثه؟ ألسنا ورثة مع المسيح؟ قد لا يكون هنالك شعور محسوس، على أن الإيمان لا يمكن أن يُخزى. ليت كل خادم ومعلم يكون ممتلئا، لكى يحلّ الروح القدس حالما نبتدىء نتكلم. قيل عن أحد الخُدّام الأمانة، أنه حينما كان يمر على مصنع يوما ما، سخرت منه إحدى الفتيات بعبارة أليمة؛ أما هو فتغاضى عنها. ولكنه حالما التفت إليها، بدأت تبكى مقتنعة بخطئها، وشاركها فى البكاء كل الزميلات... «إن الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضا بالسوية.» هل حصلنا نحن أيضا على هذه الموهبة؟ إن كان الأمر كذلك، فيجب أن تتوفر الأمور الآتية:

﴿١﴾ يستقر الرب يسوع المسيح فى حياتنا .

﴿٢﴾ تتعمق فىنا حياة الصلاة .

﴿٣﴾ تُصلَب روح الأنانية على الصليب .

﴿٤﴾ نمنح قوة حقيقية فى الخدمة .

﴿٥﴾ تبدو فى حياتنا وتصرفاتنا، بشكل ظاهر، روح النعمة والمحبة .

هل امتلأنا بالروح؟ إن كان الأم سلبيا، فلماذا؟ «من يعطش فليأت. ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجانا» (رؤ ٢٢: ١٧)؛ إنه يتدفق من عرش الله والخروف .

فى حالة كرنيليوس ورفاقه، جاءت المعمودية الماء بعد المعمودية الروح القدس مباشرة، تأييدا للنعمة الداخلية بالعلامة المنظورة، واتباعا للقاعدة التى توخاها بولس فيما بعد، نراه لا يقوم هو شخصيا بخدمة المعمودية، ولعل ذلك راجع إلى رغبته فى أن يزيل من الأذهان كل فكر يتوهم بأن السر يستمد قوة خاصة من قداسة الشخص الذى يمارسه، لذلك ترك الخدمة للسته رجال الذين رافقوه من يافا .

وهكذا، صار لقيصرية، فى ذلك الوقت، شأن عظيم فى الكنيسة المسيحية .

﴿٤﴾ اعتراض كنيسة أورشليم

وصلت أخبار ما فعله بطرس إلى أورشليم بسرعة. ولهذا، نراه لا يضيع وقتا فى العودة إلى أورشليم لتقديم تقريره مقرونا باختباره الشخصى. لم يقتصر ذبوع الخبر على أورشليم فقط، بل إن «الإخوة الذين كانوا فى اليهودية سمعوا أن الأمم أيضا قبلوا كلمة الله.» ومن ذلك نستنتج أن هذه الأخبار أحدثت ثورة عظيمة، بل لعلها أحدثت شيئا من سوء التفاهم. فإن الظروف التى دفعت قائد الكنيسة إلى الخروج عن طقس مألوف، وعادة شرعية، يجب درسها بدقة قبل المصادقة على تصرفه أو قبول المتصرفين الجدد. يخبرنا الكتاب بأنه «حينما صعد بطرس إلى أورشليم، خاصمه الذين من أهل الختان.» ومن ذلك نستنتج أنه كان داخل الكنيسة جماعة من المحافظين الذين اتبعوا

الكنيسة فيما بعد، والذين أصروا على أن الأمم يجب أن يخضعوا للطقس اليهودى قبل الدخول إلى الكنيسة المسيحية. وفى حديثهم عن هؤلاء الأمم، الذين جلس بطرس ليأكل معهم، تشتم رائحة الازدراء بهم.

أما بطرس، فإنه قابل اتهاماتهم بسرد الحوادث بمنتهى الدقة. لو أنه كان قد أُعطيت إليه سلطة مطلقة، كما تدعى الكنيسة البابوية، لما سمح لإخوته بمناقشته، ولما وقف أمام الكنيسة ليشرح قضيته، ولما سمح لدعوة بعض الشهود لتأييد دعواه، بل لرأيانه يتصرف تصرف الحاكم بأمره، ويستبد بسلطته المطلقة، ولكنه عوضا عن ذلك، ينصرف عن شهادة البشر، وعن شهادته هو الشخصية، ويلجأ إلى شهادة الله نفسه، فإن نزول الروح القدس كان أكبر مؤيد لسلامة تصرفه «إن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضا بالسوية، فمن أنا؟ أقادر أن أمنع الله؟» لقد أعطى ختم الروح للأمم الذين آمنوا، كما أعطى من قبل لمن آمنوا من اليهود بالتساوى. فقد كان الإيمان شرطاً كافياً لهذا الختم، بغض النظر عن الختان أو الغرلة. إذن، فيقينا أنه لا الختان ولا الغرلة ينفع شيئاً، بل الإيمان العامل بالمحبة. لم تستطع الكنيسة بعد ذلك أن تقول شيئاً «فلما سمعوا ذلك سكتوا، وكانوا يمجدون الله قائلين: إذن، أعطى الله الأمم أيضا التوبة للحياة».

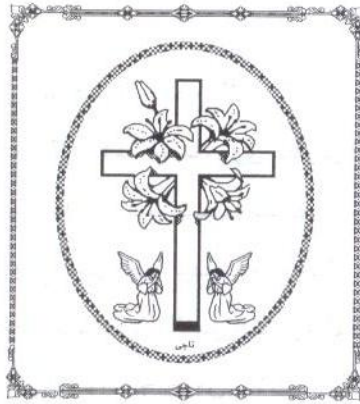
تجدد النزاع بشكل أعم فى المجمع الأول للكنيسة، الذى نرى تفاصيله فى إصحاح (١٥) من سفر الأعمال. وهنا أيضا، نرى بطرس يروى قصته العجيبة، ليبرهن بأن الله الفاحص والعارف القلوب، قد شهد بصحة إيمان كرنيليوس بمنحة الروح القدس كما للتلاميذ أولا، ولم يميز بين اليهود والأمم، إذ طهر بالإيمان قلوبهم كما طهر قلوب اليهود. فلماذا تضعون عليهم هذا النير الثقيل؟ لهذا قدم لهم اقتناعه الشخصى القوى بأن اليهود والأمم على السواء يخلصون بالإيمان فقط، دون أى اعتبار للختان.

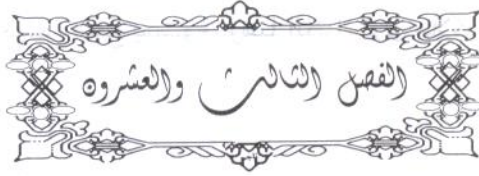
كانت هذه الكلمات نبيلة، ولكنها، مع الأسف لم تستطع، لا هى ولا قرار المجمع أن تضع حدا للنزاع الذى قام بين الحزبين اللذين مزقا الكنيسة بمنازعاتهما. والواقع إن

حزب المحافظين تقوّى، حتى أن بطرس نفسه ضعف أمامه، وكذلك برنابا الرجل الصالح المحبوب، كما يخبرنا بولس فى (غل ٢).

وكان من نتيجة هذا أن أخذ بولس على عاتقه - وهو الأصغر - الدفاع عن هذا الحق الذى بدأه الرسول الأقدم منذ سنوات مضت، واضطر أن يقاومه مواجهة لأنه كان ملوما، واتخذ إجراءات قوية رآها لازمة وضرورية. ولو لم يكن قد قاومه بولس، لكان قد أصبح صخرة عثرة لا صخرة أساس، ولتعطل الإيمان، وعمت الفوضى.

ونحن نشكر الله من أمانة رسول الأمم فى مقاومته، وفى نضاله من أجل المبدأ الذى ربما يكون قد تعلمه من بطرس، والذى عبّر عنه فى حديثه معه، إذ قال: «نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الأمم، إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان المسيح، آمنا نحن أيضا بيسوع المسيح لتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس، مع المسيح صُلبت، فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فى» (غل ٢: ١٥ - ٢٠).





﴿ أمضى معك حتى إلى السجن ﴾

﴿ أ ع ١٢ ﴾

❖ «كم مرة تركوا أمجادهم، وأتوا إلينا لنجدتنا؟
كم مرة جاهدوا جهاد الأبطال، ليقدّموا إلينا
المعونة في جهادنا؟»

﴿ سينسر ﴾



ثم كان الفصح أيضا، «وكانت أيام الفطير» (ع ٣). قبل ذلك الوقت بأربعة عشر عاما، أرسل بطرس ويوحنا ليعدا الفصح للسيد. وحين كان التلاميذ ملتفين حول المائدة، أعلن بطرس استعداداه للذهاب معه حتى إلى السجن. وهنا، نراه يتم تعهده هذا بكل نبل وأمانة. في ذلك الفصح أيضا نام، ولكنه كان نوم الغفلة وعدم السهر، نوم الثقة بالنفس، نوم ضعف الجسد. لم يقدر أن يسهر ساعة واحدة مع المسيح؛ كان نومه نوم الحارس في حراسته. أما هنا، فنراه ينام أيضا (ع ٦)، ولكنه كان نوم الثقة الكاملة في نعمة المسيح الذي يقدر أن يخلصه إن سُرَّت مشيئته، وإن لم يسمح بأن يخلصه، فإنه يستطيع أن يعينه لكي يكون آمينا في الموت. في تلك المرة، نام بطرس بينما كان المسيح يصلى. أما الآن، فلم يكن رئيس الكهنة الأعظم فقط يطلب لكي لا يفنى إيمانه،



بل كان مجتمعا فى بيت مريم كثيرون للصلاة من أجله. ولكنه لم يكن مقضيا عليه بالموت. فى صباح يوم القيامة الأول، نزل ملاك من السماء، ودحرج الحجر الذى كان على قم القبر، حيث وُضع يسوع. وهنا أيضا، نرى ملاكا يفتح أبواب السجن فى صباح يوم القيامة.

﴿١﴾ «قام ملوك الأرض»

«فى ذلك الوقت، مد هيرودس الملك يديه ليسىء إلى أناس من الكنيسة»، كان يدعى هيرودس أغريباس، وكانت أخلاقه فى أشد حالات الانحطاط.

كان لا يزال متمسكا بإجرام وسفالة الأباطرة الرومانيين، وكان يتظاهر أمام الناس بثوب الحملان، ولكنه كان يخفى تحته شراسة الوحوش. وكان نفوذه وسلطانه لا يقلان عن هيرودوس الكبير. ولكى يتودد إلى قادة اليهود، كان يتظاهر بالغيرة الشديدة على طقوس ناموس موسى، فإن يوسيفوس يخبرنا بأنه لم يسمح أن يمر يوم واحد دون تقديم الذبائح المطلوبة. ورغبة منه فى زيادة إرضاء قادة اليهود، بدأ يسفك دماء الشهداء المسيحيين. لم يجسر مجمع اليهود إلى ذلك الوقت أن يقاوم تقدم ونمو الكنيسة علنا، ولو أنهم كانوا يتحرقون ويحنقون أشد الحنق عليها؛ لذلك نراهم يرحبون بسياسة الاضطهاد والقتل التى شرع فيها الملك، بل إنهم تفاضوا عن سلوك الملك لحق الحكم بالموت الذى كانوا محتفظين به لأنفسهم. لقد تم لهم ما أرادوه من بغض المسيح، ولقد تقوى مركز هيرودس؛ ألم تكن هذه النتائج تستحق سفك دماء المسيحيين؟

كان أول ضحية هو يعقوب، وهو أحد التلاميذ الثلاثة الذين كانوا مقربين إلى المسيح، كان يدعى بوانرجس، وهو الذى، فى إحدى المناسبات، طلب أن تنزل نار من السماء. لعل رغبته الملحة فى أن يأخذ العدل مجراه، هى التى عجلت بقتله بسيف هيرودس، ولعله وقف فى الثغرة أمام الظالم، وأعلن له القضاء المحتوم الذى لا بد أن يحل به إن استمر على سياسة الاضطهاد، والذى حل به فعلا كما نرى فى ختام هذا الإصحاح؛ لعله ذكّر هيرودس بمشهد الموت المروّع الذى حلّ بجده. كل هذه

التفاصيل وغيرها صمت عنها لوقا فى سرد روايته، وكل ما نعلمه هو أنه برهن على أن فى استطاعته أن يشرب من كأس سيده ويصطبغ بصيفته، وأنه صعد إلى عرشه فى مركبة نارية.

أدرك اغريباس أن ذلك يرضى اليهود، فشجعه هذا على أن يضرب ضربة أخرى، أشد؛ ورأى فى هذه المرة أن يلقى القبض على زعيم تلك الشيعة البغيضة الذى تحدى كل سلطان السنهدريم أكثر من مرة. كان بطرس أقوى جماعة المسيحيين. وتدل الاحتياطات التى اتخذت لتشديد الرقابة عليه، على أن الملك خشى لئلا يحاول النجاة، وعلى أن مشيريه وحاشيته تذكروا المناسبتين السابقتين اللتين انفتحت فيهما أبواب السجن لإطلاق سراح نفس هذا الرجل. قام هيرودس وتآمر على الرب وعلى مسيحه، كما فعل من قبل فرعون وشاول وأخاب وهامان وأنتيوخس أبيفانيوس وهيرودس الكبير ونيرون.

خصص ستة عشر جنديا «أربعة أربع» (ع ٤) لحراسته فى السجن، كان يعمل كل أربعة جنود ثلاث ساعات ثم يُخلى سبيلهم، وخصص اثنين للبقاء معه فى غرفة السجن، ربط كل منهما بسلسلة من أحد جانبيه، ووقف ثالث خارج الباب المحكم المغلق، ووقف رابع فى الممر المؤدى إلى الباب الحديدى الخارجى. والأرجح جدا أن مكان السجن كان قبلا قصر أنطونيا الذى كان قائما بين السور الخارجى والسور المتوسط... «الشريـر يتفكر (أو يتآمر) ضد الصديق ويَحرق عليه أسنانه. الرب يضحك به لأنه رأى أن يومه آت» (مز ٣٧: ١٢ و ١٣). لقد كان هلاك هيرودس معدا فعلا، وكان الملاك المزمع أن يطلق سراح بطرس متأهبا ليضرب الظالم العاتى الضربة القاضية فى أعز ساعات رفعتـه وسؤدده. فإنه حالما صرح الشعب «هذا صوت إله لا صوت إنسان، ففى الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله»، ونقل من كرسى الملك إلى قصره فى حالة يرثى لها، وصار يأكله الدود، وظل متعذبا خمسة أيام فى آلام مريرة، حتى مات فى اليوم السادس من شهر أغسطس، غير مأسوف عليه. وكما قال بطرس بعد ذلك بزمان طويل «يعلم الرب أن ينقذ الأتقياء من التجربة ويحفظ الأئمة إلى يوم الدين معاقبين [أو تحت العقاب]» (٢ بط ٢: ٩).

حسب النظرة البشرية، كان الموقف يبدو حرجا، بل خطرا، فإنه لو أن خطط هيرودس ضد بطرس نجحت، فماذا يتوقع عامة أفراد الكنيسة سوى الهلاك المعجل؟ إذا لم يستطع الراعى أن يثبت فى وجه الأسد، فماذا تتوقع الغنم؟ على أن هنالك سلاحا فى يد أولاد الله على الدوام، فإن كل شئ ممكن وميسور لدى الله. فمن الأقوال المأثورة «إن الصلاة تحرك الذراع التى تحرك العالم» ولكن، أليس الأصح أن نقول إنها تصل إلى قلب ذاك الذى له كل سلطان فى السماء وعلى الأرض؟ كان بطرس محروسا فى السجن حتى تنتهى أيام الفطير «وأما الكنيسة فكانت تصير منها صلاة بلجاجة إلى الله من أجله» وكلمة «بلجاجة» فى الأصل اليونانى هى التى استعملت فى وصف صلاة المسيح فى جثسيمانى حين «كان فى جهاد وكان يصلى بأشد لجاجة» (لو ٢٢: ٤٤)، وهذا يبين أن جهاد الكنيسة فى الصلاة من أجل زعيمها كان جهادا عنيفا.

الأرجح جدا أن بولس وبرنابا كانا حاضرين فى هذه الاجتماعات الخالدة، فإنهما كانا قد أحضرا تقدمات مالية لإغاثة إخوتهم الذين فى اليهودية، ولكن هذه المساعدات لم تكن لها قيمة تذكر بجانب مساعدتهما الروحية والأدبية، فقد كان لاشتراكهما فى الصلاة والتضرعات مع الكنيسة، وتضميد قلوب إخوتهما فى ساعة المحنة الشديدة، تعزية شديدة وإغاثة قوية. لم ينس بولس قط الأسبوعين اللذين قضاهما مع بطرس منذ بضع سنوات، وكان برنابا يذكر أنه كان هو السبب فى معرفته للمسيح، وهل يمكن أن ينسى تلك المناظر السابقة - التى لم يتقادم عليها كثيرا - حين أتى بثمان الحقل الذى باعه ووضع عند أرجل الرسل، فاجتذب بذلك محبة بطرس.

مضى يوم بعد يوم حتى انتهت أيام العيد السبعة. وفى الصباح، كان هيرودس مزمعا أن يأتى بسجينه ويهزأ به، ثم يحاكمه، ثم يقتله بقسوة. وإلى ذلك الوقت، لم يكن قد سُمِعَ صوتٌ من السماء باستجابة الصلاة. كان قمر الفصح قد بدأ يتوارى، وكان النهار قد بدأ يظهر نوره. أخبرنا الكتاب بأن الحراس لم يشعروا بعدم وجود بطرس فى السجن إلا عندما صار النهار، أى عند شروق الشمس، نحو الساعة السادسة صباحا.

إذن، فمن هذا يتضح أن خروج بطرس من السجن حصل بين الساعة الثالثة صباحاً، حين بدأت نوبة حراسة جديدة في حراستها، والساعة السادسة حين انتهى موعد حراستها. كان لابد من انقضاء فترة كافية يتغلب فيها النعاس على الحراس فينامون نوما عميقاً. لذلك فالمرجح أن ذلك حصل في الساعة الخامسة صباحاً في شهر أبريل، حيث أشرق نور الفجر في غرفة بطرس، ووقف ملاك الرب بجانبه. إلى تلك اللحظة لم تكن الكنيسة قد كفت عن الصلاة من أجل زعيمها. ألم يخبرنا الكتاب بأن المخلص أتى لتلاميذه في الهزيع الرابع من الليل؟ ألم يخبرنا بأنه كان يقضى الليل كله في الصلاة؟ ألم يطلب منا مراراً بأنه ينبغي أن يصلّى كل حين ولا يُمل؟ «فتأنوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب. هو ذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنياً عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر، فتأنوا أنتم وثبتوا قلوبكم لأن مجيء الرب قد اقترب» (يع ٥: ٧ و ٨)، «سيأتى ولا يبطئ» (عب ١٠: ٣٧).

وفي نفس الوقت، لقد كان الله يستجيب الصلاة بما وهبه لبطرس من سلام عميق في قلبه. فقد كان «نائماً بين عسكريين، مربوطاً بسلسلتين، وكان قدام الباب حراس يحرسون السجن»، هكذا كان أيضاً معلمه نائماً في السفينة وسط الأمواج المتلاطمة والزواجع التي كادت تعصف بالسفينة ومن فيها. وتبين لنا كلمات بطرس، التي نطق بها فيما بعد، سر هدوئه العميق، فقد كان يختبر طوباوية أولئك الذين يعبرون باسم المسيح، وكان قد سمح له بأن يشترك في آلام المسيح، وكان روح المجد والله يحل عليه، وكان يتألم بحسب مشيئة الله، وكان يستودع نفسه لخالقه الأمين في عمل الخير (١ بط ٤: ١٣ - ١٩).

ولعله أيضاً كان يناجي نفسه بتلك الكلمات التي لم ينسها قط والتي خاطبه بها الرب على شاطئ البحيرة «متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء» يو (٢١: ١٨)، على أنه لم يكن قد شاخ، بل كان لا يزال في عنفوان القوة، ولم يكن في سلطان هيروودس الحكم بالموت صلباً، لهذا فإنه قد استراح بالرب، وانتظره بالصبر، وامتلأ قلبه وعقله بالسلام الكامل. ألم يكن هذا جزءاً على الأقل من استجابة الله لصلاة الكنيسة المستمرة؟

فداومى الصلاة يا كنيسة المفدين. إن يهوه راكب على السماء وآت فى معونتك
(تث ٣٣: ٢٦)، هو فى وسطك، فلا تتزعزعين، هو سيعينك فى الفجر، رب الجنود
معك، إله يعقوب ملجأك، هنالك نهر تفرحك سواقيه.

﴿٣﴾ انفتاح الباب الحديدى

إن ملائكة الله قريبة منا على الدوام، وهى مرسلة لخدمتنا نحن الذين فى أشد
الحاجة لمعونتها، قلوبها الطاهرة تخفق عطفاً علينا وشفقة بنا فى أحزاننا، وتمتلئ
بهجة وحبوراً فى أفراحنا؛ وهى فى معظم الحالات لا تعلن ذاتها إلا فى حالات
الضرورة القصوى، كما نرى فى هذه الحالة، ولكنها رغم ذلك معنا على الدوام، وأبونا
السماوى يعهد إليها العناية بنا لكى تحفظنا فى كل طرقنا. عهد إلى أحدها بمرافقة
بطرس فى طول الأيام السبعة، وظل منتظراً اللحظة التى يحددها الرب نفسه للعمل،
وهو لا يجروء أن يتقدم أو يتأخر لحظة واحدة. وعندما حانت اللحظة المعينة، خلع عنه
رداء الخفية، وللحال، أضاء نور خفيف هادئ على جماعة النائمين، ولكن لم يستيقظ
أحد، فاضطر أن يضرب بطرس فى جنبه ويدعوه للاستيقاظ، فاستيقظ بطبيعة الحال
وهو لا يدري أنه قد تحرر من القيود والسلاسل. وعلى أى حال، لم يكن الأمر محتاجاً
للتسرع أو العجلة، فإنه عندما يتقدم الرب أمام عبده ويعمل كقائد لهم، فلا داعى
للعجلة أو الهرب. ويبدو أن الرسول كان منذهلاً، وفى حاجة مستمرة إلى التذكرة بأن
يمنطق حقوقه ويحتذى نعليه ويلبس رداءه. وإطاعة لأمر الملاك الذى دعاه بأن يتبعه،
نراه يخرج من الباب وهو يتوهم بأنه فى حلم «وكان لا يعلم أن الذى جرى بواسطة
الملاك هو حقيقى، بل يظن أنه ينظر رؤيا». جاز المحرس الأول والثانى على ضوء النور
الذى شع من الملاك، ولكن، رغم ذلك النور، فإن أحداً لم يستيقظ «لأن سبات الرب وقع
عليهم». هل تساءل عما إذا كان ممكناً أن يُفتح هذا الباب الحديدى الضخم؟ هل خطر
بفكره المنذهل أنه بعد هذا لا بد أن يلقي القبض عليه، وقد وصل إلى هذا الباب الذى
لن يمكن أن تقوى عليه قوة لفتحه؟ هل امتلأ قلبه بنفس الخوف الذى ملأ قلوب النسوة

فى مثل هذا اليوم منذ أربع عشرة سنة، حينما قالت بعضهن للبعض: «من يدحرج لنا الحجر عن فم القبر؟» هذه أسئلة لا نجد إجابة عنها، على أننا نعلم أنهما حينما وصلتا إلى هذا الحاجز الأخير، انفتح لهما من تلقاء ذاته بغاية الهدوء. امتدت إليه يد قوية خفية وفتحته ثم أغلقته، خرج بطرس فى ضوء نور الفجر، وجاز زقاقا واحدا فى رفقة الملك الحارس. وإلى هنا انتهت مهمة الملك، لأن الله لا يسرف فى صنع المعجزات؛ لأنه حينما يرى أننا نستطيع أن نسير بمفردنا، وأن مواهبنا تكفى لإتمام مسئولياتنا، يتركنا لاستخدامها. لذلك، فإنهما حينما «تقدما زقاقا واحدا، للوقت فارقه الملك»... «ثم جاء وهو منتبه إلى بيت مريم حيث كان كثيرون مجتمعين وهم يصلون.» كانت مريم أختا لبرنابا، وهى أم يوحنا الملقب مرقس. لم ينس أحد فى ذلك البيت تلك الليلة، فقد كان كل قلب مثقلا بسبب استشهاد بطرس المزمع أن يتم. ولعل الأمل فى إنقاذه كان قد بدأ يتضاءل فى القلوب، لذلك، فقد استسلموا لإرادة الله، وكانت مجرد طلبتهم أن يقويه الله فى ساعاته الأخيرة. هذا يفسر عدم تصديقهم حينما اندفعت فى وسطهم رودا الخادمة معلنة بأن بطرس واقف قدام الباب. سألت الجارية - من باب الاحتياط - الواقف على الباب عما دعاه إلى الحضور فى تلك الساعة الشاذة، وسألته عن شخصيته، وحينما سمعت صوته الذى كانت تعرفه جيد المعرفة، لأنه كان يتردد على البيت كثيرا، عرفته للحال، ونسيت أن تفتح له بسبب شدة الفرح، حتى اضطر أن يستمر فى قرع الباب. لعله إذ ذاك خشى لئلا يستلفت الأنظار، فيعاد القبض عليه، ولكن لم يكن هنالك بد من إعادة قرع الباب مرارا، واثقا أن العناية التى أنقذته من أعدائه لابد أن تقدمه لأصدقائه.

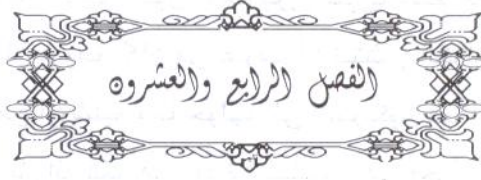
«قالوا لها أنت تهذين، إنه ملاكه...» ولكن استمرار قرع الباب وتأكياداتها الملحة قلبت فى النهاية، وفتحوا الباب، فوجدوا كما قالت الجارية: «فلما فتحوا ورأوه اندهشوا.» يذكرنا هذا المشهد بموقف التلاميذ مساء يوم القيامة، حين آراهم السيد يديه ورجليه، ولكنهم ظلوا غير مصدقين من الفرح ومتعجبين (لو ٢٤: ٤٠). وحالما

أدرك الحراس عدم وجوده فى السجن، لابد أن تكون الأوامر قد صدرت بالتفتيش عنه فى بيوت أقرب الأصدقاء. أما هو فلم يظهر شيئاً من العناد، بل استعمل شيئاً من الحكمة ليفلت من أعدائه. لذلك غادر المنزل «وذهب إلى موضع آخر» بعد بضعة استعلامات وإرشادات عاجلة، وبعد أن كلفهم بإبلاغ تحياته الحارة ليعقوب والإخوة.

كلنا معرضون بأن نجد أنفسنا فى السجن، سجن الظروف التى لا مناص لنا منها، سجن العلاقات التى تحد من حريتنا، سجن نتائج أخطاء الماضى التى تهددنا بالموت. وعندئذ نجد أنفسنا جالسين فى الظلام، موثقين بالشدة والحديد. ولكن لنصرخ إلى الرب فى ضيقنا، ولنسأله أن ينجينا من شدائدنا، لنعترف بخطايانا ولنرجع إليه لطلب المعونة، فيسمع صراخنا من الجب الأسفل، ويدنو منا يوم ندعوه قائلاً: «لا تخف». ويخاصم خصومات أنفسنا، ويفدى حياتنا، ويحفظ أنفسنا من أن نتحدر إلى الجب، فتترى حياتنا النور.

ليت البشر يحمدون الرب على رحمته وعجائبه لبنى آدم.





﴿ خروجي ﴾

﴿ ٢ بط ١ : ١٢ - ١٦ ﴾

❖ «لتنفتح أمامك أبواب السماء، لكي ترجع إلى الله الذي خلقك وفداك، وبنعمته طهرَك من كل أوزارك، فلا تعود قوات جهنم ترنو إليك، اذهب إلى السماء في محفل الظافرين.»

﴿ برايت ﴾



بعد القرار الخطير الذي وصل إليه مجمع الكنيسة الأول (أع ١٥)، يبدو أن التفكير اتجه إلى تقسيم مناطق الخدمة بين زعماء الكنيسة. واضح أن «إنجيل الغرلة»، على حد تعبير الكتاب في (غل ٢)، أوُتمن عليه بولس بإرشاد الله، «فإن الذي عمل في بطرس لرسالة الختان عمل فيّ أيضا للأمم». لهذا، فقد عهد إلى بولس بالكرازة في الناحية الغربية من الإمبراطورية الرومانية، وكان ذلك بموافقة يعقوب رئيس الكنيسة وبطرس ويوحنا، فأعطى لبولس وبرنابا يمين الشركة ليذهبا إلى الأمم، أما هم، فكان عليهم أن يكرسوا جهودهم لخراف بيت إسرائيل الضالة المستقرة في الشرق.



﴿١﴾ خدمة بطرس فى التجول

وفقا لهذا الترتيب، نجد رسول الأمم يزور سوريا وسواحل آسيا الصغرى، ومن هناك يتجه إلى اليونان وروما. كان فى عزمه أن تنتشر الكرازة فى كل أرجاء العالم الغربى... «حتى أنى من أورشليم وما حولها إلى الليريكون قد أكملت التبشير بإنجيل المسيح» (رو ١٥ : ١٩)، بل إنه فكر فى زيارة إسبانيا، وهى آخر حدود الإمبراطورية من ناحية الغرب.

أما بطرس، فإنه من الناحية الأخرى - كما يُستدل من رسائله ومن التقليد الكنسى، حصر كل جهوده فى خدمة الجماهير الغفيرة من إسرائيل المشتتين شرق الإمبراطورية. ومما تجدر ملاحظته أن بعض ممثلين لليهود المشتتين كانوا حاضرين ضمن الجماهير الغفيرة التى اجتمعت يوم الخمسين (أع ٢). فإن فارتيا وميديا والفرس وما بين النهرين وكبدوكية وبرجة وبمفيلية - هذه كلها أرسلت ممثليها، والأرجح جدا أن كل هذه الأرجاء كانت تدخل ضمن أبروشية بطرس. وحسبما نعرفه من التقليد، لقد قضى بطرس السبعة عشر عاما الأخيرة من حياته فى الخدمة التبشيرية فى دائرة متسعة؛ كان ينتقل من مكان لآخر برفقة زوجته، وكان موفقا جدا فى خدمته حتى أن الكثيرين كانوا يهجرون عبادة الأوثان ويهرعون إلى عبادة الله، ويخدمون الله الحى الحقيقى، وينتظرون ابنه من السماء.

بعد موت بطرس بأربعين عاما، وصف «بلاينى» (Pliny) الذى عينه «تراجانوس» واليا على جزء من أبروشية بطرس فى ورقة رسمية، كيف سادت المسيحية تلك الأقطار بشكل عجيب؛ فالهياكل التى كانت مكرسة للمريخ والمشتري هُجرت، والذبائح العادية أبطلت تقديمها، أما اجتماعات الشيعة المسيحية، المعتبرة بأنها مفسدة فى نظر الوالى، فكان يحضرها كل الشعب. بعد ذلك، نراه يعترف بنقاوة وقداة تعاليم المسيحيين وسيرتهم، كما يعترف بتعهداتهم الخطيرة نحو الابتعاد عن الخطية، وبتحررهم من خطايا العنف والقسوة؛ وهذه الشهادة تؤيدها شهادات متعددة عديدة من

غيره. ونحن، إذ نقارن هذه الشهادات بعضها، نستنتج أن المسيحية انتشرت انتشارا واسعا جدا، وأنه كان يزيد فى انتشارها حياة المسيحيين المكرسة تكريسا كاملا للمسيح ولنشر إنجيله بين إخوتهم فى البشرية. قال أحد مؤرخى ذلك العصر «يا للدهشة حين يتطلع المرء إلى مقدار نشاط هؤلاء القوم الفقراء فى الدفاع عن قضيتهم، إنهم مقتنعون كل الاقتناع بأنهم سيتمتعون يوما ما بالحياة الأبدية، لهذا فإنهم يهزأون بالموت بشجاعة عجيبة، ويسلمون أنفسهم اختياريا للتعذيب، وهم ينظرون إلى الثروة الأرضية بكل احتقار، ولهذا، فإن كل شئ عندهم مشترك.» هكذا كان المحصول وفيرا وغنيا، ذلك الذى انتجته خدمات بطرس ورفاقه فى تلك الحقول الخصيبة.

أما مقدار جهاده فى الأصقاع الشرقية من الإمبراطورية، فإننا نجد عنه دليلا جديدا فى رسالته الأولى؛ فإنه فيها يخاطب المختارين المتغربين فى شتات بنتس وغلاطية وكبدوكية وآسيا وبثينية. ومما تلد لنا ملاحظته، هو أن ترتيب ذكر هذه البلاد خليق بمن يكتب فى الشرق لا فى الغرب، يبدأ هذا الترتيب بالبلاد التى فى أقصى الشرق، ثم يتدرج غربا، ثم ينتهى بالبلاد التى فى أقصى الجنوب.

هذه المساحة الشاسعة التى تقدر بمساحة فرنسا، والتى تحتوى على ٥٠٠ مدينة، اجتازها الرسول مرارا، ولكنه واضح أنه لم يكن مجرد مبشر متجول، فإن رسالتيه تحملان الدليل على أنه ظل فى كل مكان وقتا طويلا يكفى لبناء كنائس قوية، وقيم شيوخا، ويرعى الخراف والغنم كأمر الرب.

أما لهجة الرسالتين، فإنها مليئة بالمحبة والعواطف؛ فنحن إذ نقرأ كيف كان يعلم الآلام والمحن التى اجتازوها، وفى هذا ما فيه من عطف متدفق، وكيف كان يدرك أن خلع مسكنه سوف يسبب لهم حزنا شخسيا؛ نتيقن أنه كانت هنالك رابطة وثيقة ورقيقة جدا بينه وبينهم ربطت قلبه إليهم وربطت قلوبهم إليه، ويقول البعض أن الأخت المختارة التى فى بابل هى زوجته التى انتهزت فرصة كتابة الرسالة فبعثت بتحياتها الحارة إلى الزوجات والأخوات اللاتى عرفتهن وأحبتهن، ثم إن عدم توجيه الرسالة

لكنائس معينة، بل إلى المختارين المتغربين فى الشتات، يصور لنا أن بطرس كان يشغل وظيفة رعوية ممتازة، لا تنشأ إلا من طول الإقامة فى المراكز الرئيسية المأهولة بأكبر عدد من السكان.

وعلى أية حال، فيجب ألا نتصور بأنه وجه حديثه إلى اليهود فقط؛ فإنه يذكر صراحة أولئك الذين لم يكونوا شعبا، أما الآن، فإنهم شعب الله، والذين كانوا غير مرحومين، وأما الآن فمرحومون (١ بط ٢: ١٠). ويستنتج من تحذيراته من ضفر الشعر والتحلّى بالذهب ولبس الثياب الفاخرة، أن الإيمان الجديد اعتنقه بعض الأثرياء من الطبقات العالية، ولعل رغبته فى أن يحتج المؤمنون أو يدافعوا عن رجائهم وقت الحاجة، دليل على أنه كان من بينهم من تتقف ثقافة عالية تمكنه من ذلك بجدارة؛ ولكن واضح أنه كانت هنالك نهضة متسعة وسط الكنيسة المسيحية بعثت فى نفوس الوثنيين رهبة وفزعا.

فى رسالة كورنثوس الأولى، نجد بعض الإشارات لبطرس، مما يرجح أنه زار تلك المدينة الهامة التى كانت مركزا تجاريا عظيما لتوسطها بين روما وبابل... «أنا لبولس، وأنا لأبلوس، وأنا لصفاء»... «أعلننا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل وإخوة الرب وصفاء». قد تشير هذه بكل بساطة إلى حزب المحافظين فى الكنيسة الأولى الذين التفتوا حول اسمه وشخصيته القوية، كما التفت أصحاب الآراء الحرة حول بولس؛ ولكنها قد تشير أيضا إلى معنى أبعد، وترمى إلى أنه، حتى بعد حادث أنطاكية الأليم، اشترك بطرس مع ذلك الخادم الجليل - بولس - الذى يتحدث عنه فى رسالته الثانية، بأنه أخوه الحبيب، وتعاون معه شخصا فى الخدمة فى كورنثوس، وربما فى غيرها أيضا.

﴿٢﴾ إقامة النهائية فى بابل

فى الجملة الأخيرة من رسالته الأولى، يبين أنه كتبها من بابل. ولا شك فى أنه، فى أواخر أيامه، عندما عطله ضعف الشيخوخة عن متابعة جهاده، استوطن فى تلك المدينة الأثرية التى كانت مكتظة باليهود.

عندما استولى نُبُوخذَنَاصَّرُ علي أورشليم فى المرة الأولى، نقل إلى بابل «جميع أصحاب البأس وجميع الأبطال أهل الحرب» (٢ مل ٢٤: ١٦).

وبعد بضع سنوات، عندما تمرد الملك صدقيا، بعد حرق بيت الله، وهدم السور، نقل الملك إلى بابل جميع الذين نجوا من حد السيف. لذلك، كان يوجد فى منطقة بابل عدد عظيم جدا من اليهود الذين كانوا يعاملون بشيء كثير من الحرية، كما كانوا يعطون الفرصة لتنمية ثروتهم وثروة البلاد. أما جماعة اليهود الذين عادوا إلى مدينتهم المتهمة بقيادة عزرا، ثم بقيادة نحميا، فقد كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة لعدد اليهود الذين نقلوا إلى بابل. ويبدو أن الأغنياء والمعلمين والأشراف فضلوا البقاء فى تلك المدينة الجميلة - بابل - التى امتازت بأنهارها العظيمة، وخصب أراضيها، وجودة هوائها. قال أحدهم: «إن خلاصة البلاد هى التى حملت إلى السبى، وخلاصة البلاد هى التى فضلت البقاء فى الأراضى التى نقلوا إليها».

قيل إن عدد اليهود فى بابل، فى الوقت الذى نتحدث عنه، لم يكن يقل عن مليونين. يقرر «ميلمان» Dean Milman فى كتابه «تاريخ اليهود» أن بابل كانت مزدهرة جدا بسكانها اليهود حتى أن «فيلو» يشير أكثر من مرة أنه فى استطاعتهم الانتقال لمساعدة إخوتهم فى فلسطين، وبذلك يرجعون كفة الحرب مع روما.

كان هؤلاء اليهود البابليون متمسكين جدا بالتقاليد القديمة، فقد وصفوا بأنهم عبرانيون من العبرانيين، وكانوا يقدمون سنويا تقدمات سخية حسبما تتطلبه خدمة الهيكل، وكانوا يطيعون أوامر السنهدريم فى النواحي الروحية. ورغم بعد المسافة ومشقة السفر، فإنهم كانوا يأتون بأولادهم للعبادة فى هيكل أورشليم، وكلما صلوا كانوا يتجهون ناحية أورشليم؛ على الصفصاف فى بابل علقوا أعوادهم، وكانوا يفضلون بأن تنسى يمينهم إذا هم نسوا مدينة آبائهم. لذلك كان الجو الذى خلقوه لأنفسهم يهوديا كله، حتى أخذ عنهم هذا القول المأثور «من يسكن فى بابل كمن يسكن فى أرض إسرائيل».

إذن، يحق لنا أن نستنتج بأن العاصفة الهوجاء، التى عصفت على الكنيسة فى أورشليم، وجدت فى هذه المدينة الجميلة مرفأ هادئاً. وهناك أيضاً كتب راعى المشتتين رسالته الأولى التى نشرها بواسطة سلوانس أو سيلا، ثم رسالته الثانية التى يصح اعتبارها شهادته الأخيرة لحق الإنجيل الذى كان متأهباً للموت من أجله كما أعلن له الرب أيضاً. ومما يلد لنا ملاحظته، ذكره لسيلا لأننا نعلم أنه كان رفيقاً لبولس وملازماً له. ومن الإنصاف أن نستنتج بأنه أوفد من زعيمه برسالة محبة وتشجيع لبطرس وقت ضعف الشيخوخة، وأنه أحضر مجموعة من كل الرسائل التى أفرغ فيها رسول الأمم أعماق آرائه عن فضل معرفة الرب يسوع المسيح. ومن الأعداد الأخيرة من رسالة بطرس الثانية يتضح أنه قرأها كلها، ووجد فيها بعض نواح عسرة الفهم، ولكنه أحب صديقه وأخاه محبة عميقة واعترف شاكرًا «بالحكمة المعطاة له».

وفى بابل أيضاً، تعاون مع مرقس «ابنه» فى كتابة الإنجيل. يعتقد بعض آباء الكنيسة، وضمنهم ترتليانوس واكليمنضس وإيريانوس، أن مرقس كان مترجماً لبطرس، ونحن لا يسعنا رفض آراء الكنيسة الأولى، سيما وأن هنالك بعض مميزات فى الإنجيل نفسه تؤيد هذا الاعتقاد؛ فقد لاحظ بعض المدققين أنه يتضمن بعض تفاصيل دقيقة لا يذكرها إلا من رآها رؤيا العين، واشترك فى الحوادث العجيبة فى خدمة المخلص... فالوسادة فى السفينة (ص ٤ : ٣٨)، والعشب الأخضر فى معجزة إشباع الخمسة آلاف (٦ : ٣٩)، والجحش المربوط عند الباب (١١ : ٤)، واحتضان الأطفال الصغار (١٠ : ١٦)، وذكر هذه العبارة «طليثا قومى» بنفس اللغة التى نطقت بها (٥ : ٤١)، والتحدث عن بطرس بأنه كان جالساً يستدفئ عند النار حينما كُشف أمره (١٤ : ٥٤)، ودرج اسمه بصفة خاصة ضمن رسالة القيامة (١٦ : ٧)؛ كل هذه الأدلة على أن وراء قلم مرقس، كانت تستتر ذاكرة شخص كان معايينا عظمة السيد وجماله. لا بد أن بطرس كان، كلما استعاد ذكريات الماضى، يضىء وجهه بضياء مجيد، كما ازدادت نفسه انتعاشاً حينما استعادت الذاكرة - برفقة مرقس - تلك المناظر التى كانت بداية شركته مع الله، والتى سوف تتجدد فى اليوم الكامل سريعاً بعد أن تتضحها السنون.

احتدم الجدل كثيرا حول «بابل» المذكورة فى رسالة بطرس، وكثر التساؤل عما إذا كانت قد ذكرت على سبيل المجاز على أساس أنها تشير إلى «روما». ومع أنه لم يبت نهائيا فى هذا النزاع، ولكن مما رأيناه فى الصفحات السابقة عن وفرة عدد اليهود المقيمين فى بابل، ومما نلمسه من الأدلة الكثيرة المؤيدة لاعتقادنا، يبدو أنه من المرجح جدا أن المقصود ببابل هو تلك المدينة التى تسمى فعلا بهذا الاسم، والقائمة على شاطئ نهر الفرات. نحن نعلم أن خدمته الرئيسية كانت بين اليهود، وأنه كانت هنالك مقاطعة متسعة لليهود بين النهرين، وأن النواحي الخمسة التى صدر إليها رسالته الأولى كلها فى ناحية الشرق، وأن الترتيب الذى روعى فى ذكرها يمثل الكاتب جالسا فى بابل ومتطلعا إليها. كل هذه الأدلة تنتهى بنتيجة واحدة هى التى قدمناها. ومع التسليم بهذا، فإنه توجد هنالك أدلة قوية على أن «خروجه» (أو انتقاله) تم فى روما.

قال لكتيتيوس، وهو أحد آباء القرون الأولى: «كان نيرون قاسيا، بل وحشيا فى اضطهاده، ظالما، عاتيا، فاعتزم أن يلاشى الكنيسة السماوية. وإذا أصبح مضطهد عبيد الله، صلب بطرس وقتل بولس». هذا على الأقل يتفق تماما مع نبوة المسيح أنه متى شاخ، فإنه يُحمل حيث لا يشاء، وأن يديه تُبسطان عند الموت، وهذا تعبير يبين نوع الموت الذى كان مزمعا أن يمجد الله به.

بعد أن أشعل نيرون النيران فى روما، وجعلها كومة من الرماد، بما عرف عنه من قسوة ووحشية، تراجع أمام ثورة رعاياه، وأراد أن يبرر نفسه من تلك الجريمة النكراء، فألصقها بالمسيحيين الذين كانت طهارتهم تشهد على جرائمه بصفة دائمة. إن القلم ليعجز عن وصف جرائم القتل التى ارتكبها؛ على أنه للبحث عن بعض الضحايا، أراد أن يظهر البلاد من المسيحيين، فوجه أقصى ضرباته لقادة المسيحية وزعمائها أولا. كان بولس بلا شك أحدهم، وكان بطرس على الأرجح جدا من ضمنهم؛ والمفروض أن الأمر بإلقاء القبض عليه أعطى فى أوائل الاضطهاد النيرونى، أى عام ٦٤م. على أن الرحلة من بابل إلى روما كانت طويلة، ولعلها استغرقت نحو عام. بعد ذلك بوضع سنوات،

أحضر أغناطيوس الشيخ أسقف أنطاكية بحالة مماثلة، وشكا من أن الجنود الذين ساقوه إلى روما كانوا مثل عشرة نمور مفترسين، وأنه كان يحارب وحوشا مفترسة برا وبحرا، ليلا ونهارا. ولعل بطرس وزوجته كابدا ما كابده أغناطيوس.

لم يدون لنا الوحي شيئا عما حل بهما في روما، على أن ديونيسيوس، أسقف كورنثوس في الجيل الثاني، يقرر بأن بطرس وبولس استشهدا في وقت واحد. ويقرر جيروم، أحد رجال القرن الرابع، أن بطرس استشهد صليبا، وكان صلبه منكسا، أى أن رجليه رفعتا إلى فوق، ودليت رأسه إلى أسفل، لأنه قرر أنه لا يستحق شرف مماثلة ربه في هيئة صلبه. بهذه الطريقة تم خلع مسكنه، وهكذا تم الخروج الذي حصل في روما. بهذا الخروج اجتاز من هذا العالم إلى أحضان الفادي الذي أحبه من كل قلبه. قال بطرس مرة للرب: «يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟» (يو ١٣: ٣٧)، فأجابه السيد على الفور: «لا تقدر أن تتبعتني الآن، ولا هنا، أمامك دروس كثيرة لتتعلمها، ومهام عديدة لتقوم بها، قبل أن تتمم جهادك وتكمل سعيك، ولكنك ستتبعني أخيرا» (ع ٢٦)، وهذه الكلمة تمت الآن. ألا يحق لنا أن نتأكد من عطف وإشفاق رئيس المتألمين لحبيبه المتألم؟ لا شك في أنه خفف من آلامه، ولا شك في أنه انتظر عبده على حافة الأبدية للترحيب به في ملكوت الآب ومجده.

يحدثنا التقليد بأن بطرس، تحت تأثير أصدقائه وإقناعهم له، أفلت من السجنين، وهرب من السجن، وخرج من المدينة مسرعا في الطريق العام، فقابله المسيح، وإذ عرفه بطرس في الحال سأله: إلى أين أنت ذاهب يارب؟

فأجابه: إنى ذاهب لأصلب ثانية.

ألم تصلب مرة وحيدة يا رب؟

نعم، ولكنى رأيتك هاربا من الموت فأردت الذهاب لأصلب عوضا عنك.

يارب إنى سأذهب لأطيع أمرك.

لا تخف لأنى معك.

وعلى الفور عاد الرسول إلى السجن، وسلم نفسه للسجانين.

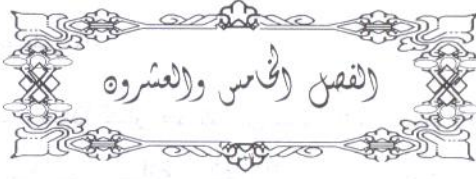
واضح أن هذه الرواية لا تتنافى مع روح التسرع والتقلب التى لدينا أمثلة كثيرة عنها، والتى اتفق كل الإنجيليين فى تصويرها؛ وفى الوقت الذى قال للمسيح فيه: «أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ»، نراه يترك كل شئ ويتبعه، وفى الوقت الذى يقول فيه للسيد: «لن تغسل رجلى أبدا»، نراه يقول «يا سيد ليس رجلى فقط بل أيضا يدي ورأسى». وفى الوقت الذى قال: «كلا يارب»، نراه يقول: «أترى يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء؟» إذن، فهذه الرواية تتفق مع أخلاقه تماما. على أنه من العسير أن نعتقد بأن صفة التقلب لم تقهر نهائيا بحلول الروح القدس فيه. ومع ذلك، فإن ما نشعر به من ضعف متكرر، وفشل متكرر فى حياتنا الشخصية، يجعلنا نعتقد بأنه لم يصل إلى درجة الكمال المطلق؛ فنحن نعلم بأن فىنا ما يدفعنا لإنكار الرب أمام جارية إن كنا صغارا، أو للإحجام عن الآلام والاستشهاد إن كنا كبارا. على أن المحبة التى أحببنا، حينما كنا أمواتا بالذنوب والخطايا، لا تسقط أبدا.

هنالك رواية أخرى نقلها إلينا اكلمنضس الإسكندرى، تتضمن بأن بطرس حينما رأى زوجته تساق إلى الموت، فرح لدعوة الرب إياها، ولإسراعها فى الارتحال إلى وطنها السماوى، فصرح إليها مشجعا ومعزيا إياها ونادها باسمها وقال لها: «أذكرى الرب». ثم ختم اكلمنضس حديثه قائلا: هكذا كانت الحياة الزوجية وثيقة بينهما، وهكذا كان اتفاقهما كاملا فى أحب الأمور إليهما.

من مراجعة عظة بطرس يوم الخميس، وعظته التالية، ومن التأمل فى كلتا رسالتيه، يتضح أنه كان ملما إماما كافيا بالنبوات، وبتفسيرها؛ فقد كان بصفة مستمرة ينمو فى المعرفة كما كان ينمو فى النعمة، فمرة يقتبس من يوشع، ثم يتحدث عن الحجر الذى رفضه البنائون، ثم يشير إلى أزمنة رد كل شئ التى تكلم عنها الله بضم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر. وفى بيت كرنيليوس، يصر على أن جميع الأنبياء شهدوا ليسوع. وفى رسالته الثانية، ينهض بتذكرة أذهاننا لتذكر الأقوال التى قالها سابقا الأنبياء القديسون، وكان واثقا أن الكثير من نبواتهم قد تم فيما يتعلق بشهادتهم عن آلام

المسيح، ومتيقنا أن خدمته تتفق مع روحهم، حيث كان يكرز بالإنجيل بقوة الروح القدس المرسل من السماء؛ ولكنه حينما أضاء له نور الله الكامل، ومثل في حضرة الله بعد خلق مسكنه، وحينما تذكر اختباره السابق على جبل التجلي، نستطيع أن نتخيله يردد القول «جيد يارب أن نكون ههنا.» لا داعي للإقامة في مظلة وقتيه، لأنه مقيم في بيت الآب ذى المنازل الكثيرة، ولا خوف من ذبول الرؤيا أو اختفاء الأحباء. لقد انتهى ليل الصيد الطويل، وأتى يسوع إلى حافة المياه ليرحب به. لقد تقدم متمنطقا لخدمته. لقد شفيت جروحته من أوراق شجرة الحياة. لقد نسيت كل أتعابه، إذ قبله الرب مرحبا به. عندئذ التف حوله الأصدقاء والمحبون، يشع من وجوههم ضياء المحبة المستمد من حضرة الله، ولم يسأله أى واحد منهم عن اسمه، أو عن المكان الذى هم فيه، لأنهم يعلمون أنهم فى الوطن الذى وعد الرب بأن يعده.





﴿ غروب الحياة البهيج ﴾

﴿ ٢ بط ١ : ١٥ ﴾

❖ «فى كل عمل مجيد، نحس بسمو حياتهم،
ونلمس الخير الذى طُبعت عليه، والذى لن
يتغير قط، كما نشهد القداسة فى سيرتهم.»

﴿ لويل ﴾



حرص الرسول على أن تتضمن رسالتاه كل الآراء التى
كان يود أن تكون مقرونة بذكراه. ولنتأمل فيها الآن قليلا، وهذه يمكن
درجها بهذا الترتيب:

﴿ ١ ﴾ التعزية وسط الآلام

لقد أوفده الرب بصفة خاصة لتشديد إخوته، وهؤلاء كانوا فى
الواقع يجوزون ظروفًا تحتاج إلى تعزية وتشديد. لقد عُيروا باسم
المسيح، ودُعوا لى يتألموا كمسيحيين؛ لقد تحدث عنهم أعداؤهم كفعل على
شر، وافتروا على سيرتهم الحسنة. لقد كانت تجارب إيمانهم وصبرهم
وثباتهم «محرقة». لقد كانوا يجوزون التجربة كأنهم يجوزون النار
الملتبهة؛ والواقع أنهم دُعوا لى يشتركوا فى آلام المسيح كأَن طريقهم
لابد أن يجتاز جثسيمانى ثم الجلجثة، كما كان طريق المسيح. لقد
حوكموا أمام قضاة وثنيين، خسروا ثروتهم، عُدِّبوا، تشتت عائلاتهم،



جلدوا بقسوة، سجنوا لمدد طويلة، ذاقوا الموت بالسيف أو بالنار. وقد لاحظ أحدهم أن بطرس يستعمل الكلمة اليونانية المقابلة للكلمة التي استعملها تاشيتوس عن المسيحيين، وقال إنهم قد تألموا «كفأعلى شر».

فى هذه الظروف، ماذا كان ممكنا أن يملأ القلب سلاما سوى أن الرسول يذكرهم مرارا بمثال المخلص وثباته، الذى تألم لأجلهم تاركا لهم مثالا لكى يتبعوا خطواته. لم يكن ما حل بهم أمرا مستغربا؛ فالمسيح تألم كما تألموا هم؛ ولهذا، كان لهم كل الحق أن يفتخروا باشتراكهم معه فى آلامه، لذلك يقول لهم: «كما اشرتكم فى آلام المسيح افرحوا». وهو بهذه الكلمات يكشف عما تكنه أعماق نفسه، فقد كان ماثلا أمام عينيه دواما موت الاستشهاد، كما أخبره الرب، وهو إنما نقل إلى الآخرين مصدر ثباته وشجاعته، وهو أن المسيح الذى تألم لأجله، سوف يقف بجانبه يقويه ويسنده حينما يجوز النيران.

﴿٢﴾ عنصر الكفارة فى موت المخلص

لم يكن موتا طبيعيا ذلك الذى حجب الشمس وجهها أمامه وتمزقت الصخور؛ بل كان موت الفادى، كان ذبيحة كما من حمل بلا عيب ولا دنس. لقد حمل ابن الله خطايا البشرية فى جسده على الصليب. لقد مات البار من أجل الأثمة، لكى يقربهم إلى الله؛ والدم الذى سفك على الصليب كان دما كريما زكيا، وحينما يرش هذا الدم على الضمير يمنحه سلاما، وينزع النفس من سيرتها الباطلة التى تقلدتها من الماضى. لقد أتيح للرسول أن يدرك بأن المنظر الذى شهده وسط الظلام الذى كاد يخفى الصليب، إنما كان إتماما لخطة مرسومة ومعروفة سابقا قبل تأسيس العالم. لقد كان عنصر الكفارة ماثلا أمام الله منذ الأزل؛ وهذه الحقيقة تفسر لنا كيف أن القدير خلق كائنات قابلة للسقوط فى الخطية؛ على أن أولاده ينبغى أن يكونوا قديسين فى كل سيرة، بينما جريمة إهمال المحبة التى استهانت بكل تضحية لإتمام الخلاص، قد ازدادت كثيرا، بل هى فى ازدياد مستمر، وإن كان القضاء قد ابتدأ من بيت الله، فما هى نهاية أولئك الذين لا يطيعون إنجيل مثل هذه المحبة التى لا تقدر قيمتها.

﴿٣﴾ يقينية المجد العتيد

لقد ذكر بطرس أولئك الذين كتب إليهم بأنهم قد ولدوا ثانية لرجاء حتى بقاء يسوع المسيح من الأموات، وأنهم قد اشتري لهم ميراثا، وهذا الميراث ينتظرهم، وهو لا يقضى ولا يتدنس ولا يضمحل. وهنالك خلاص مستعد أن يعلن إليهم، وهو يجعلهم ينسون ثقل نفوسهم، في تجاربهم المتنوعة. وعند استعلان يسوع المسيح المجيد، يُمنحون نعمة عظيمة. لقد كانوا شركاء آلام المسيح، ولكن مجده سوف يستعلن يقينا، وعندئذ يبتهجون بفرح لا ينطق به ومجيد، وينالون إكليل مجد لا يضمحل. لقد دعوا للمجد، والله لا يمكن أن يكذب في مواعيده، بل بالعكس؛ إنه يقدم إليهم، بسرعة، الدخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي. بعد أن ينتهى ليل العواصف، لابد أن يشرق النهار، وكوكب الصباح الأبدي لابد أن يرتفع في كبد السماء، ويعلن عن يقينية إشراق نور النهار، ولو انحلت السماوات، والأرض ملتهبة، وذابت العناصر محترقة، فإنهم ينظرون سموات جديدة وأرضا جديدة يسكن فيها البر. هذا ما رآه مقدما. إن كان بولس يدعى رسول الإيمان، ويوحنا رسول المحبة؛ فإن بطرس يدعى بحق، رسول الرجاء.

﴿٤﴾ ضرورة الحياة المقدسة

لقد دعى المتجددون على يديه لتقديس الروح للطاعة. لم يكن ممكنا أن يسلكوا حسب شهواتهم السابقة التي ارتكبوها في أزمنة الجهل، فإن الذى دعاهم قدوس، ولذا؛ ينبغى أن يكونوا هم أيضا قديسين. لقد دُعوا لئلا يكونوا جنسا مختارا، كهنوتا ملوكيا، زمة مقدسة، شعب اقتناء للمسيح، لهذا وجب أن يسبحوا ذاك الذى دعاهم من الظلمة إلى نوره العجيب. بسيرتهم الحسنة، كانوا يلزمون الأمم بأن يمجدوا الله. إن زمان الحياة الذى مضى يكفى لسلوكهم فى الدعارة والشهوات وعبادة الأوثان البغيضة؛ والآن يجب أن يحسبوا أنهم كنوح، قد جازوا مياه طوفان الموت إلى عالم القيامة والحياة.

لا تتسع هذه الصفحات المحدودة للإفاضة فى التأمل فى كل نصائحه التى دونها فى هاتين الرسالتين عن القداسة، أو لتوضيح الصفات المسيحية التى يؤكدّها، بل يكفى

أن نخص بالذكر نعمة التواضع التى طالما كرر التحدث عنها بكل قوة «تسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون، فيعطيههم نعمة..» يا له من فرق شاسع بين هذه النصائح وبين روح الكبرياء والفخر والزهو السابقة التى طالما سببت له الفشل فى أيامه الأولى. إنه لم يعد بعد سيدا ومتسلطا على ميراث الله، بل «مثالا للرعية».

وبهذه المناسبة، يجدر بنا دراسة تلك النصائح الرائعة فى (١ بط ٢)، (٢ بط ١): فالأول ينقلنا من بداية الحياة المسيحية إلى قدس الأقداس لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله يسوع المسيح؛ والثانى، يعدد لنا بركات الحياة المقدسة كأنها قلادة من لآلىء نفيسة، يبدأ طرفها الأول بالإيمان، وينتهى طرفها الأخير بالمحبة. وهكذا، تصير نفس المؤمن شريكة للطبيعة الإلهية، هاربة من الفساد الذى فى العالم بالشهوة، وهكذا أيضا نصير غير متكاسلين ولا غير مثمريين فى معرفة ربنا يسوع المسيح. ويا لها من فكرة رائعة نراها هنا، إذ تصور لنا السفينة القوية التى، بعد أن تشق طريقها وسط الأنواء، والمخاطر، تدخل الميناء رافعة أعلامها، فترحب بها الجموع.

﴿٥﴾ طبيعة الموت

لقد فكر فيه، وتحدث عنه، كأنه خلع الخيمة أو المسكن.. الأمر الذى يمثل غربلة حياته الأرضية، لكى يدخل البيت غير المصنوع بالأيدي، مسكنه الدائم الأبدى، فى السماء. قال عنه، إنه «خروج»، وهذه تبين عقيدته فى الموت، بأنه ليس حالة، بل اجتياز، ليس قنطرة التنهدات والدموع الموصلة من السجن إلى نور يوم الأبدية، هو اجتياز الحاجز الذى يفصل بين الميناء والمحيط المترامى الأطراف.

وهو بكل تواضع، رجا بأن يقدم له، ولمن تحدث إليهم، بسعة، الدخول إلى ملكوت المسيح الأبدى ومجده. وفوق ذلك، فإنه كان ينتظر الميراث المحفوظ له فى السموات، ويرجو بأن يسمح له أن يكون شريك المجد العتيد أن يعلن؛ وكل ذلك يلخص فى رؤية ذلك الوجه العزيز الذى كان يرجو بأن يراه حالما يجتاز إلى هناك. كان يسوع كوكب الصباح لقلبه، نور كل مستقبله، فى المدينة التى لا تحتاج إلى الشمس أو القمر، لأن الخروف هو نورها.

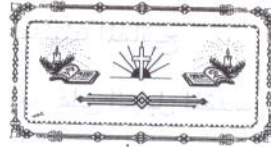


صفحة

الموضوع

٥	مقدمة المؤلف
٧	مقدمة التعريب
٩	مكتبة المحبة
١١	الفصل الأول : كلمة تمهيدية
١٩	الفصل الثانى : الأيام الأولى فى مدرسة السيد
٢٥	الفصل الثالث : الاستعداد للتأثير العظيم
٣٣	الفصل الرابع : صياد الناس
٤٣	الفصل الخامس : دروس أولية
٥١	الفصل السادس : الدرس الأول والثانى
٥٩	الفصل السابع : لمن نذهب غير المسيح
٦٧	الفصل الثامن : أعطيك المفاتيح
٧٣	الفصل التاسع : معه على الجبل المقدس
٨١	الفصل العاشر : عنى وعنك
٨٩	الفصل الحادى عشر : الراعى فى حراسته
٩٧	الفصل الثانى عشر : مساء تجربة الإنكار
١٠٥	الفصل الثالث عشر : لا تضطرب قلوبكم
١١٣	الفصل الرابع عشر : ولبطرس
١٢١	الفصل الخامس عشر : وظهر لبطرس

١٢٩	الفصل السادس عشر : المهمة المجددة
١٣٧	الفصل السابع عشر : شاهد القيامة
١٤٩	الفصل الثامن عشر : باسمه
١٥٩	الفصل التاسع عشر : أيها البنّاؤون
١٦٧	الفصل العشرون : ازدياد بطرس تعمقا في اختبارات الروح القدس
١٧٩	الفصل الحادى والعشرون : باب الإيمان للأمم
١٨٩	الفصل الثانى والعشرون : تحطيم النير
٢٠١	الفصل الثالث والعشرون : أمضى معك حتى إلى السجن
٢٠٩	الفصل الرابع والعشرون : خروجى
٢١٩	الفصل الخامس والعشرون : غروب الحياة البهيج



رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٧٧ / ١٩٨١

الترقيم الدولى ١ - ٠٩ - ٧٣٢٩ - ٩٧٧

طبع بشركة هارموني للطباعة

تليفون ٦١٠٠٤٦٤ (٠٢)



مكتبة المحبة

٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤ - ٧٧٧٤٤٨